الوفاء عمـــاد النظام الاجتماعي

« يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود »

تمهيـــد :

١ — العقد أو العهد : كل اتفاق بين طرفين على أمر جائز . وقد يكون العهد من طرف واحد ، وذلك حاصل فى شئون الدنيا والدين . اذ تجرى بين بعض الناس وبعضهم مبادلات مالية فى التعامل ، وعقود متنوعة مشروطة أو غير مشروطة : فى البيع ، والاجارة ، والشركات ، والزواج ونحوها من شئون الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، كما تجرى بينهم كذلك معاهدات دولية فى التجارة والسياسة والحروب والجوار : مما تمليه الحاجة ، ويتطلب الأمر فيه مؤازرة وتناصرا لتيسير الصعوبات ، وادراك المقاصد .

٢ — وهناك عهود بين الله وعباده تعتبر عقودا منوطة بذمة الانسان .

ا) بعضها تشريعات من جانب الله سبحانه ، بين الله فيها حلاله وحرامه ، وحدد فيها حدوده التى أمر النـــاس بالوقوف عنـــدها ، ونهاهم عن تجاوزها ، بل نهاهم أحيانا عن القرب منها : مبالغة فى صيانتها وعدم انتهاكها ، وخلق فيهم عقولا تفطن ، وتميز الخبيث من الطيب ،وألزمهم أن يفقهوا بها ، وأن يتخيروا لانفسهم ، ويطيعوه فيما دعاهم اليه .

فكانت هذه التشريعات — ومايقترن بها من دعوة العقول الى تلقيها بالقبول ، وما تهيأت له العقول من ادراك وتمييز وقبول — بمثـــابة العهد أو العقد بين الله والناس .

ب) وبعض هذه العهود (بين الله والناس) من ناحية الانسان نفسه : يتعهد المرء بعمل طاعة من الطاعات فيما يسمى نذرا ، أو يعاهد على المشاركة فى عمل مبرور : كبناء مسجد ، أو مقاتلة عدو لله ولل

أو مساعدة محتاج فى حاجة هامة ، أو نحو ذلك مما يعد طاعة دينية .
وهذه أيضا عقود ، أو عقود منوطة بذمة الانسان كما ألزم نفسه ..
فحديثنا الآن ذو جانبين : أحدهما عقود دنيوية تكون بين بعض الناس والبعض .. وثانيهما عهود دينية وهو مابين الله وعباده : سواء أكان من ناحية التشريع الدينى ، أم كان من ناحية الزام المرء نفسه بعمل صالح.

٣ — ومادام الدين لمصلحة الناس .. ومادام التعاقد المشروع لدنياهم مستمدا من جانب الدين وتشريعاته : فلا حرج أن نعتبر الحديث عن العقود والعهود — مهما تنوعت — سياقا واحدا ليس فيه جانب وجانب ، اذ الدين لاصلاح الدنيا ، والدنيا لتمام الدين ، والقيام بالتزاماته .

وعلى أى نحو كان توجيه الحديث : فالله تعالى يلقى علينا أمره بالوفاء بالعقود فى قوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » . أى : أنجزوها على وجه الكمال .

وهذا أمر شامل لكل مابيننا من عقود مشروعة ، ولكل مانلتزمه لله من عمل مبرور ، ولا تخرج عنه التشريعات المدنية الوضعية التى لاتحل حراما ولا تحرم مباحا ، فالدين يقرها ، ويعتبرها من مسؤولية المسلم بوجه عام ، ويطالب الناس بطاعة أولى الأمر فيها ، ليستقيم حال الناس فى دنياهم .

٤ — ومعروف أن التعاقد أو التعهد لم يقصد منه غير تحقيق مصلحة مستساغة شرعا ، أو عرفا ، وأن التخلف عن الوفاء بهذا الالتزام يهدم ثقة بعض الناس ببعضهم ، ويهون عليهم التلاعب فى تعاملهم ، ويعرض مشروعاتهم الحيوية للفشل ، ويشيع الفوضى بينهم .

هذا ، وتجارب الناس فيما وقع بينهم ، وماطرأ على تعاملهم من آثار طيبة للوفاء ، وآثار كريهة للخديعة والغدر : كل ذلك يساعد على ادراك حكمة الله فى أمره هذا ، وعنايته سبحانه بجلب المصالح لهم ، ودفع الأضرار عنهم « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » .

وفى الحق : أن اضطراب المعاملات ، وتشعب الخصومات ، وزعزعة الأمن ، وأكثر ماينتاب الأسر من تصدع ، وما ينقض النظام الفردى والجماعى

وما تزدحم به دور القضاء ، وما تسفك بسببه الدماء ، وما تنشب من أجله الحروب : كل ذلك فى واقع الحال أو فى أغلب الأحوال ناجم عن التنصل من الوفاء ، والتلاعب بالعقود ، والخيس بالعهود ، طواعية للأنانية ، أو غرورا بالنفس ، أو استخفافا بالعاقبة ، أو تحللا من النظام ، وجنوحا الى الفوضى ، وتهافتا على المظالم والتهام الحقوق .

٥ — ولم يستقم شأن الناس — فيما جرت به الحياة يوما — على الغدر وعدم الوفاء ، وان التاريخ ليحدثنا عن آثار ذلك فيما وقع بين أفراد أو دول ، وفى تفاسير القرآن ، وكتب الأدب والتاريخ قصص واسع، وأمثلة كثر ، لما أحدثه اهدار الناس للوفاء بعقـودهم ومعاهداتهم ، وفى حياتنا الحاضرة أوضح الشواهد لما نقوله عن الغدر بالعقود .

ولما كان الناس لا يتنبهون دائما الى تجاربهم ، ولايتعظون بما جرى على غيرهم . كان للقرآن توجيهات أكيدة ، وأوامر شـديدة ، بالحث على الوفاء حتى مع الخصوم والأعداء المحاربين ، ذلك لأن الوفاء — فى ذاته ، وفضلا عن منافعه — خلق كريم ، وشعار للمروءة والنبل ، اذ هو صـدى للضمير الحى ، ومرآة للنفس الأبية ، وتلك شمائل يوحى بها الايمان ، ولا تستقر الا حيث يستقر الايمان فى قلب [illegible]ص من شوائب النفاق ، وبرىء من خدع الضلالة ، وألاعيب الضالين .. وان تكن هنالك أمثلة للوفاء من غير مؤمن فهى نادرة ، وهى ناجمة عن [illegible] سلمت من العوج ، ولكنها من غير تدين . فتكون كثوب الرياء لا تلبث [illegible] كالنبت تحت وهج الشمس لا يعيش طويلا .

٦ — ومن أجل ذلك ترى [illegible] فى مقام الدعوة الى الوفاء بقوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وفى هذا اشعار فى قوة المنطق [illegible] ، وأن المؤمنين [illegible] بهم ألا يفوتهم [illegible] عليه ، اذ المفروض أن المؤمن [illegible] بتعاليمه ، [illegible] بشخصيته ، وأنه يستجيب لكل ما هو من مقتضيات الايمان .. [illegible] الصفات .. وأما [illegible] والتعميم [illegible] الوفاء [illegible]

٧ — وطبيعى أن الوفاء المطلوب لايتعدى العقود المستساغة التى أذن بها الشرع نصا ، والتى تتمشى مع مايحدث من مصالح الناس دون مناهضة للدين ، ولا امتزاج بالأباطيل .. وعلى ذلك يكون التعاقد — على محرم ، أو التعهد بمحظور ، أو التعرض لما يتنافى مع المصلحة التى توائم توجيهات الاسلام — خارجا عن السياق الذى نحن بصدده ، وليس الوفاء به من مقاصد الأمر الذى نحن بسبيله ، بل هو من المنهيات ، وفى حيزها ، والحظر أولى به .

لذلك ترى القرآن الكريم يردد الأمر بالوفاء فى صيغ عدة ، مكتفيا بالاجمال ، ومعتمدا على أن الوفاء بالأمور الحلال هو المقصود ، وأن تخصيصه بذلك أمر مفروغ منه ، اذ لاحاجة الى استثناء المحظورات ؛ فانها بمعزل عن الطلب ، وعن الترغيب فيها ، وذلك بدهى ، فانظر مثلا الى الآية التى معنا : والأمر فيها : « أوفوا بالعقود » وأى عقود هذه ؟؟ هى العقود التى تتعلق بها مصالح الناس ، وليس فيها منافاة لمقصد الشريعة .

ثم يفصل بعضها فى ذكر ما أباح وماحرم : من بهيمة الأنعام ، وصيد الحرم للمحرم وغير المحرم ، وتحريم المنخنقة ونحوها .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : «وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا» وأى عهد هذا ؟ هو ما يكون بين الناس من عقود ، وما يكون بينهم وبين الله من عهود ، فان كلها منوط بالذمة .

ويقول : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » .
ويمتدح المؤمنين فيذكرهم بقوله : « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » ويقول : « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » .

وهكذا ترى الكتاب العزيز حاثا فى مواطن كثيرة على الوفاء ، وزاجرا: صراحة أو ضمنا عن الخديعة ، والمكر ، والغدر .

فالوفاء جميل ، والله يحب كل خلق جميل ، وهو من الكمال ، والله يحب الكمال ، وقد وصف نفسه تعالى بأنه لايخلف الميعاد ، وأنه لا يخلف

وعده ، وليس أحب الى النفس المؤمنة من التخلق بأخلاق الله ، وقد حفلت الكتب بذكر الموفين بعهدهم ولو كان فى الوفاء حتفهم ، فكانت ذكرياتهم الخالدة • وقد أمتدح الله رسوله ابراهيم بصفات : منها الوفاء بالعهد فى التضحية بولده اسماعيل « وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا •• وامتدح اسماعيل فى وفائه بعهده لأبيه « يا أبت افعل ما تؤمر ، وقال الله فيه : « واذكر فى الكتاب اسماعيل ، انه كان صادق الوعد •• » •

والخلف نقيصة خلقية فى ذاته ، وفى نظر الاسلام بداهة ، وربما دعت هذه النقيصة الى سوء الظن بالاسلام نفسه عند من يقيسون الاسلام بسقياس أعمالنا ، ويعتبرون أعمال المسلم وخلقه صورة لدينه ، وتفسيرا لتعاليمه •

ومن كان كذلك ، أو سببا فى شىء من ذلك فهو كما أسلفت حجة على الدين فى نظر الأعداء ، وهو مطعن على المسلمين •

ومن أجل هذا تنصل النبى — صلى الله عليه وسلم — ممن يكون فى هذا الموقف وعلى تلك الشاكلة ، فقال : من أعطى الدنية من نفسه فليس منا » . يعنى من ظهر بمظهر الخسة ، وكشف عن حطة فى خلقه ، فهو فى غير عداد المسلمين .

ومن دعوات الصالحين التى يحكيها عنهم القرآن الكريم (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) : لا تجعل عملنا حجة على الدين • وهذا ينطبق على كل متحلل من خلق الاسلام ، ونابذ لمحامده : وفيها مافيها من مياسم المجد ، وكمالات الانسانية ؛ وأمارات النبل التى تغتبط بها النفس الزاكية ، وتعتز بها الجباه العالية ؛ والاسلام دائما يطلب الى أهله أن يكونوا مثلا كريمة ، فان الاسلام يعلو دائما ، ولا يعلى عليه •

فليكن الوفاء من مبادئنا ولو كان مع من لانحب ، فان الحق حق وان أشاح عنه أناس ، وهو شريعة الله •• وان الباطل باطل وان انضوى اليه كثيرون ، وهو فتنة الشيطان ، ومفسدة الحياة ، ومهزلة التاريخ • والنبى صلوات الله يقول (ان ديننا لايصلح فيه الغدر) •

نقول هذا والعالم كله يشهد انتقاض الدول الاستعمارية على مصر لاحتفاظها بحقوق طبيعية ، ومشهود بها فى عقود قائمة ؛ ولحرصها على الوفاء

بتلك العقود مع استعدادها لكل اتفاق يطمئنهم دائما ، كما عاشت وفية حتى مع من هضم حقوقها زمنا طويلا •

ولكن الغرب يستمرىء ظلمها ، ويخيس بالمعاهدات كما يحاول الغرب المستعمر أن يفرق العرب أشتاتا ، وأن يقطع أوصال الشرق كله ، والله معنا ، والعصمة من الله •

بين الله والناس وشائج ثلاث

(ا) روحية (ب) ومادية (ج) وخلقيــة •

ا) « اليوم اكملت لكم دينكم •••
ب) « وأتممت عليكم نعمتى ••
ج) « ورضيت لكم الاسلام دينا » •

(المائدة ٣)

فى هذه الجمل الثلاث بيان لوشائج ثلاث ، تصل الانســـان بربه ، وتكشف للعقول عن مبلغ رعاية الله لعباده ، وعن تكريمه للآدمية على سواها مما فى الأرض جميعا •

(ا) فالوشيجة الأولى : هى الوشيجة الروحية « اليوم أكملت لــكم دينكم » •• اذ يخاطب الله ـــ سبحانه ـــ سائر عباده ، ويخاطب أمة محمد ـــ على وجه الخصوص ـــ بأنه اليوم ، أى حين نزول الآية ، على محمد : وهو فى حجة الوداع ، سنة عشر من الهجرة ، قد أكمل دينه لنا •• حيث بدأه منذ بدأ رسالاته لرسله قديما •

ثم سار التشريع السماوى فى طريق التطوير ، والتدرج ، من كمال الى أكمل ، حتى أشرقت على الدنيا رسالة محمد ـــ صلوات الله عليه وسلامه فكانت خاتم الرسالات •

وبها وصل التشريع الدينى غاية أوضاعه ، واحتوى من الأحـــكام ، والضوابط ، والأدلة ، والتوجيهات مايجارى حياة الناس الى مداها المحدود لها فى تقدير الله ، ويكفل حضارتهم فى أوسع آفاقها التى تبتغيها الانسانية فى أكمل عصورها ، وفى كل آونتها •

واذ قاربت حياة محمد فى دنياها أن تنتهى الى الرفيق الأعلى : أنزل الله على رسوله تلك الآية ، ليبين للناس أن شريعة الله قد أوفت على الغاية ، وأنها استقرت على وجه الكمال المنشود ، وأنها الوشيجة الأكيدة ، والعروةالوثقى بين الله وعباده •

ونحن ندين — حقا — بأن الله لم تكن له حاجة فى تعبدنا بما شرع لنا فان الله غنى عن عباده ، والناس هم الفقراء اليه ، وليس على عظمة الله حرج أن يعصيه من خلقه من يعصيه ، فان جبروت الله لايعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض •

وانما هو فضل يشاء الله أن يسبغه ، ورحمة أراد أن يبسطها ، واحسان يضفيه على عباده •

كل هذه الكمالات العلوية تعلقت بخير الناس ، وآثرتهم بالبرالموصول من جانب الله •

فرسم الله لعباده وشيجة الاتصال الروحى به — سبحانه — لينعموا برضاه ، ووضع لهم معالم هدايته فيما دعاهم اليه من عقيدة ومن عمل ، وما رتب على احسانهم فيهما من جزاء ، وازاء هذا يكون الناس على بينة من أمرهم . وعلى أهبة السير فى طريقهم •

ويكون شأنهم فى الاختيار موكولا الى ميولهم ، وجزاؤهم من جنس أعمالهم ؟ « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ؛ وان أسأتم فلها » ، « وما ربك بظلام للعبيد » •

وأنت ترى اطار التشريع الدينى على اتساع مداه ؛ لايعدو هـــذه الجوانب الثلاثة : عقيدة ، وعمل ، ثم جزاء •

وفى هذا الاطار تعاقبت الرسالات النبوية وتسابقت فى مجاله الانسانية بحسن اختيارها لما اهتدت اليه بتقواها . أو تخلفت عن السبق وراء شيطانها وهواها ..

وقد قضى ربك أن كل امرىء بما كسب رهين .

ذلك شأن ظاهر الملامح فى كل مقام تتعرض له من سياق القرآن ، أو تنظر اليه فى توجيهات الرسول .

ومع تحديدنا له فى هذا المنطق اليسير فهو مجال اتسع مداه قديما لبحوث مترامية ، وجالت فيه عقول وأفهام ، حتى فلسفوا كل جانب منه ، وانقسمت فيه الجماعة الى فرق ومذاهب ، وقد حدثنا الرسول بأنها تجاوزت أو تتجاوز اثنتين وسبعين فرقة .. والحق لايتعدد وماكان التدين لله بحاجة الى ذلك ، وقد كان الناس يسألون النبى — صلى الله عليه وسلم — عن عقيدة الايمان فلا يزيد على تعريفهم : أن الايمان تصديق بالله ، وبملائكته ، وكتبه . ورسله : واليوم الآخر ، وبالقضاء ، وبالقدر من عند الله ، وذلك هو الجانب الاعتقادى الحق ، لاسواه .

وكانوا يسألونه عن الجانب العملى — الاسلام — فيقرر لهم : انه شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام مرة للمستطيع .

وفى هذا الايجاز يعلم الناس حدود ايمانهم وأعمالهم .

أما جزاؤهم فلا يدريه على التحديد أحد ، لأنه غيب يعلم الله مداه ، وان كان حصوله مقطوعا به ، والبيان عنه مستفيض غير محدود .. هكذا كانت الوشيجة الروحية مرسومة لنا ، ولمن قبلنا ، وهى شاخصة لمن بعدنا فيما شرع الله .

ولكن تشعبت الجدليات ، وتعددت السبل « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » « .. ولا يزالون مختلفين — باختلاف ميولهم — الا من رحم ربك . ولذلك خلقهم » .

ولا بأس علينا أن ندع الاســـهاب فيما أسهب فيه الآخرون ، فذلك انحراف عن القصد ، الى فلسفة جدلية فيها شطط لم يقف بالناس عند جانب الأمن على عقائدهم .

ومن أجل ذلك ترى كثيرين من سلف الأئمة تحاشى الفلسفة ، وخافها على نفسه ، وعلى الناس ، وكانوا يسألون الله العصمة ، ويقولون : اللهم ايمانا كايمان العجائز .

يريدون : ايمانا صحيحا ، راسخا ، لاتهزه الشبهات ، ولا يلاحقـــه الجدل الفلسفى ، وكأنه دعاء مستمد من القرآن .. فى مثـــل قول الله ـــ سبحانه ـــ « ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن ؛ فقد استمسك بالعروة الوثقى ، والى الله عاقبة الأمور » .

فاسلام الوجه الى الله ، معناه : صدق الايمان ، وتمام الاعتماد على الله مع الاحسان فى القول وفى العمل .. فمن كان كذلك فقد أمن الفتنـــة على نفسه فى دينه ، ودنياه ، وكان كالمتمسك بعروة حبل وثيق ، فلا تزل قدمه أبدا .. وحسبك أنه فى رعاية الله ولائذ به « وكفى بربك هاديا ونصيرا » .

وهذه العروة الوثقى التى يعتصم بها من يخاف الزلل ، والتى تعتبر مثلا للدين فى حمايته لمن يلوذ به ـــ هى : الوشيجة الروحية بين الله والناس ـــ كما سميناها فى صدر الكلام ـــ هذا .. وقد سبق لنا ولغيرنا أن فصلنا القول تفصيلا فى ضرورة العقيدة الايمانية الصحيحة كأصل لما بعـــدها من شئون فى الدين والدنيا .

وهى الطرف الأول فى تلك الوشيجة ، أو فى الحبل الوثيق الذى يعتصم الانسان بعروته ، فمن لم يكن آخذا بهذا الطرف الأول كان فى مهب الريح ، وكانت حياته فرطا .

« ومن يكفر بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالا بعيدا » .

ثم يأتى مجال العمل المشروع كله كترجمان للعقيدة ، ومظهر صحيح لهـــا .

ومن غير عمل المرء بما تقتضيه العقيدة يكون تدينه مجهولا ، ولا يعتد به مستجيبا لله ، ان المتدين بعقيدته دون عمله يكون متناقضا مع نفسه ، اذ كيف يكون مصدقا بقلبه ، ومتخلفا عن العمل بمقتضى ايمانه ، ثم يكون على الايمان المنشود •

ان القرآن يذكر الايمان فى عشرات من آياته ولا يذكره الا مقـرونا بالعمل الصالح — والقصد من العسل الصالح : كل عبادة ، وكل جهاد فى الدنيا يكون وسيلة الى الخير •

والقرآن الكريم فى كل مقام يذكر فيه الايمان والعمل يقرنهمـا بذكر الجزاء الحسن ، ويؤكد وعده وبشراه لهؤلاء المؤمنين العاملين •

كما يذكرنا كثيرا بتفاوت الدرجات فى الجزاء ، تبعا لتفـاوت مراتب الأعمال : كثرة ، وقلة ، واتقانا ، وغير اتقان ، واخلاصا ، وغير اخلاص •

وان عناية القرآن بذكر الايمان مقرونا بالعمل لتدل فى يقـين على أن بينهما ارتباطا ذاتيا فى نظام التشريع •

والعقيدة من غير عمل ككنز مدفون لا يعرف سبيله ، ولا أثر له خارجا فهو أشبه بالمعدوم ، حتى يكون له مظهر وجودى كما يريد الله •

كما أن العمل وحده دون عقيدة متأصلة يعتبر بناء على غير أساس ؛ فهو بناء متهدم من أوله : وذلك عمل أهل الكفر ، والنفاق ، والعصاة •

والعجيب أن جمهرة من الناس حتى المثقفين يـكتفون باعتقادهم عن أعمالهم ، فلا ترى لهم ناحية ايجابية ، وان رأيت لهم علما ، وعقلية ، ومظاهر أدبية ، وكأن العقيدة عندهم هى كل شىء ! كما أنك ترى كثيرين يعملون عملا طيبا ، ولكن الخبرة تدلك على أنه من طريق غير اعتقادى ، بل هو وليد العادة ، وهم يتحللون منه لأقرب الأسباب ، وكثيرا ما تجد الواحد منهم بين العمل ونقيضه ، فالتدين عند هؤلاء ليس كما فهمت : عقيدة يرتبط بها بل هو تلون ، مع المناسبات ، والله — سبحانه — طيب ، لا يقبل من العمل الا ما كان طيبا ، وغيره مردود على صاحبه • « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » يعنى : مردود •

وما أحب أن أستطرد فى ذكر الآيات ، أو الأحاديث فى هذا الصدد ، فذلك شأن يطول .. واذ تعرضنا للأعمال وجزائها عند الله يعترضنا خاطر من الخواطر عن مذهب قديم يعرف بمذهب الجبر والاختيار .

وهو مذهب مطبوع بطابع الفلسفة ، ويقرر أن العبد غير مخير فى عمله بل هو مسير أو مجبور ، فى كل شىء ، فلا ارادة له .

ومما دعانا الى التعرض لهذا المذهب أن بيننا أفرادا يتأثرون به ، ويحسبونه صوابا .

ولو طاوعنا هؤلاء الجبريين فى مذهبهم لوقعنا فى الخطأ الفاحش ، بل لوقعنا فى الكفر من حيث لاندرى .

وذلك أنه على القول بأن العبد مجبور دائما ولا خيار له لا تكون لرسالة الأنبياء فائدة ، حيث لاجدوى لها فى صرف الناس عن شرورهم ، ولا توجيه لها الى نواحى الخير مادام العبد لايختار ، ولا يتزحزح عما قدر له من عمل لا محيد له عنه ، وهذا انتقاض على الله فى بعثه للرسل للهداية والارشاد .

كذلك لايكون العبد مسئولا عن عمله مطلقا ، لأنه مغلوب على أمره فى زعمهم فلا يحاسب ، ولا يعاقب عند الله ، لأنه ما أخطأ عن ارادة واختيار ، بل هو مضطر .. مع أن القرآن يلقى مسئولية الأعمال الاختيارية على العبد ، ويهدده بالعذاب على فعل المنكر مختارا بارادته « كل امرىء بما كسب رهين » «بما كنتم تكسبون» «فبما كسبت أيديكم» ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وان أسأتم فلها » « ان الله لايظلم الناس شيئا » ومذهب الجبر يقتضى أن ننكر الحساب والجزاء ، أو نعتبر العذاب ظلما من الله للعبد ، وهذا كفر بالقرآن . وضلال من العقول .

وأقوال الجبريين على العموم غير مأمونة ، ويجب أن نطرحها جانبا ، وأن ننظر الى الأمر فى ضوء الواقع الذى نحسه ، حتى نهتدى الى الحق فى اطمئنان .

فكلنا يحس من نفسه أن له اختيارا لما يلبسه ، أو يأكله ، أو يقوله ، أو يعمله ، وأنه يفضل شيئا على شىء فيؤثر الأول ، ويترك الآخر ، أو يعود فيفضل الآخر على الأول .

وهكذا من تصرفات يزاولها المرء فى كل ساعاته .. وذلك الاختيار هو مجلبة الحساب ، والجزاء لأنه وليد الارادة التى تملك أنت توجيهها ، أو الاحتفاظ بها حتى لا تكون مدخل الشيطان الى نفسك ، وحيث أسأت فى اختيارك فالجزاء من جنس عملك .

وانظر : لو انطلق من يدك المسدس ، فأصاب انسانا عن غير قصد منك فلا اثم عليك ، ولا عقوبة ، لأنك غير متعمد ، ولا خيار لك فى هذا . والنبى — صلى الله عليه وسلم — يقول (عفى لأمتى عن الخطأ) .

ولو أن الاصابة نفسها كانت متعمدة فالمسئولية عليك ، لأن لك اختيارا فى هذا .

وقس على ذلك أمورا تحتمل الارادة وعدمها ، والمسئولية فيها رهينة بالقصد ، وكلها يفصح لك عن وجود ارادة لها أثر فى العمل ، فيكون الجزاء منوطا بها لئلا تهدر الدماء والحقوق مع وجود الارادة فى التعدى .

وينعدم أثر الارادة اذا لم يكون لها تعلق بالعمل ، لئلا تصير الأعمال القهرية كالعسد فى مسئولياتها ، وهذا تكليف بما لا يطاق .. والله يعفى الناس مما لا يطيقونه .

وهكذا فى جانب العبادات ، فالمفطر فى رمضان عاق آثم ، وعليه القضاء ، وغير المتعمد كالناسى ، غير آثم ، ولا قضاء عليه ، وذلك لانعدام الارادة فى حالة الاضطرار . ومن هذه الايضاحات يكون العبد مسئولا عما يرتكبه من سوء باختياره ، وقد تأكد لدينا أن له اختيارا أحيانا .

وهذا مجال يتسع للكثير من التوجيهات ، ولعل قليله يغنى عن كثيره ، ولعلنا نرجع عن التأثر بمذهب الجبريين ، ولا تنسى التكليف الدينى بما يكلفنا به الله بمقتضى مالنا من مواهب ، وارادة ، وقدرة على التنفيذ وعلى الاحجام .

أما مايقوله البعض : أن فلانا وقع فى المحظور ، وهو مقدر عليه ، ولا يمكنه التخلص من المقدور فكلام بعيد عما تقوله .. فان حديثنا عن اختيار العبد الذى كان منه قبل التنفيذ ، ثم ترتب عليه التنفيذ بعد .

والعبد حين اختياره أولا لم يكن علم بالمقدور ، ولا تأكد وقوعه وانما هو يختار ويتسبب أولا ، ثم يظهر له بعد أنه كان مقدورا عليه ، وحسابه على ماكان من تصرفه الذى ترتب عليه الفعل •

وعند بعضنا شبهة تعرض له فى موقفنا هذا ••

وهى — اذا كان اختيار الانسان سببا لوقوعه فى المحظور ، فكان الخير له أن يخلق الله فيه اختيار الخير فقط ، حتى لا يقع فى سوء اختياره بعد •

ونحن نفهم أن قصر الاختيار على نوع واحد يعتبر تحديدا للمواهب ، وتفييدا لحيوية الانسان •• والخير أن يكون اختياره فسيحا ، وأن تطلق مواهبه وارادته فى مجالها الانسانى ، وأن يزود بالتوجيهات التربوية ، ليكف عن نزواته الشريرة ، وينطلق فى الجانب الخير ، فيكون له ، وللانسانية نفع من مواهبه ، ويكون له ثواب الجهاد لنفسه فى قمعها عن ميولها السيئة ولا يكون الانسان أشبه بالحيوان الأعجم •

ثم أن الله لم يخلق أهل الشر أخيارا لما سبق فى علمه — قبل أن يذرأهم فى دنياهم — أنهم سيختارون الشر بميولهم الشخصية فهو يعلم مقدماتهم ، ويعلم نتائجهم قبل أن يعلموها عن أنفسهم •

ولذلك يقول سبحانه — عن الكفار — « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون» . يعنى : أن علمه بهم سابق على ما يختارونه •

هذا — ومن الخير للمسلم أن يقتصد فى النقاش ، أو التهريج على مذهب الجبرية لئلا تتولد عنده الشبه ، فلا يستقر ايمانه ، أو يفتن عن بعض ما يعتقده حقا وقد لايصادف من يصحح له الشبهة العارضة فيعيش على ضلاله •

وكان من دعاء السلف الصالح : اللهم انا نعوذ بك من الفتن ماظهر منها وما بطن • ؛

(ب) الوشيجة المادية بين الله والناس : « وأتممت عليكم نعمتى » :

١ — نوجز حديثنا عن الوشيجة المادية بين الله والناس .. ومردنا فى هذا الحديث ذلك الجزء الذى ذكرنا من الآية ، قول الله تعالى « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه» . وحيمنا نفقه حكمة الله فيما شرع ، وفضله علينا فيما خلق نكون على رشد ، فيما نختار ، وعلى أمل فيما نطمع .

٢ — الوشيجة المادية شاخصة فى أنفسنا ، وفيما بين أيدينا ، وفيما يعرض لنا ونحسه أو ينبهنا اليه القرآن ، وسنة الرسول .

فالله — تعالى — يذكرنا بمبدأ وجودنا منذ خلق الانسان من سلالة من طين ، ثم منذ علقت بنا الأمهات ، وتناولتنا يد القدرة بالتسوية فى كلتا المرحلتين : طورا بعد طور .

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » « يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك ، فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك ».

ثم ينتقل بنا التوجيه القرآنى فى حلقات مسلسلة ، ويشعرنا فى كثير من مقاماته بأن السمع ، والأبصار ، والأفئدة من خصائص الانسان ، وأنها لم تخلق عبثا ، ولا لمجرد التكوين العارى عن الهدف ، والحكمة ، وانما هى وسائل الادراك والتعقل ، وهى أدوات العلم الباحث فى مجاهل الحياة عن آسرار هذا الوجود ، ومافيه من كائنات .

وهى — بالتالى — معارج الكمال الانسانى الذى يريده الله لعباده فى دنيانا وفى آفاق المعرفة .

وعندما نفسح مجال البحث والنظر فيما حولنا نرى فى السماء وفى الأرض عظمة شامخة ، وعوالم كثيرة باهرة ، ونسمع القرآن يلفتنا فى تأكيد الى تلك العوالم فى علوها .

وفى تتابع سيرها فى بروجها ، وآفاقها ، والى تعدد منافعها للانسان وللحيوان وللزروع كما نرى فى عوالم الأرض جبالا ، وبحارا ، وأشجارا ، وأزهارا ، وحيوانا ، وطيرا ومعادن وما يحتويه كل ذلك من خير للانسان فى كسائه وغذائه ومباهجه ، وسفره واقامته الخ .

٣ — ومع احساسنا بهذا كله فالقرآن يزيدنا تنبيها اليه وتقديرا له حتى ليذكر لنا من تفاصيل هذا المتاع ما يزيدنا تعلقا به وحرصا على استثماره والتلذذ بما فيه من خصائص .

وبعد أن يسرد لنا الكثير مما نعلمه بالمشاهدة ، أو لا نعلمه يقرر أن هذا كله من تمام تنظيم الله للكون ، وتوفيره للنعم ، ومآل هذا التنظيم منفعة الانسان فى دنياه ، وآخرته .

٤ — وقصارى الحديث فى هذا المجال الفسيح أن لله — تعالى — وشائج اتصال بخلقه فكما شرع الله لهم دينا ، عمر لهم دنيا ، وأبدع فى تشريعه الروحى وفى تنظيمه الدنيوى ، وكما خلقهم تكفل بهديهم وبأرزاقهم : فمن ناحية الحياة الروحية ، والحياة المادية أتاح لهم كل مايقوم بشأنهم .. وما عليهم بعد ذلك الا أن يستجيبوا ، وينهضوا الى العمل النافع فى شتى جوانب الحياة ، ليوثقوا من ناحيتهم صلتهم بالله ، وليأمنوا ضياع الفرصة عليهم هنا ، أو هناك ، وليكون اتجاههم الى العمل شهادة على تذكرهم دائما لله وأنهم الى ربهم منقلبون ، وأن كلا من الناس سيوفى جزاءه بالقسطاس المستقيم .

٥ — ومادام الدين والدنيا من عند الله ، فأجدر ماتتحلى به انسانية انسان أن يكون عارفا بالفضل لصاحبه ، وقائما على الوفاء بعهده لربه .

ومن لم يفطن الى هذا بمداركه ، ولم يتنبه الى اهابة القرآن به أن يتبصر ، فقد حكم على نفسه بالغباء ، وبالبقاء فى غيبوبة لم يشعر معها بشىء مما يحيط به .

وعندئذ يكون حيوانا فى صورة انسان ، ولعل الحيوان يفضله من جهة أنه على شعور فطرى بما يتصل به أكثر من هذا الانسان .

وفى ذلك قوله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها : أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

٦ — وفى هذه الآيات توجيه الى الوشيجة المادية ممثلة فيما ذكرنا ، ومالم نذكر من تلك الكائنات التى نعيش عليها ، ونستمرىء لذائذها ، والتى

سخرها الله لنا على اختلاف أنواعها فى السموات ، وفى الأرض ، وفيما بينهما ، تلك الكائنات هى الوشيجة المادية ننتفع بها ، ونهتدى الى خالقها .

٧ ــ وما على الانسان بعد ذلك الا أن يكون مــــدينا لله ، مؤمنا بسلطانه وألا يغرر بنفسه ، ويتمادى فى جحوده حتى يتجاوز حدود العقل ، أو يعطى نفسه أكثر من قيمتها ، فيخسر الانتفاع بمواهبه ، وبما أفاده الدين ويكون كالمقامر الذى أضاع مابيده ، ولم يدرك بعده شيئا .

٨ ــ وأنت ترى فى ضوء هذا عجبا من أناس وهنت مداركهم،فتراخوا فى الاستجابة ، وغشيتهم الضلالة فقعدوا عن المبادىء وهى حق عليهم،وعموا عن التفطن الذى هو طابع انسانيتهم ، فزعموا مع هذا التخلف أن لهم صلة مادية بالله غير ما ذكرنا فان الله ــ فى زعمهم ــ ولد لهم ولدا ، وبعثه فيهم نبيا وحيث كان ولد الله من بينهم فهم فىحكمهم : أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم المختارون عنده على سائر خلقه .

ألم يقل اليهود : « عزيز ابن الله » .

أو لم يقل النصارى : « المسيح ابن الله » .

أو لم يقولوا جميعا : « نحن أبناء الله وأحباؤه » لقد قالوا ذلك كله وسجله الله عليهم فى كتابه الحق .

« وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه » . يقولون ذلك فى غير تعقل ولو كان لله ولد ــ سبحانه ــ لكان الله انسانا فى منزلتهم وعلى شاكلتهم ، فكيف يكون هذا مستقيما فى عقول تحسب أنها واعية ؟ .

« ماكان لله أن يتخذ من ولد : سبحانه » « لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

٩ ــ أن الوشائج التى تصل الناس بربهم : كلها فضـــل من جانبه ، ويقابلها من جانبهم أن يقدروها قدرها ، كما نطقت بذلك الآيات وكماشهدت به مناظرها فيما انطبعت عليه فى عالم الدنيا .

فأما التطاول على الله بنسبة أنفسهم اليه كأبناء ، وأحباء ، أو بافتراء الولد له .. وزعمهم أن الولد بعث فى الناس ليفتديهم من الخطيئة ، ويبعدهم عن العذاب : فذلك انحدار فى التفكير ، وضلال عن الهدى ، وانطلاق فى متاهات الشياطين .

١٠ — العقول نعمة ، وشكر الله عليها أن يستفيد بها الانسان فى تفكيره المستقيم ، بعيدا عن العصبيات الطائشة ، وعن المؤثرات الماكرة ، وسيتضح الحق حتما فى لونه البهيج ، فان الحق لا يحجبه الا غشاوات التضليل وتفاهة العصبية .

ومن لم يحسن أن يستفيد بعقله فقد حمل نفسه وزر الاهمال فوق أوزار الأعمال ، ويكون فى ظلمات ، بعضها فوق بعض « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » .

حـ — « ورضيت لكم الاسلام دينا » .

١ — ثم نتحدث اليك عن الوشيجة الخلقية ، باعتبارها ظاهرة الاسلام .

ولئن كان الجانب الخلقى ناحية من الوشيجة الروحية ، فان لهذه الناحية شأنا خاصا فى قوام الحياة بوجه عام .

٢ — ومن آثار النبوة فى جانب الخلق قول النبى — صلى الله عليه وسلم — تخلقوا بأخلاق الرحمن ، وقوله كذلك « أقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا .. » « اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق فانه لا يهدى لأحسنها الا أنت » .

وهكذا مما يدور على لسان الرسول والأنبياء والرسل من قبله . وهو ما يتجاوب مع آيات القرآن .

والقصد من أخلاق الرحمن — فى حديث الرسول — عليه السلام — الأخلاق المقتبسة من صفات الله ، ويجمل بالناس أن يتقلدوها تجاوبا مع دعوة القرآن : كصفة العدل ، والرحمة ، والعفو ، والحلم ، والكرم الخ .

وليست الصفات الخاصة التى يستأثر الله بها لنفسه ، ولا يأذن لعباده أن ينازعوه فيها : كصفات الألوهية ، والكبرياء ، والامتنان بالنعمة ، ونحو هذا من مظاهر سلطانه سبحانه .

٣ — وليس غريبا أن تكون لله ولرسوله عناية خاصة بناحية الخلق مما اشتملت عليه توجيهات الدين .

فان محاسن الأخــلاق هى الغاية المنشــودة أكثر من ســواها بجانب العقيدة ، والعبادة .

فما كانت العقيدة — التوحيد — فى حقيقتها الا لونا صادقا من ألوان الاخلاص لله فى العبودية له ، وافراده بوصف الألوهية والربوبية . والوفاء له بحقوق النعمة .

وبهذا الاخلاص يتمثل العبد ربانيا ، موحدا ، يعيش فى كنف الله وحده، وعلى هديه ، وفى ظلال نعمته بعيدا عن الضلالات ، والأباطيل فى دينه ، وعن التخبط فى دنياه .

وما كانت العبادة : من صلاة وزكاة ، وصــوم ، وحج ، ونحوها من ضروب الطاعات الا اعرابا — كذلك — عن العقيدة الخالصــة المضمرة فى دخيلة النفس ، ووسيلة ظاهرة ، تتجلى بها علاقة الانسان بربه ، وتتهذب بها نفسيته ، وتكون رابطة له بالناس من طريق التجانس الروحى ، والالتفاف معهم حول راية التوحيد : فى تماثل منسجم ، ينتظمه منهج الدين فى الأقوال، والأعمال والمعاملات .

٤ — وحينما يدين الناس ، أو كثرة منهم بعقيدة التوحيد ، ويتأثرون بها فى الاتجاه الصحيح على منهج العبادة المرسومة ، والأخلاق المنشودة : ترى مسالك الناس فى الحياة غير متنافرة ، وترى أخلاقهم متلاقية فى اطارها الدينى ، ومتشابهة فى طابعها الاسلامى المعتدل .

وترى أهدافهم فى الدنيا بعيدة عن الأنانيــة والطغيان ، وروح الاخاء غالبا عليهم وباديا فيهم .

وفى هذا المحيط تكون وجهتهم الى الله ، والى الدنيا على سواء ، وعلى صراط مستقيم وهذه ثمرات التدين فى المظهر الخلقى الذى يهدف اليه الدين فيما وضع من تشريعات ونظم ، ليدين بها المسلمون حتى مع غير المسلمين .

فلا يكون مبالغة منا ازاء ذلك أن نعتبر الخلق وشيجة بذاتها بين الله وبين الناس جميعا .

٥ — ثم اذا حاولنا استيعاب الأخلاق التى تعتبر مدارج للكمال الانسانى فسيطول بنا الحديث على القارىء ، ونحن نرمى الى تقريب الهدف دون شطط .

فحسبنا أن ننظر فى اجمال الى ناحية القرآن ، وأن نلتفت الى شخصية الرسول ، وليس بعد ذلك منهل نطمع منه فى المزيد .

أما القرآن فقد عنى بتربية الفرد والجماعة على غرار كريم ، ولم يقف بنا عند جانب التعبد فى رسومه القولية ، والعملية .

بل هذب اللسان ، والجوارح والسريرة ، وصاغ للانسان قالبا مثاليا اذا شاء لنفسه الخير ، واختار لها الوضع الكريم .

هذب اللسان عن الخوض بتتبع العورات ، وعن التنابز والمعايرة بالألقاب والأسماء المثيرة لشىء من الخجل ، كما كان يفعل سفهاء قريش .

بل كف اللسان عن مجرد الكلام اللغو الذى لا يكون مجديا ، ولاضارا ومع ما فى القرآن من آيات تفصيلية تخص كل شأن من هذا كله . فقد جمع الله كل ذلك فى قوله — سبحانه — « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا — صدقا نافعا — يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم .. »

كما شنع على غير المسلمين بما تقولونه من اسفاف « وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا .. »

والنبى — صلى الله عليه وسلم — يجمع مثالب القول فى نهيه الرشيد فيقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا ، أو ليصمت — ليسكت »

وكذلك هذب القرآن بقية الجوارح ، فنهى عن النظرة الخائنة .. وهى النظرة الى ماحرم الله من الأجنبيات ، ونهى عن الغمز بالعين نحو الغير للغض من شأنه ، وعن اللمز بما يفيد السخرية ، ونهى عن قضاء شهوة البطن ، أو الفرج من غير حلال .. وهكذا .

وعنى القرآن بتربية الضمير ، وتنقية السرائر من الحقد ، والنفاق ، والمكر ، والخداع وسوء الظن بالناس دون سبب يقتضى هذا .

وكثيرا ما يتحدث القرآن عن مناقب الأخيـــار . وفضائل المتخلقين بالمكارم ، ويصفهم بأوصاف ميمونة .

فهم الكاظمين للغيظ ، وهم العافون عن الناس مع قدرتهم على الانتقام ، وهم الموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، وهم الصابرون فى البأساء والضراء .. وهكذا من مكارم لايجهل قيمتها أولوا الألباب .

٦ — وانه ليكفينا عن الاسهاب أن نرجع الى شخصية الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى أنه المثل التطبيقى لكل ما ذكر القرآن من مكارم .

وقد تفضل الله على محمد — عليه السلام — فأضفى عليه من الكمال مالم يكن لبشر قبله ، ولا مطمع فيه لأحد بعده ، حتى صار محمد — وحده — فى أعلى مشارف الانسانية ، وعلى درجة من السمو لا ترقى اليها نقيصة .

وأدرك هو من أمر نفســـه أن الله بوأه فى الخلق مقـــاما علويا ، فكان يتحدث بهذه النعمة ، ويقول « أدبنى ربى ، فأحسن تأديبى » .

ثم شهد الله له شهادة لم يظفر بها قبله انسان « وانك لعلى خلق عظيم »

وبهذه التزكية يكون محمد أسبق الناس فى الحظوة الكمالية من جانب الله ، ويكون القدوة لمن عداه من الناس ، والناس بحاجة فطرية الى القدوة التى تدنيهم من الخير ، وتجتذبهم اليه ؛ وتحببه الى نفوسهم ، فان للتقاليد أثرها الايجابى فى مسالك الانسان خيرا كان الأثر ، أو شرا .

وهذا ما رسمه الله لنا فى قوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » .

وفى قوله على لسان رسوله : « ان كنتم تحبون الله فاتبعونى ، يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » .

وما يعدل عن القـــدوة بمحمـــد فى خلقه ، وفى شمائله الا مرذول ، ناقص التفكير .

وكل انسان جانب محمدا ، ولم يفطن الى كماله ، أو زعمه مشـــوها بنقصية فهو الناقص — ولا شك — وهو البعيد عن هداية الله .

كما ابتعد عنها وشط فى ضلاله ابليس .

والله يسجل ذلك في قوله لمحمد « ان شانئك هو الأبتر » ، يعنى : أن من يبغضك ويجهل قدرك هو الناقص فى مداركه وفى حظه ، وفى كل مايرفع من شأنه .

٧ — هذه المامة موجزة ، ولكنها فضفاضة الجوانب ، وفيها من التزكية ما يتسع للاسهاب الصادق عن محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا اسهاب فى جانب انسان اصطفاه ربه خاتما لمن اختارهم لرسالته ، وخصه من بينهم فوق ما خصهم — بمحبة ، وتزكية ، وتكريم .

وحسبك أن الله يضفى عليه صلاته ، وتسليمه ، ومن صلاة الملائكة وتمنياتهم له ما لاينتهى فيضه من جانب الله .

وحسبك أن الله يضفى عليه من صلاته ، وتسليمه ، ومن صلاة الملائكة وتعلق به : مما يركز ايماننا به ، وبشريعته ، ويقربنا الى الله من طريق متابعته ومحبته .

« ان الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

وقد تنبه واحد من علماء اليهود يوما الى كمال النبى فى أخلاقه ، والى تقدير الصحابة له فقال للامام على — رضى الله عنه — « هل تستطيع أن تصف لى أخلاق محمد » .

فقال له على : وهل تستطيع أنت أن تصف لى متاع الدنيا ؟

فأجاب اليهودى أن وصفى للدنيا فى متاعها مستحيل .

فقال له على : ان وصف الدنيا فى اعتبارك مستحيل مع أن الله الذى خلقها يقول عنها : « قل متاع الدنيا قليل » .

فكيف تطلب منى أن أصف لك أخلاق محمد ، وقد قال الله عنه : « وانك لعلى خلق عظيم » ؟؟

فكان هذا جوابا كافيا فى اقناع اليهودى .

٨ ـ فرض الله على الناس أن يقتدوا بمحمد .. حتى منعهم أن يتقدموه فى الحديث حين كان حيا ، ومنعهم من أن يسبقوه الى عمل فى الدين لم يكن عمل به .

وفرض عليهم ، الا يرفعوا أصواتهم فوق صوته فى الحديث معه ، أو فى مجلسهم عنده .

بل منعهم من أن يجهروا له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض .. وحذرهم أن ينحرفوا عن ذلك ، لئلا يكون هذا الانحراف محبطا لأعمالهم الطيبة ، كما يحبط الكفر أعمال الكافرين :

« يأيها الذين آمنوا ، لاتقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله ، ان الله سميع عليم .. يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » .

هذا جانب من الاشادة بالرسول ، وفيه توجيه الى ناحية الأدب معه فى الحديث ، بحيث لا يكون رفعا لصوتهم فوق صوته ، ولا جهرا مثل جهر بعضهم لبعض ، ويكون المطلوب غضا من الصوت حتى يكون خافتا عنده .

وقد صار هذا الأدب شعارا اسلاميا بين الصحابة وامتدحهم القرآن به، « ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن اللهقلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم » يعنى : هؤلاء هم الذين محض الله قلوبهم من شوائب النفاق ، والنقص ، وجعلها مقرا للايمان الخالص ، وللتقوى ، وهؤلاء استحقوا بسبب تأدبهم مع الرسول مغفرة الله وأجره العظيم .

والقدوة بالنبى ، وبما كان من سلف الصحابة معه تقتضى أن نسير على هذه الجادة فيما تتخلق به حين زيارتنا لروضته ، وحين جلوسنا فى مجلس حديثه ، والاستماع الى سنته ، فان هذا هو الأدب نحوه حيا وميتا .

بل هذا شعارنا تتخلق به فى أوساطنا ، ومع أولى العلم ، وأصحاب المقام فينا ، ليكون ذلك النمط ظاهرة من ظواهر الأدب الاسلامى المطلوب ، وهو المقصود من حكاية القرآن لما يحكيه .

٩ — ومن هذا كله يتبين أن الخلق الكريم ركن أصيل فى كياننا الدينى وفى قوام الحياة الاجتماعية .

ولا يكفى لامرىء منا أن يتعبد وهو سىء الخلق ، ولا يسوغ أن يزعم المسلم لنفسه مكانة عند الله ما لم يكن متجملا بكرم الخلق كما كانت القدوة فى محمد — صلى الله عليه وسلم — .

وربما كان الخلق الطيب موروثا من أبوة ، أو أمومة ، أو كان مكسوبا من تربية ، أو من مخالطة فى البيئة ، فيكون خلقا محمودا فى ذاته ، ومقبولا فى المجتمع ، وتكون لصاحبه شخصيته الكريمة ويكون هذا الخلق نعمة على صاحبه .

ولكن الخلق لا يكون صحيحا دائما ، ولا قائما على أصول حقة الا اذا كان قبسا من الدين ، ومستمدا من جانب الله فيما شرع ، فان ذلك هوالتوجيه الرشيد المأمون . ويكون مسلك المرء تحت سيطرة الضمير الدينى .

وربما كانت للمرء عبادة كثيرة ، ويكون بها مغرورا فى نفسه ، ولكنه فى الخلق على غير ما يهدى اليه الدين . فيذهب هذا بذاك ، ويكون العمل باسم الدين هباء منثورا .

قال الصحابة يوما لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ان فلانة تعبد الله كثيرا لصلاحها ، وتقواها ، فحكم النبى بظاهر هذه الشهادة ، وقال : انها من أهل الجنة .

فقالوا له : ولكنها تؤذى جيرانها ، فألهمه الله الحكم الحق وقال : انها من أهل النار .

فانظر كيف ضاعت العبادة فى هوان ، بسبب سوء الخلق . ؟؟

فاللهم : اصلح شأننا ، وحسن أخلاقنا ، كما حسنت خلقتنا .

اقتبسنا من الآية وشائج ثلاثا ، وهذه وقفة تكميلية أمام كلمة ايمان واسلام ، واحسان .

١ — فهذه كلمات ثلاث ، منثورة فى غضون القرآن ، وبينها مغايرة فى اللفظ — لاشك — فهل بينها مغايرة فى المفهوم ؟

نرجع الى القرآن نفسه — والقرآن يفسر بعضه بعضا — فنجد لفظ « الايمان » عنوانا على العقيدة الصحيحة المكنونة فى قلب الانسان ، ومن شواهد ذلك قوله تعالى فى وصف المتقين « الذين يؤمنون بالغيب » «انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله »

وقد امتدح الله مؤمنا كان يضمر اعتقاده ولا يبديه خشية الجبابرة من آل فرعون « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه » .

وأشاد بذكر امرأة فرعون لصدق ايمانها القلبى « وضرب الله مثلا للذين آمنوا : امرأة فرعون ، اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين » .

وهكذا نجد الايمان وصفا لمن كان راسخ العقيدة فى جنب الله ، وما يتصل بالغيب ، مما عرف بالحواس أو من طريق العقل ، أو من طريق الرسل كالايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والايمان بالقدر خيره وشره « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » يعنى من يكفر بشيء من هذا ، فان الايمان لا يتجزأ

٢ — غير أن الايمان القلبى وحده لا يعتبر دينا كاملا بالنسبة لمن بلغته الرسالة من عند الله .

بل يقتضى ايمانه أن يستجيب للدعوة ، ويتقبل ما أتاه من تعاليم الرسول ، دون أن يجد فى صدره حرجا من تكاليف الله له بعبادة ، أو معاملة ، أو مسلك قيم ويكون عمله الظاهر مرآة لتلك العقيدة الصادقة الباطنة .

وهذا الشق العملى الذى يكشف عن عقيدة باطنة هو الاسلام المذكور الذى يتردد ذكره فى مقابلة الايمان .. فالايمان باطن ، والاسلام ظاهر ، اذ معناه الاستسلام والطاعة بالعمل .. وباجتماعهما يكون المرء على بينة من ربه وعلى دين قائم على أساس الحق .

٣ — أما بأحد الأمرين فلا يكون متدينا على الوجه المطلوب .. وكيف ذلك ؟

نعم !! تكون للانسان عقيدة باطنة ولكنه متخلف عما تقتضيه العقيدة فلا يستحق أن يسمى مسلما مع مجافاته لأركان الاسلام الخمسة وانحرافه عن المسلك الاسلامى الذى يميزه عن غير المسلم ظاهرا ، ولو أن هذا قائم فى بيئة غير مسلمة لكان فى مظهره معها .

أما عقيدته فهى خافية على الناس وأمره الى الله ، وهو الظالم لنفسه .

٤ — ويكون للانسان عمل اسلامى ظاهر ولكنه غير مرتبط بعقيدة صادقة فهو مسلم فى اعتبارنا ظاهرا ونعامله معاملة المسلم فى الظاهر كالقضاء والشهادة والتوريث وكل ما يعتبر شأنا اسلاميا ، ومن هذا يتبين أن فى الناس مؤمنا غير مسلم ، وايمانه وحده ينفع الى حد ما ، ولكنه لا يعفيه عند الله من تبعة التخلف عن مقتضيات الايمان وهى الأعمال الاسلامية .

ويتبين كذلك أن فى الناس مسلما غير مؤمن ، واسلامه وحده من غير عقيدة لا يدخله فى عدد المؤمنين .

وقد كان منافقو العرب يصطنعون الاسلام تكلفا ، ويدعون أنهم مؤمنون باطنا ولكن الله يكذبهم على لسان رسوله ويكشف تدليسهم «قالت الأعراب آمنا : قل ، لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا » ، « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » ويقول عنهم وعن الكافرين جميعا « أعمالهم كرماد ، اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لايقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين » ، فهذا هو وصف الأعمال دون عقيدة سليمة : لذلك كانت دعوة الله دائما الى العقيدة والعمل جميعا « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

« فأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى » « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون .. الخ » .

وهكذا تقـرأ عشرات من آيات الـكتاب فيها اقتران الايمان بالعمل الذى هو الاسلام ، ولا يغتفر التخلف عن العمل الا عند العجز عنه ، وبقدر الضرورة كالمرض والاكراه والنسيان ونحوها مما هو مبين فى كتب التشريع، وهذا من رحمة الله بعباده ، حيث لم يكلفهم عسرا .

٥ — واذا رأيت القرآن يذكر الايمان وحده كقوله « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله » .

أو رأيته يذكر الاسلام وحده كقوله « ان المسـلمين والمسلمات -- « وأمرت أن أكون من المسلمين » .

فليس القصد تفـريقا بينهما فى المراد ، أو كما نقـول فى الاصطلاح العلمى : ليس تفـريقا بينهما فى الماصـدق بل الايمان المطلوب والاسـلام المطلوب هما الدين الحق ومجموعهما هو كلمة الدين .

ولا يقال : فلان متدين اذا لم يكن آخذا بالجـانبين على وجه التمام واليقين .

ومراعاة لهذا الارتباط قرر العلماء الثقات من الأئمة أن الايمان ينقص بنقص العمل ، ويزيد بزيادته ، فلو كان مفردا عن العمل لما تأثر به نقصا ولا زيادة . « واذا تليت عليهم آياتنا زادتهم ايمانا » .

وقرروا أن العمل وحده لا عبرة به لأنه بناء على غير أساس .. وفى ذلك يقول تعالى « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

فليس الاسلام هنا مجرد العمل الشكلى ، ولا يصح أن يراد : لئلا يكون عمل المنافقين معتدا به ، وهو كما علمت .

وانظر فى شهادة الله « ان الدين عند الله الاسلام » يعنى أن الاسلام الحق هو الدين المعتد به ، ولا يكون الاسلام حقا الا على أساس العقيدة ، وهذا هو الدين والتدين فى جميع الشرائع السـماوية التى تعـددت بتعدد رسلها .

وقد قرر القرآن ذلك في قوله تعالى « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » فنفى الله عن ابراهيم اليهودية والنصرانية والشرك ، ومحضه للاسلام الذى هو دين الله ، وهو رسالة الأنبياء جميعا : رغم أن اليهود وسواهم ينتحلون ديانات غير ديانة ابراهيم فى الوقت الذى ينتسبون اليه فيه ، ويفخرون بأنهم ذريته ، ولكنهم تكاذبوا « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء » .

٦ — واذ انتهينا الى أن الدين ايمان واسلام فأين مرتبة الاحسان وقد رأينا القرآن ينادينا به كثيرا .

أليس يقول الله « ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن .. » ويقول « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» ويقول : « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم» « انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » « ان الله يحب المحسنين » .

الاحسان المنشود هو رتبة الكمال فى الدين .

وبيانه أن تكون للدين سيطرة على اتجاهات الانسان فى كل مايحيط به ، حتى تكون عقيدته غير واهنة ، ولا متأرجحة ، ويكون عمله غير مشوب برياء ، وتكون حياته كلها فى الدين والدنيا على أوضاع صحيحة ويكون تعلقه بالكمال ديدنا له ، وهدفا مقصودا فى عمله وذلك أشبه بمن يريد أن يقيم بناء شاهقا ، فهو بحاجة الى أساس، ثم الى تنسيق، ثم الى تجميل وعناية .

وتلك هى المثالية الانسانية التى يبتغيها الله لعباده ، والتى يسوقها الينا فى دعوته الدينية ، والتى يمتن علينا بها حقا فى قوله سبحانه « ورضيت لكم الاسلام دينا » أى عقيدة وعملا ، واتقانا .

ولقد كان الامام الغزالى صادق الحكم فى اعتباره أن الثلاثة شيء واحدا : هو الايمان حيث قال « الايمان قول باللسان ، وتصديق بالجنان ، وعمل بالأركان » وهذا كلام ظاهر يوافق كلام الجمهرة من أئمة الاسلام ، ويؤيد ما قرروه من أن العقيدة والعمل والقول على وجه الاحسان فيها جميعا هى الدين الخالص المطلوب .

العدل روح الحياة وقوام المجتمع

١ — « يأيها الذين آمنوا كونو قوامين لله شهداء بالقسط
٢ — « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ..
٣ — « اعدلوا هو اقرب للتقوى ، واتقـوا الله ، ان الله خبير بما تعملون » .

(المائدة ٨)

١ — من أبرز ما عنى به القرآن — كما عرضنا ذلك من قبل — ، توجيه المسلمين الى الأخذ بالعدل بين أفرادهم وبين جماعاتهم ، وفيما بينهم وبين سواهم من غير المسلمين .

وتوجيهات القرآن — فى كثرتها وفى قوتها — تدل على أهمية العدل فى قوام الحياة الخاصة والعامة ، وتدل على آكدية العدل فى دعم الـكيان القومى للشعوب ، وانتظام سياستها وسيادتها .. واذا حسب حاسب أن اتجاه القرآن الى ذلك مجرد دعوة أدبية ، أو هى محاولة نظرية الى اجتذاب الناس نحو خلق طيب ، فقد غفل عن الواقع ، وتغاضى عن التجارب والأحداث .. وانك ما تكاد تنظر فى أمة ولا فى شئون مجتمع الا وجدت العدل أقـوى أركانها اذا اشتد بناؤها وانعقد مجدها ، ووجدت الانحراف عن العدل معول هدمها ونذير انحلالها وطمس معالمها .

٢ — ولا تقل : ان أمما ظالمة عاشت وتعيش فى أبهة وصعود ، وسيادة وتضخم ، فان سنة الله فى ملكه منذ أبدع هذا الكون تأبى أن تكون للظلم دولة تدوم ، أو حياة تطول ، ومهما امتدت بها السنون فهى فى حياة الشعوب لحظات ، وسنة الله آتية لا ريب فيها بتقـويض معـاقل الظلم ، وان كانت صروحا شامخة ، أو جيوشا زاخرة .

« فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد » .

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد : ارم ، ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد » .

٣ — هذا : وللقرآن أسلوب عجب فى تربية المسلمين ، فأنت تراه يدعوهم الى توثيق صلتهم بالله ، وتذكيرهم بما له من سلطان على عباده ، وبما عنده من مثوبة وعقاب . وتراه فى السياق نفسه يعرج بهم على شئون الدنيا ، ويوجههم الى مسالكها المأمونة من العثار ، والى شرائعها الناجحة ، ويدفعهم دفعا قويا الى أن يكونوا للدين وللدنيا جميعا .

وهو بهذا التوجيه المزدوج يبعد بنا — أولا — عن المادية المحضة التى ارتطمت فيها أمم أخرى ، فذهبت شريعتها لشهواتها ، وكان تدينها زعما متلاشيا أمام جشعها .. وكان طابعها التكالب على المادة ولو بوسائل تعافها الانسانية النبيلة .

وبهذا التوجيه المزدوج يبعد بنا — ثانيا — عن رهبنة ابتدعها غيرنا فى دينهم قديما ، فكانت لزاما عليهم ، وقعدت — ظاهرا — بنفر من أتباعها عن التزود من دنياهم ، والأخذ بنصيبهم مما أباح الله فيها من طيبات .

فلم يرض الله للمسلمين أن يتلطخوا بالمادية التى نفث أهلها سمومها فى كل بيئة شملتهم وكل جو يعيشون فيه .. كما لم يرض لهم أن يتظاهروا برهبنة تكون عقالا يكفهم عن النشاط فى الحياة الدنيا : والدين هنا وهناك ستار مهتوك ، وزعم مصطنع .

٤ — وانظر فى موضوعنا تجد القرآن يخاطب المؤمنين فيقول « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط » . ومعنى ذلك : أن يلتزموا الوفاء بحقوق الله فى كل ما ناط بهم من عبادة وأدب ، وقصر النداء هنا على

المؤمنين أشبه بما فعل أول السورة حين دعاهم الى الوفاء بالعقود .. وذلك : لأن الايمان مظنة الاستجابة ، والمؤمن أولى من غيره بالتذكير والارشاد .. وفى اهمال غيره وخز ، وتنديد ، وحث على المسارعة الى الايمان اذا عقلوا ، وأرادوا لأنفسهم خيرا .

ومع مطالبة المؤمنين بأن يكونوا قوامين لله : طواعية لأمـره ، ووفاء بعهده ، فقد مزج القرآن بذلك شأنا من شئون دنياهم ، وهو الشهادةبالقسط يعنى بالعدل التام فيما يقع بينهم من شهادات وأقضية ، وما يجرى لديهم من خصومات فى الأموال والدماء ، وكل ما يثور بسببه تنازع وخلاف .

ويبادر القرآن الى تفهيم المؤمنين أن ذلك حق عليهم فى كل حالة ، ومع كل انسان ، ولو كانت هناك أسباب عدائية يخشى معها الانصراف عن التزام العدل ، فان العدالة تكليف منوط بذمة المؤمنين ، بل وغير المؤمنين وان لم يتجه اليهم الخطاب ، والعدالة هى النمط الذى جرت عليه سنة الله فى معاملة خلقه : ألا تراه يرزق الفجار كما يرزق الأبرار ، ويلطف بالعصاة كما يلطف بالصالحين ، ذلك : لأنه عدل رحيم .

فهو يعطى الناس من عدله ورحمته ما يليق به هو ، وان تجاوز ما يليق بهم ، والله يحب من عباده المؤمنين أن يكونوا على هذا النحو المجيد ، فلا يجعلوا العدالة مجاملة لصديق ، ولا الانحراف عنها وسيلة الى التشفى من عدو .

وما زالت العدالة ركنا فى بناء الأمة ، وشـعارا لنبلها ، ووسـيلة الى نجحها وسيادتها على غيرها كما كان قديما .

وبعد ذلك الأمر فى جانب العـدل يجىء نهى صريح عن تركه لسبب ما يكون بين الناس من خصـومات « ولا يجرمنـكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » . وهذا النهى يعتبر توكيدا للامر السابق .

فان من طبيعة النفوس أن تلتوى عمن يغاضبها وتقسو على من يخاشنها، فاذا كان هناك جفوة بين انسان وغيره ، أو بين قوم وقوم ، فربما استباح

أحد الجانبين الانحراف عن الجادة المنشودة ، فلا ينطق بالصدق فى شأن غيره ، أو لا يشهد بالحق ، أو لا يحكم بالعدل . وهنا يضطرب الميزان الذى يستقيم عليه أمر الناس ، وينهار النظام الجماعى الذى يعتبر العـدل أقوى أركانه ، اذ تفسد الذمم ، ويفشو سوء الظن ، وتتعطل المعاملات بين الناس عن التقدم .

ولذلك اعتبر القرآن عدم العدل خطيئة نكراء ، بل اعتبره اجراما . وقال فى شأنه « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » يعنى : لا يكن بغضكم لغيركم سبب اجرامكم بعدم العدل معهم .

ثم تعود الآية بعد النهى فتؤكد الأمر الأول مرة ثالثة بطلب العـدل « اعدلوا ، هو أقرب للتقـوى » تمسكوا بالعـدل فانه جـزء من التقوى الكاملة ، وهو أقرب الأجزاء الى كمالها « واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » وهذا تأكيـد رابع لما ورد الأمر به ، وفيه اشـعار صريح بأن الله خبير بكل ما نعمله ، فمحاولة الانحراف عن العدل ، وتبرير الانسان لما يبدر من مجافاته للعدالة ، غير خاف على الله .

وقد يقال : ان القرآن يطلب العدل على وجه الكمال ، ويؤكد الأمر به غير مرة ، ولكنه فى آية أخرى يصرح بأن العدل غير مستطاع للانسان فى قوله تعالى :

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » فكيف يكون العدل التام غير مستطاع ثم يطلبه فى صيغ مؤكدة ؟ .

وجوابنا عن ذلك أن علاقة الزوج بزوجته علاقة معاملة وعلاقة محبة قلبية ، فاذا كان الرجل بين زوجتين فقد لزمه أن يعدل بينهما تماما فى حسن المعاملة ، وهذا أمر مقدور له .

أما المساواة بينهما فى المحبة فليست من عمله ولا مما يملك التصرف فيه ، وهو غير مؤاخذ على محبته لاحدى الزوجتين أكثر من الأخرى ، ولكنه مؤاخذ على عدم احسانه فى معاملة احداهما كما يحسن مع الأخرى ، وهو حينئذ يكون مال عنها كل الميل : مال فى حبه وقد عفى عنه ، ومال فى معاملته

لها بالعدل وهو جريمته ، وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — يقول فى ذلك : اللهم هذا قسمى فيما أملك ، يعنى فى المعاملة ، فلا تؤاخذنى فيما لا أملك : يعنى فى تفاوت المحبة بين الزوجات .

وبعد : فهذا مقام أمر الله فيه بالتقوى وبالعدل ، وذكر العدل بجانب التقوى يشهد بأن رعاية القرآن للجانب الروحى مقرونة برعايته للجانب الدنيوى ، ويشهد بأنه لا غنى للمرء عن الأخذ بنصيبه من التقوى اذا استجاب ، ولا غنى للدنيا عن العدالة بين الناس ، اذا أرادوها دنيا طيبة مصونة من الشوائب ، مكفولة البقاء فى أمن وسلام الى ما شاء الله .

هذا وقد شهد التاريخ بأن المسلمين كانت لهم سيادة على بقاع فسيحة فى جنبات الدنيا ، يوم كانت لهم عدالة مستمدة من كتابهم وهداية من جانب شريعتهم .

فلما أحاطت بهم الفتن ، وفترت فيهم الهمم ، تبدل الوضع ، ووقف بنا المسير ، ولكن لله غيرة على دينه ، ورحمة بأهله ، فهو اذ يختبرنا ببعض بلائه يلطف بنا فى قضائه .

واذا كانت مصر وهى وطن للاسلام . ومعقل ضخم من معاقله ،يساورها فى هذا الوقت شيء مما أراد الله أن يبلوها به ، فان الله سيكشف غمتها ، ويشد أزرها ، ويحفظها بعونه من مكر خصومها .

فان مصر ما ظلمت سواها ، ولا تحرشت بغيرها ، ولا بيتت كيدا لمن عداها ، ولكنها فى ظل السياسات الاستعمارية رضيت بعادات لا يرتضيها دينها ، وركنت الى تقاليد ليست مما يلائمها .

وقد قيض الله لها أبطالا من أبنائها يحاولون تصحيح أوضاعها ، وتطهير بيئتها ، وهم جادون فى ذلك ما استطاعوا .

ونحن نضرع الى الله أن يكون معهم ، وأن يجنبهم كل مكروه ، ويعقد النصر بأيديهم ، وهو سبحانه يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء عن عباده . انه سميع مجيب الدعوات .

جلاء المحنة نعمة تقتضى شكر الله

١ ـ « يايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم ..
٢ ـ « واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

(المائدة ١١)

١ — فى الأحداث الكريهة تعريف للانسان بمواطن الضعف من نفسه وتجديد لعزيمته ، وتوثيق لصلته بربه .

وفى ذكريات الأحداث بعد مضيها تنشيط الحاضرين الى القدوة بالطيبين من السلف ، ونهوض بالقيم الخلقية أمام الخلف .

وبهذا كله تظل المثالية الكريمة تراثا يساير الزمن ، ويستقبل الأجيال.. وتظل الانسانية فى كمال متجدد ، وسير متصل .

وذلك هو النمط الذى يعرضه القرآن على مسامع الناس فيما يحكيه من قصص الأولين ، وهو المنهج الذى يربى عليه المسلمين : لو أصاخوا اليه، وأكبوا عليه وآثروا به أنفسهم ، واستغنوا عن تقاليد رخيصة تهبط بهم عن مستواهم المنشود ، وتزجهم فى تيار ليس للانسانية منه نصيب ، ولا هو من مجد الحياة فى شىء .

٢ — ولدينا آية تذكر المؤمنين بحادث جلل كان وشيك الوقوع بهم فى شخص النبى محمد — صلى الله عليه وسلم — ، وتذكر بأن الله وقاهم ذلك الحادث ، وهذه نعمة جديرة أن يقدرها المؤمنون قدرها ، ويعطوها من الشكر حقها .

اذ هم قوم أن يبسطوا أيديهم بالسوء الى محمد — صلوات الله عليه — فكف الله أيدى السوء عن محمد ، ونجى الاسلام والمسلمين فى شخصه الكريم .

وهذا نبأ يتمثل فى محاولة رجل أن يقتل محمدا بالسيف على انفراد ، وحينما قام شاهرا سيفه قال : من يمنعك منى الآن يامحمد؟ فأجابه النبى: الله !! فسقط السيف من يد الطاغية ، فتناوله النبى — صلى الله عليه وسلم — وقال له : ومن يمنعك منى الآن ؟؟ فقال الرجل : كن خير آخذ ، فعفا عنه النبى ، وتعهد الرجل ألا يتعرض للنبى بعد ذلك ، ثم عاد الى قومه وقال لهم: جئتكم من عند خير الناس .

وكذلك حدث مرة ثانية أن ذهب الرسول فى نفر من صحبه الى بنى النضير فى حاجة ليقضيها منهم ، وكانت بينهم وبينه معاهدة على الأمان ، ولكنهم تحينوا فرصة وجوده عندهم ، وهموا أن يلقوا عليه صخرة تقتله ، فأعلمه الله بذلك ، وأحبط مكيدتهم .

وبعد زمن هذين الحادثين نزلت الآية فى الامتنان على المؤمنين بنجاة محمدنبيهم ، وفى تذكيرهم بأن نجاته نعمة تشملهم جميعا ، لأن كارثة تنال النبى فى شخصه انما تصيب الاسلام وأهله فى كيانهم ، وتعصف بجماعتهم ، وتشمت الأعداء فيهم ، بعد أن نهضت الدعوة ، وبدأت طلائع الاسلام تجتاح الكفر والكافرين .

فنجاة محمد — صلى الله عليه وسلم — نعمة يدركها العارفون لقيمة النصر على العدو والافلات من كيده ، فما بالك بمحمد وصحبه وهم جنود الله يقاومون أعداءه ، ويتحدونهم بالدعوة الجديدة ، ثم هم عرب يأبون شماتة العدو ، ويبذلون الأرواح فى الذود عن رسالتهم ، ويعتزون بأن الله حاميهم وناصرهم على من يناوئهم ، أو يصدهم عن مواصلة جهادهم فى الله تعالى .

٣ — ثم تعود الآية بعد تذكير المؤمنين بكف أيدى الطغاة عن محمد ، وبكف بأس الكفار عن جماعة المسلمين فى مواقف تشبه ما تقدم ، فتأمر

بالتقوى ، وتنشد فى المسلمين حسن التوكل على الله — واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون — .

ومعلوم أن التقوى هى السبب الذى يصل الناس بربهم ، وهى خير وشيجة يرتبط بها عباده فيما بينهم : اذ هى طهارة القلب من شوائب الضلال، وسمو النفس عن الشرور ، والقيام بحقوق الله وعبـاده .. فاذا كانوا على تقوى تعمر قلوبهم ، وتجمع شملهم ، عرفوا أن يحتموا بالله ، وأن ينهضوا الى دعوة الله ، وأن يحسنوا توكلهم على الله .

وفى حضهم على التقوى وحسن التوكل تطمين لهم ، ووعـد صادق بنصرتهم على عدوهم ، وفى هذا التذكير بكف الأيدى المبسـوطة بالأذى ، مع الحض على التقوى وحسن التوكل ، توجيه لنا فى حاضرنا ولمن بعدنا من الأجيال الى التكاتف واعتبار المسلمين وحدة يصيب مجموعها ما يصيب بعضهم ، وخاصة اذا كانت الاساءة موجهة الى أصحاب الشخصية فى الأمة أو الى القائمين بالأمر فيها : ففى سلامة هؤلاء سلامة المجموع ، وسـلامة الوطن من العادين على أرضه ، أو على حقوقه وسيادته .

٤ — وهذه الآية ونحوها من الآيات التى تبصرنا بما ينبغى الأخذ به ، وبما ينبغى الانصراف عنه ، تعتبر موثقا وعهدا من الله ، ومن الحق فى ذمة المسلم أن يفى بالعهد على أتم وجوهه ، كما أسلفنا ، وألا يكون كبنى اسرائيل : نقضوا عهود الله ، وما أكثر ما نقضوا ، فحقت عليهم لعنة الله ، وتركزت فيهم الشرور ، ووصفهم الله بكل نقيصة مرذولة ، ورماهم بالخيانة أبدا ، فقال بعد كثير من الطعن عليهم : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم » ، والأمثال حاضرة فى مسالكهم وفى مخازيهم وسفاسفهم ، ومهما اعتزوا بمن يشايعهم فسيحيق المكر السىء بأهله كما أوعد الله فى كتابه ، وسيعيشون بين المخاوف والقلق وان زعموا غير ذلك .

٥ — هذا وقد نزلت بمصر محنة بغيضة فى العدوان الثلاثى ، ففزعت الأنفس الى ربها بالضراعة : أن يلطف بنا فى قضائه ، وقد تلطف سبحانه ، فكان نصره لمصر فوق مارجونا ، وخرجت من المحنة عالية الرأس ، وضاءة الجبين .

فهل لنا أن نذكر نعمة لله علينا ، اذ هم أقوام أن يبسطوا — بل بسطوا بالفعل — أيديهم بالأذى الينا ، فكف الله أيديهم عنا ، ودحرهم بالخزى والمهانة ، وردهم على أعقابهم خاسرين ؟

هل لشعبنا وقادتنا أن نتعاقد على الوفاء لله ، ونرجع الى دينه ، وننبذ تقاليد رمتنا بها المدنية الداعرة ؟؟ وهل لتلك الأقلام الجامحة فى التشكيك وانكار الألوهية أن ترتد الى الصواب ، وتقلع عن اسفافها فى المجون لتسلم الأمة من غوائل الالحاد ؟؟

ومن لى بتبليغ شكوانا من هذه الشرذمة الى من يملكون الضرب على أيديهم ؟؟

ان مصر وطن اسلامى عريق ، وهى مهد الثقافات الاسلامية ، وهى البلد الأوحد فى الحفاظ على القرآن الكريم ، ثم هى البلد الذى يتمثل فيه الطابع العربى المصقول فى لغته وفى تقاليده الأصيلة ، وفى وفائه ونجدته ، وفى كل ما يتصل بالعروبة الخالصة من شوائب الدخل .

فاذا كان الاستعمار قد لوث تلك الخصائص بزيفه ، وانتقص منها بأباطيله ، واجتذب نفرا منا الى ناحيته والى اباحيته : فقد آن لمصر أن تنبذ آثار الاستعمار كما نبذت سياسته ، وأن تتبدى من جديد للعالم فى روائها العربى الاسلامى ، وأن تبهر العالم كله بانسلاخها من تلك المهازل التى لا تلائم بيئتها ، ولا تتصل بمقوماتها ، ولا تتمشى مع وجهتها فيما هى بسبيله من استئناف حياتها الماجدة .

على رأس مصر اليوم رجل صحيح التفكير ، صادق الأحدوثة ، عظيم الطموح بشعبه ولشعبه ، رجل ادخرته الأقدار ليعود بمصر الى مكانتها من المجد والسيادة .

ومع هذا الزعيم أمة كريمة ، تجاريه فى شوطه ، وتؤازره فى جهوده ، فخليق بالمجاهدين الأبطال — وقد آمن بهم الشعب ايمانا حقا ، وآمنت الدنيا بأن مصر على حق فى ايمانها بزعمائها — أن يستخلصوا وطنهم وشعبهم من سطوة الالحاد ، وألاعيب الزنادقة ، وأن يحطموا دعاة الميوعة ، وأعوان الفساد ، لتكون مصر كما يليق بها .

أول عبرة فى الأرض

أ) ((واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ، اذ قربا قربانا ..
ب) ((فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال : لأقتلنك ..
ج) ((قال : انما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما انا بباسط يدى اليك لأقتلك ، انى اخاف الله رب العالمين . انى أريد أن تبوء باثمى واثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين)) .

(المائدة ٢٧ ــ ٣٢)

١ ــ من بوادر الحكمة فى شؤون الناس أن تقع منهم أحداث لا يفطنون الى عواقبها ، ولا يحيطون بجوانبها ، فاذا ما صارت أمورا واقعة كشف الله لعباده عما وراءها من أقدار ، وما كان فى طياتها من أسرار وتصبح عبرا شاخصة لنا يتوارثها الخلف عن السلف . غير أن تلك الأمور التى يأتيها الناس، ويأبه لها الدين لاتكون على غرة منهم . بل هى مسبوقة بتوجيهات علوية .. يدركون منها أنها تصرفات مرغوبة منهم . أو محظورة عليهم . فيكون تعرضهم لها طاعة مأجورة .. أو معصية مأزورة .

ويكون الحديث عنها بعد : قصصا يراد منه أن يكون فينا نماذج تربوية ، وأن نلتزمها على ما شرع الله من الأخذ بها ، أو الانتهاء عنها « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » .

٢ ــ فمن تلك الأمور ــ على سبيل المثال ــ قصة آدم ، وحواء . فقد أكلا من الشجرة ، وكان هذا الأكل مسبوقا بنهيهما عن قربانها ، فان أكلا كانا من الظالمين لأنفسهما بالمخالفة .

ثم نسى آدم ، وغفل هو وزوجتـه عن نهى الله .. وخـدعهما ابليس باغرائه ، وآكلا من الشجرة ، وكان عصيانهما سببا فى الهبوط من الجنة الى الأرض ، ليستقرا فيها ، الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. وقـد بسطنا كلاما فى هذا الصدد ، بالجزء الأول من نفحات القرآن .

٣ — ومن تلك الأمور التى تعرض لها الآية : مشكلة ابنى آدم قابيل وهابيل .

اذ كانت سنة الله فى حواء أن تحمل فى البطن الواحد بتوأمين — فتلد ذكرا ، وأنثى .

وكان ابنه الأول -- قابيل .. وله توأمة جميلة تدعى اقليمياء .

وكان لابنه الثانى — هابيل .. توأمة دون الأولى جمالا : تسمى ليوذا. كما يذكر السلف من العلماء .

٤ — وحينما أراد آدم أن يزوج قابيل بتوأمة هابيل — وكان تشريع الله لآدم أن يزوج كل ولد بتوأمة الآخر — تطلـع قابيل الى توأمته هو : مخالفا سنة الله ، وتوجيه أبيه .

زجره أبوه ، فلم يزدجر ، وكان ذلك العناد أول مثار للشر بين الناس : فضلا عن كونه من أخ لأخيه وهو أول قفزة قفزها ابليس فى شؤمه ، وفى فتنته لبنى آدم ، كما توعدهم بذلك فى تبجحه أمام الله بقـوله : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » .

وظل ابليس يكشف عن نواجذ الشر فى وجه قابيل ، واسـتمر قابيل يزداد حنقا على أخيه لأنه سيتزوج الحسنى من البنتين .

٥ — وهنا نستطرد ، ونقول : من أين تعلم قابيل هذه الجفوة ، وهو لم يخالط آخرين فى دنياه الخالية ؟

ومن أين تعلم الأنانية وهو لم يعش فى بيئة تضـطرب فيها النزعات ، والأخلاق ؟؟

وهل هى وساوس الشيطان وحدها جعلت من قابيل ولدا عصيا ؟؟

نعم !! هى وساوس الشيطان .. ولكنها لا تفرخ الا فى نفس مستعدة بفطرتها للتجاوب معه .

٦ — ففى كل امرىء ارادة ، وميول : تمتزج بطبيعته منذ خلق .. وهى من خصائص الانسان دون غيره من الخلق ، لتكون مدار اختياره لما يختار ، ومناط حسابه على مايريد ويعمل من شؤونه الاختيارية « كل امرىء بما كسب رهين » .

تكون هذه الارادة الاختيارية عالقة بما يستطيعه المرء ، ويجنح اليه : كأكل ما يحبه من الأنواع ، ولبس ما يلبسه ، وكيف يجلس ؟ أو يضطجع ؟ وهكذا مما يريد ، أو لا يريد .. دون ما لا يستطيعه ولا اختيار له فيه : كصحته ، أو مرضه .. وسعادته فى الحياة أو شقائه ، وانجابه للأولاد ، وعدم انجابه .

فبقدر ما للمرء من حرية الاختيار فى تصرفه يكون مسؤولا عن عمله

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

ونعود عن هذا الاستطراد فنقول : اذا كان المرء فى اختياره متعقلا ، جانحا الى الخير ، فهو على نور من ربه ، ولا يغلبه شيطانه . لأن ابليس يئس من المهتدين ، واستثناهم من تهديده : حينما قال : « لأغوينهم أجمعين » اذ قرر عجزه عن فتنة الأخيار من عباد الله فقال « الا عبادك منهم المخلصين » بفتح اللام فى المخلصين .

وقد تكفل الله بهؤلاء المطيعين ، فرد على ابليس بقوله « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان .. الا من اتبعك من الغاوين » . « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا » .

٨ — أما اذا كان المرء فى اختياره جانحا الى هواه ، مسيئا فى توجيه ارادته وميوله فهو ظالم لنفسه . ومستجيب لشيطانه ، وسادر فى غروره « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » .

٩ — وهكذا كان قابيل فى عصيانه لأبيه .. حتى اهتدى آدم بتوجيه الله الى فكرة يحسم بها تمرد قابيل ، وهى أن يتقدم كل واحد من ولديه بقربة من ماله فمن تقبل الله قربانه فهو الأحق بأقليمياء زوجا له .

وعندئذ .. تقدم قابيل بحزمة من سنابل زرعه ، وتقدم هابيل من أجود غنمه ، وكان صاحب غنم .

١٠ — وهنا جرت سنة الله فى قبول الصدقات على ماكان معهودا لهم يومذاك ، اذ نزلت نار من السماء ، وارتفعت بالكبش الى حيث شاء الله فى الجنة على مايثبته العلماء .. وهذه أمارة القبول .. وظلت سنابل قابيل غير مقبولة .. فثارت فى نفسه موجة الحقد أكثر مما كان وتأجج الحسد فى صدره ، ونفث بالوعيد لأخيه قائلا : « لأقتلنك » .

فماذا كان من هابيل ازاء عنف أخيه الأكبر ؟؟

كان هابيل سمحا تقيا ، طيب النزعات ، فرد على قابيل فى حنان الآخاء ووداعة الأتقياء الرحماء ، قائلا له فى أسلوب التوجيه الحسن .

— حـ —

١١ — « انما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت الى يدك لتقتلنى .. ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك » يريد هابيل : انما رد الله صدقتك ياقابيل: لأنك غير تقى فى عملك .. ولئن تماديت فى عنفك ، وهممت بقتلى فما أنابفاعل مثل فعلك : لا ضعفا عنك ، وكان هابيل أقوى من أخيه .. ولكن ترفعا عن الجريمة ، ورهبة لله ، « انى أخاف الله رب العالمين » .

١٢ — ثم أخذ هابيل يثير الخشية عند أخيه ويذكره بعذاب الله . ويقول له : انى أريد ألا أكون آثما معك فتبوء باثم قتلى ، وباثم عصيانك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين لأنفسهم ، ولغيرهم ولم يكن هذا الزجر مجديا فى تلك النفس العصية ، بل استهان قابيل بجرمه ، وسارع فشدخ رأس هابيل بحجر ، وقضى عليه لساعته ، وتلبس بالجريمة الأولى فى الأرض .. وحقت عليه غضبة الله وغضبة أبويه ، وأصبح بعد أن طوعت له نفسه قتل أخيه من الخاسرين لفرص كثيرة فوتها على نفسه .

خسر أخاه ، وكان الخير له أن يستبقيه فى الحياة ليشد أزره ، ويسد معه فراغا شاغرا بعده ، وخسر محبة والديه ، وشعر منهما بأسف على أخيه لا يطمع فى تذليله ، ولا يتعلق بقليل من عفوهما عن جرمه ، ولا يطمئن الى النجاة من عقباه ، فانه قد فعله مستحلا له بعد أن ذكره أخوه بغضب الله ، وعذاب النار . وأصبح — فوق هـذا كله — مرتبـكا فى شأن الجثة وما يصنع بها ؟؟

١٣ — وقد عميت بصيرته عن التصرف فيها ، فظل يحملها على عاتقه زمنا طويلا ، حتى اشتدت عفونتها وخبثت رائحتها ، وهو ضائق بهـا فى ذهابه ، وايابه ، وفى ليله ونهاره حتى ذاق وبال أمره ، ومرارة جرمه . ثم أذن الله بتكريم هابيل ، وصـيانة جثمانه عن هـذا الابتذال ، وعن طـرحه للوحش أو الطير .

فبعث الله غرابا يحمل جيفة غراب آخر ، وأخذ يحفر الأرض بمنقاره ، أو مخالبه ، ثم وارى جيفة الغراب فى الحفرة ، وأهال التراب عليه ، وكان قابيل على مشهد من الغراب فى صنيعه فتأسى بعمله ، ودفن أخاه ، ثم أخذ يعنف نفسه على سوء ما فعل .. لا توبة الى ربه .

ولكن : لادراكه أن حيرته كانت غباء . وأن حمله للجثة كان بلاء ، وأن شعوره بالندم يساوره ، وهو لايبصر أمام تفسه تسرية لهمه ، ولا تخفيفا لبؤسه .. فضلا عن كونه لم يتزوج بأقليمياء ، ولا تهيأت حياته بعد فعلته لمسرة كان يحرص عليها ، وكان تأسيفه لنفسه على مالقى من الهوان بجثة أخيه أن يقول : « ياويلتا .. أعجزت أن أكون مثل هذا الغـراب ، فأوارى سوأة أخى » وعاش ماعاش بعد هذا ، وهو من النادمين ، حتى ختمت حياته ختام سوء

١٤ — فان يكن ابليس أول مخلوق عصى الله فى الجنـة — بعدم سجوده لآدم وعدم اعترافه بتـكريم الله لآدم بالعـلم ، ثم عصى الله ثانيا ، باغوائه لآدم ، وحواء ، حتى أكلا من الشجرة المحظورة عليهما ، فان قابيل أول انسان عصى أبويه ، ثم عصى ربه فى الأرض بابتـداع جـريمة القتل للانسان .

ومن السابق فى تقدير الله ، وعدالته أن يأخذ الله ابليس بجـريمة كل انسان يتابعه فى ضلاله ، ونزغاته ، ليكون الشيطان وجنوده من الناس سواء فى العذاب ، كما كانا سواء فى العصيان « ان الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدوا ، انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » « لأملأن جهنم منك، وممن تبعك منهم أجمعين » .

١٥ — وكذلك كان من السابق فى تقدير الله ، وعدالته أن من ابتدع من الناس جريمة ، أو نقيصة ، أو حرض غيره على عمل سوء : يكون مأخوذا بذنب نفسه ، وبذنب من يتابعه فى مأثمه ، لأن ابتداع الشر ، أو التحريض عليه يعتبر مشاركة فى ترويج المنكر ، وتعاونا على الاثم والعدوان ، فى أى شكل من أشكال المشاركة .

والمفروض أن الله دعانا الى التعاون على البر والتقوى ، وأن نتناهى عن المنكر ، ولا نتعاون فيه .

وعلى هذا الأصل المقدور فى تشريع الله قديما : كان قابيل حاملا وزره ، ووزر من يحاكيه فى قتل نفس بريئة ، ولعل حكمة ذلك أن يحذر الناس من تماديهم فى المأثم والفجور ، فيتحاشى البادىء ، والمقلد سوء العمل ، وسوء القول .

وقد امتد هذا التشريع حتى كان أصلا فى شريعة محمد — صلى الله عليه وسلم — وفى ذلك يقول النبى — صلى الله عليه وسلم — « لاتقتل نفس ظلما : الا كان على ابن آدم الأول — قابيل — كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » ، وكذلك قوله «من سن فى الاسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة .. ومن سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » وهذا من توجيهات الله الى صراطه المستقيم .

***

١٦ — ورب سائل عن هذا الحديث وما يفيده : كيف يكسب الانسان ثوابا عن عمل غيره فى الحسنات مع أن القرآن يقول : « وأن ليس للانسان الا ما سعى » يعنى : أن ثواب المرء بعمله هو ، لا بعمل غيره .

والجواب المأثور عن أئمة العلم : وهو المعقول : أن للمرء بجانب عمله الحسن ثوابا اضافيا بما تسبب فيــه من أعمال الغــير الذين تابعوه فى عمل الحسنات التى سنها لهم ، أو دعاهم اليها : ففى التحقيق أن هذا الثواب ثمرة اضافية ، بجانب الثمرة الاصيلة المباشرة لتصرفاته الشخصية : دون أن ينقص هذا من ثواب غيره شيئا ، وهذا فضل من الله ، والله ذو فضل عظيم .

١٧ — ورب سائل كذلك عن هذا الحديث : كيف يتحمل المرء وزرا عن عمل غيره : مع أن الله يقول : « ولا تزر وازرة وزر أخــرى » ؟؟ يعنى لا تتحمل نفس كاسبة للوزر : وزر نفس أخرى .

والجواب المأثور كذلك : ان لمبتدع السوء ، أو المحرض عليه بجانب عمله الشخصى للاثم ذنبا اضافيا بما تسبب فيه من أعمال الغير الذين تابعوه فى عمل السيئات التى سنها ، أو حرض عليها ، وفى التحقيق كذلك أن جزاءه الاضافى بجانب ذنبه الأصيل : دون أن يخفف عن غيره عذابه ، وذلك معنى قوله تعالى « و لاتزر وازرة وزر أخرى » .. يعنى لايحمل انسان عن غيره حتى بصير الغير وهو الآثم المقلد معفوا عنه .. «كل نفس بما كسبت رهينة» لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم ، له عذاب عظيم » . وكل ذلك ما لم تكن توبة مبكرة مقبولة ، والله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

هذا وتنبثق من قصــة ابنى آدم معلومات جــديرة بالعلم : ويذكرها العلماء .

١ — منها أن الكبش الذى قدمه هابيل ، ورفع الى السماء ، هو نفسه الكبش الذى أنزله الله فداء لاسماعيل ، حينما هم والده ابراهيم — عليهما السلام — بتنفيذ ما أوحى اليه فى منامه أن يتقرب بذبح ولده اسماعيل : جريا على ماكان معهودا حينذاك .. وهى الطاعة التى كان العرب يتقلدونها أحيانا فيما بعد ، حتى وصلت الى عهد عبد المطلب ، وكاد ينفذها فى ولده عبد الله : لولا أن افتداه بمائة من الابل .

أما اسماعيل فقد استجاب لأبيه ووعده بالصبر على تنفيذ القضاء .. ولكن الله جلت قدرته ، وتعالت حكمته أفاض على ابراهيم واسـماعيل من رحمته ماشـاء كرمه ، فافتـدى اسماعيل بالكبش ، وسجل لابراهيم وولده ثناءه العطر فى كتابه الكريم وجعله ذكرا خالدا فى الآخرين .

« •• وناديناه : أن ياابراهيم •• قد صدقت الرؤيا •• انا كذلك نجزى المحسنين ، ان هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم » . « وتركنا عليه فى الآخرين : سلام على ابراهيم ، كذلك نجزى المحسنين » .

٢ — ومنها أن الله عوض آدم عن هابيل بولده شيث .. ومعناه : هبة الله ، وكان على ما يروى العلماء بغير توأمة له ، ليسد فراغ هابيل فى زوجية العدد . من أولاد آدم .

وكان شيث أول من استخلفه الله فى الأرض بعد آدم .. وأول من اختير بعده للنبوة .

٣ — ومنها أن استسلام هابيل للقتل دون مقاومة ، مع قدرته على المقاومة كان أمرا مسموحا به فى شريعتهم .. بخلاف ما عرفنا فى الاسلام .. فان دفاع المعتدى حق مشروع ، وقد يكون فرضا ، اذا كان العدوان غير محتمل ولا يسير « فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» فاذا كان العدوان غير مقصـود .. أو كان هينا محتمـلا ، وليس افسادا فى الأرض فلا بأس أن يصفح المعتدى عليه .. ابقاء على الأخاء فى الانسانية وفى الدين « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

٤ — ومنها أن مواراة الميت فى التراب هى سنة الله فى عباده من أول أمرهم فى الحياة الدنيا ، وهى نعمة من نعم الله التى كرم بها بنى آدم ، وامتن بها فى عموم قوله — سبحانه — « ولقد كرمنا بنى آدم » .. وامتن بهاخاصة فى قوله — تعالى — عن الانسان « ثم أماته فأقبره » أى كرمه بالدفن فى مقبرته بالأرض .. وليس هذا لحيوان آخر .

ومواراة الميت فى مقبرته مسبوقة بتكريمات مفروضــة فى الاسلام .. وهى : تطهيره بالغسل — الا شهيد المعركة — ثم الصلاة عليه ، ثم حمله ، والسير فى موكبه ، ثم وضــعه فى مقبرة على صفة خاصــة الى جهة القبلة الاسلامية .

بخلاف ما هو متبع عند غير المسلمين ، فلهم تقاليد لا تشعر الأحياء بماللميت من موعظة لدينا ، ولا بحقه علينا : الا ما يكون من بعض المظاهر التقليدية ، وليست مستمدة من الدين الحق كالموسيقى ، ونحوها . وخاصة ، ماهنالك من أباطيل موروثة بين أهلها .. كمن يوقدون النار على الجثة ويحرقونها ، ثم يذرونها فى الهــواء .. أو كمن يبالغــون فى تقــديس الجثة فيحنطونها ويشيدون لها المقابر الشاهقة ، فتكون أشبه بالأصنام .. الخ .

ومن هذا التشريع الاسلامى ندرك فى غير تكلف أن الله — سبحانه — يريد للانسان أن يعيش كريما على نفسه ، وعلى غيره ، فلا يستباح دمه لغير سبب مشروع دينا ، أو سياسة .. كالقصاص ، والجهاد فى سبيل الله ، وقمع المفسدين من قطاع الطريق ونحوهم .

وتحقيقا لكرامة الانسان : اعتبر الله جريمة القتل لانسانواحد تساوى فى بشاعتها ، وعقوبتها جريمة العدوان على الناس جميعا :

فان المستهتر بالنفس الواحــدة ، أو المستبيح لقتلها يــكون مستهترا بهيبة الجماعة الانسانية ، ومعتديا على المجموع، فى شخصية واحد منهم .. وقد يستشرى فى جبروته فلا يتعفف عن قتل آخرين كثيرين ، وجعل الله عقوبته بقتله ، كما لو قتل كثيرين .. وهذا غاية الممكن فى عقوبته .

وقد شرع الله ذلك قديما ، ثم أنزله فى التوراة مكتــوبا ، لأنها أول كتاب سماوى نزل ببيان الأحكام « من أجل ذلك — لصيانة الأرواح من العدوان — كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس ، أو فســاد فى الأرض : فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها — بالمحافظة عليها — فكأنما آحيا الناس جميعا » أى فى فضل عمله ، وحسن ثوابه .

وهذا التذكير هو ما ختمت به قصة ابنى آدم ليكون تذكيرا مطردا فى ذرية آدم .

وهى تذكير على لسان الرسل جميعــا .. كمــا قال الله تعالى فى ذلك « ولقد جاءتهم رسلنا بالبينــات ، ثم ان كثيرا منهم بعــد ذلك فى الأرض لمسرفون » . ٣٢ — المائدة

وهذه قصة واقعية ، عن جريمة وحشية تلوثت بها الحياة البشرية منذ لحظاتها الأولى وما كان لها من سبب : ســوى ثورة الحقــد ، والحســد ، والأنانية ، والتزاحم على المرأة .

وهى نوازع الشر ، التى استغلها الشيطان فى نفس قابيل . وهى نفسها مداخل الشــيطان الى كل نفس .. بجانب ما هنــاك من نزعات شريرة ، أو أسباب ينتهزها الشيطان ليــوقظ بها الفتنة ، ويبعد الانســان عن مستواه الكريم .

وهذه سياسته التى رسمها مع الانسان فى قوله أمام الله — وعزتك ، وجلالك ، لاجــرين من ابن آدم مجــرى الدم من اللحم مادام فى جسده روح — وقد تكفل الله بعباده فى قوله « وعزتى وجلالى لا أغلق عن عبدَى باب التوبة مادام فى جسده روح »

معالم الطريق إلى الفلاح

« يا أيها الذين آمنوا : اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله ، لعلكم تفلحون » .
آية ٣٥ — المائدة

١ — تكفل الله تعالى ببيان السبيل الى بابه ، ورسم لهذه السبيل معالمها ، ودعا خلقه أن يوجهوا أنفسهم اليه فى ضوء تلك المعالم ، ووعدهم فى كل موطن من مواطن الدعوة أن يتقبلهم راضيا عنهم ، متجاوزا عن سيئاتهم ، اذا أحسنوا الظن بربهم ، وصدقوا النية فى الاتجاه اليه ، فان أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ، وان أساءوا فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

٢ — ومن دعوات القرآن الى سبيل الله قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله .. الآية » فهذا نداء للمؤمنين أن يأخذوا بثلاث وسائل ، لتكون غايتها — وهى الفلاح — مكفولة لهم .. وانما آثر المؤمنين بهذا النداء ، لأن الشأن فيهم أن يرغبوا فى الفلاح لأنفسهم ، والأمل فيهم أن يحرصوا على الاسباب ، وأن يطيعوا فى الأخذ بها كوسيلة الى غايتهم المرجوة ، وهذه ظاهرة الايمان الذى عرفوا به ، وخوطبوا بعنوانه . والعقلية المؤمنة هى التى تربط الأسباب بمسبباتها ، وتدرك أن من زرع حصد ،وغير المؤمنين تغرهم الأمانى ، وتقعد بهم الهمم ، فهم يطمحون ولا يعملون ، فتوجيه الخطاب اليهم غير ذى جدوى ، وفى الاعراض عنهم تحقير لشأنهم ، واشعار لهم بأنهم ليسوا فى عداد الناس الذين يلتفت اليهم . وأما المؤمنون فهم وحدهم الجديرون بالخطاب : (ا) أن يأخذوا بالتقوى (ب) ويبتغوا الى ربهم الوسيلة (جـ) ويجاهدوا فى سبيله .

(أ) ومعنى التقوى : تجنب سخط الله ، والتحبب اليه تعالى .. وذلك كله منوط بفعل ما أمر الله ، وترك ما نهى الله عنه ، وبالتماس الحلال ، واتقاء

المحظور فيما نحن بسبيله من شئون الحياة ، وكلمة التقوى على ذلك كلمة جامعة ينضوى تحتها كل معانى الخير ايجابا وسلبا .

(ب) وتكون الوسيلة المذكورة بعدها بيانا وتأكيدا للتقوى. وخلاصة هذا أن التقوى والوسيلة فى معنى واحد ، غير أن الوسيلة صرح فى جانبها بالأمر بابتغائها ، يعنى اجعلوا التقوى عن رغبة واخلاص فيها ، خشية لله وطمعا فى رحمته ، لتكون هى الوسيلة .

ويمكن أن تحمل الوسيلة على معنى الحاجة التى تعرض للانسان ، كما يرى ذلك بعض المفسرين ، ويكون معنى ابتغائها الاتجاه الى الله فى طلب الحاجة والاعتماد عليه وحده فى قضائها ، كيفما كانت هذه الحاجة للدين أو للدنيا .

وبهذا تكون الوسيلة أمرا ثانيا غير التقوى التى سلف معناها .

وللوسيلة احتمالات أخرى ليست ذات بال ..

(جـ) ثم جاء قوله تعالى : « وجاهدوا فى سبيله » والجهاد فى سبيل الله هو الدفاع عن دينه ، ومقاومة الكائدين لشريعته ، والجهاد كذلك بالسعى للوطن ، وفى الخير للناس ، ودفع ظالمهم عن مظلومهم ، ومواساة المنكوبين منهم ، وتشجيع المستضعفين ، والمؤازرة فى كل عمل نافع .

والتعميم فى سبيل الله أولى من قصره على الجهاد وحده ، اذ أن الخير كله سبيل الى الله ، وان كان الجهاد أول المعانى خطورا بالبال .

ومن هذا السياق يتضح أن الدعوة الى تلك الوسائل الثلاث — التقوى، وابتغاء الوسيلة ، والجهاد فى سبيل الله ، ليست بمعزل عن شئون الدنيا ، فان الدنيا — كما عرضنا لذلك غير مرة — ليست عدوة للدين على نحو ما يسرف فى تصويرها بعض المتشائمين منها ، وانما هى مرقاة الى الآخرة ووطن للعمل، وحلبة للسباق الى باب الله الفسيح .

فالدعوة فى الآية آخذة بأطراف السبيل كلها : دينا ودنيا جميعا .

واذ انتهت الآية من التنصيص على الوسائل الثلاث ، فهى تنتقل بنا الى الغاية المرجوة منها ، وهى الفلاح الذى ينشده المؤمنون ، فتذكر هذه الغاية فى سياق الرجاء عند الله « لعلكم تفلحون » فكأن الفلاح الذى يرتجيه المؤمنون لدينهم ودنياهم منوط بوسائله الآنفة ، وليس يكفى بعضها لتمام الفلاح كله ، فان ثلاثتها دعائم يقوم عليها أمر كامل ، هو غاية مقصودة ، فاذا لم تتوافر الدعائم فلن يتم ذلك الأمر ، ولن تحقق فيه الأمنية .

وما دام الخطاب للمؤمنين ، والشأن فيهم ألا يؤمنوا بالبعض دون البعض ، فالمفروض أن تكون غايتهم مسبوقة بوسائلها على نحو ما شرع الله ، ومن أجل ذلك يحثنا الرسول على أن تتقن أعمالنا كما يحب الله سبحانه منا ، وكما يحب سبحانه أن يوفينا جزاءنا غير منقوص .

٣ — هذا : وقد توسع بعض العلماء فى تفسير الوسيلة ، فلم يكفهم أن تكون بمعنى التقوى ، ولا أن تكون بمعنى الاتجاه الى الله فى طلب الحاجات ؛ والتضرع اليه تعالى بالدعوات ، بل جعلوها شاملة للتوسط الى الله بالصالحين من عباده ، وشاملة لتوسيط صلحاء السابقين من سكان الأضرحة .. فأصبح يجرى على ألسنة الكثيرين التوسل بفلان ، بل تسرب الى أذهان بعضهم أن لسكان الأضرحة جاها ونفوذا عند ربهم ؛ بل تصرفا فى شئون الناس .

ومجاراة لهذه الأفهام يكون التوسل على هذا الوجه شيئا مأمورا فى القرآن .. وليس كذلك ، فان طبيعة القرآن تأبى هذا الفهم ، اذ القرآن قائم على توحيد الله عن الشريك ، وعلى توجيه الناس نحو خالقهم وحده فى كل ما عظم أو هان من شئون .

وآيات الكتاب وصحاح الأحاديث وأعمال السلف متضافرة على هذا ، ومع ذلك طال النقاش حول هذا فى العصور الأخيرة عن عهد السلف .

٤ — والحق الذى لا يحتاج الى تكلف ، ولا يحتمل ريبة ، أن التوسل الى الله يكون بالعمل الصالح ، ويكون بالدعوات الطيبات من الناس ، وخاصة من الأتقياء الأحياء تكريما لهم ، ونظرا لقربهم من ربهم بالأعمال الطيبة

الجارية منهم ، والدعاء جــزء من العمــل ، وفى دعاء البعض للبعض توثيق للروابط ، ودعم للاخاء ، وتعاطف بين الناس ، وكل ذلك مستحسن .

وأما دعاء الأموات للأحياء فغير حاصل ، ولا ممكن ، ولا مطمع فيه ، ولا معنى للتعلق به .

وحسب الصالحين الراحلين أن لهم عند ربهم مكانة محمودة ، ومنزلة فى أخراهم لا ينالها من كان دونهم عملا فى دنياه ، ولكنها لا تتعدى ذلك الى نفوذ أو تصرف أو نحو هذا . من التدبير ، أو الوساطة .

وعلى ذلك التحقيق تضافرت الأدلة المقبولة وكان عمل الصحابة .

فقد كان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يزور الروضة النبوية ويسلم على الرسول صلوات الله عليه وعلى صاحبيه رضى الله عنهما ، ثم ينصرف دون أن يتوسل أو يزيد ، فلو كان التوسل بأهل الآخرة جائزا لفعله ابن عمر فى زيارته للروضة ، فانها مقام فوق كل مقام ، ولأفضل عبد من عباد الله السابقين واللاحقين . ولعل ابن عمر كان يتشدد فى هذا فان للرسول شأنا خاصا .

ولسنا بالميل الى هذا فى شأن الأموات الآخرين نغض من أقدار سلفنا ، بل نحن نربأ بهم عن تجاوز أقدارهم . والمبالغة فى تعظيمهم أشبه بتعظيم المسيحيين لعيسى عليه السلام حيث زعموه الها ، أو ابن الاله ، وزعموا أن القول برسالته فحسب يعتبر تنقيصا من قدره ، وما هى الا مبالغة كاذبة أودت بهم الى الخروج عن دعوة عيسى نفسه ، والالحاد فى دينه .

ولقد خشى علينا النبى — صلى الله عليه وسلم — من هذه المبالغة فى شأنه ، فقال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم » يعنى لا تبالغوا فى الاطراء والثناء على ؛ لئلا يوقع بكم هذا فى الكفر كما كفروا .

٥ — وقد رأى بعض العلماء أن التوسل بالنبى محمد صلوات الله عليه وسلم جائز ، واعتبروا ذلك توسلا بحب الله له . وهذا حق ، ثم لا غضاضة فى دعاء انسان لانسان ، ولا فى التوسل بحب الله لأنبيائه أو بحبه للصالحين من عباده بوجه عام ، كما أن المجمع عليه أن نتوسل الى الله بصفاته .

وقصارى الجدل فى هذا أن الله أقرب الينا من كل ما عداه ، فليكن قصدنا اليه ، واعتمادنا عليه ، ولنأخذ بما اتفق عليه أولو العلم ، ولا حاجة الى تكلف ، ورضى الله عن صالحى المؤمنين ، وعنا أجمعين .

٦ — وقد جاء بعد هذه الآية ما يؤكد المطلوب منها فى أسلوب التشنيع على الكافرين ، واغلاق الباب فى وجههم ، واقناطهم مما يرجى للمؤمنين .

« ان الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم » .

يعنى أن الكفار ضيعوا على أنفسهم الأخذ بتلك الوسائل ، فلن يتحقق لهم ما يتحقق للمؤمنين .. فاذا حان الموعد ، ووقفوا من ربهم موقف المسئول فى رهبة ، فلن يجدوا مخلصا من هذه المهلكة .

واذا كانت أزماتهم الدنيوية ينفع فيها الفداء ، فليست أزمتهم فى الآخرة كذلك ، بل لو فرض أن لهم — يومئذ — ما فى الأرض جميعا ومثله معه أو أمثاله ، واتجهوا الى الافتداء به من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ذلك الفداء .

فلينظر الكفار من خلال هذا التهديد الى هول الموقف ، وليذكروا أن افتداءهم من العذاب غير متاح لهم ، ولو بلغ الفداء ما فى الأرض ومثله معه ، وليعلموا أن نصيبهم بعد حياتهم هذه عذاب مقيم ثابت لا يتزحزحون عنه ، ولا يتقلص عنهم .

فقد ترددت على مسامعهم دعوة الله الى طاعته ، وما اقترن بهذه الدعوة من وعد كريم ووعيد رهيب ، فأبوا أن يستجيبوا ، أو استهانوا بما سمعوا ؛ فلم يبق الا أن يصدق الوعيد فيهم ، والله لا يخلف موعده .

أ - الموالاة - ب - المسالمة
جـ - الحذر

ا) انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)) .

(المائدة ٥٥)

مناهج ثلاثة ، رسمها القرآن لأهله ، ينتهجـون أولها — فيما بينهم ، وينتهجون الثانى والثالث مع من عداهم .

وفى هذه المناهج تكييف للعلاقات الاجتماعية التى تبرز فيها شخصية الجماعة الاسلامية كأمة لها مميزاتها وخصائصها ، ولها طابع يفسح للافهام أن تعرفها حتى لا تكون الشخصية الاسلامية محجـوبة عن الأذهان ، ولا مغمورة بالشبه والشكوك .

(أ) فالمنهج الأول : منهج الموالاة ، وقد ردد القرآن ذكرها فى آيات عدة : منها الآية التى فى مطلع حديثنا ، والموالاة هنا معناها المحبة والارتباط، والنصرة .

وقد خوطب المسلمون خطاب تكليف أن يجعلوا هذا المنهج ديدنا لهم فى المحيط الاســلامى ، وأن يعتبروه من جانبهم وفاء بعهــد الله ، ومؤازرة لرسوله صلى الله عليه وسلم ووثيقة اخاء فيما بينهم .

ومعنى ذلك : أن الولى الذى نركن اليه ، وتتعلق بحبه ، ونقــوم على طاعته والتضحية فى سبيله : هو — أولا وبالذات — الله سبحانه وتعالى .

وثانيا — رسوله ، صلوات الله عليه — لأنه حامل الدعوة اليهم من عند ربهم ، وهو قائدهم الى الغايات المنشودة فى حياة يراد بها أن تكون حياة لخير أمة أخرجت للناس .

وثالثا — المؤمنون ، لأنهم الطائفة التى التزمت عهود الله ، وتآخت فى الطاعة لله ، ولرسوله ، على تعاطف ، ومحبة ، وتعاون ، والمقصد أن يكونوا كتلة متضامنة مع ولاة الأمر فيهم .

وتوجيه القرآن للمؤمنين الى الموالاة على النحو السالف كله توجيه مفروض قبوله منهم ، وهو حتمى عليهم ، فانهم أمة واحدة فيما لها من دين ، ومنهج .

والموالاة بين تابعهم ومتبوعهم ، وحاكمهم ومحكوميهم ، ميسورة ومرجوة : ضرورة أنهم أمة متفقة فى الدين ، والمنهج العملى المستمد منه فى شئون الحياة .

وحينئذ تكون دعوة القرآن للمؤمنين الى موالاة بعضهم لبعض ، وتكون تلبيتهم لهذه الدعوة غير مشوبة بلون العصبية المعيبة أو المعاندة .

ومن تمام التوجيه الى موالاة المؤمن للمؤمن أن يكون الولاة المتبوعون بررة فى الدين على الوجه الذى ذكره الله — سبحانه — فى قوله : — الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم راكعون — يعنى أن يكونوا هم كذلك فى جانب الله : مثابرين على الصلاة ، مؤتين للزكاة ، متواضعين بين الناس : تواضع الخشية لله ، كما تكون خشية الراكع فى صلاته .

وبتوافر هذه الصفات فيهم يكونون موضعا للثقة فيهم ، وأهلا للقدوة بهم ، والموالاة لهم على السمع والطاعة .

فاذا تمت صفات الموالاة بين الجانبين كانوا جميعا حزب الله وحزب الله — لا شك — هم المفلحون .

وعلى هذا ترددت الآيات الكريمة بالوعود الصادقة أن ينصر الله من كانوا على هذه الشاكلة — ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم — ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمنذا الذى ينصركم من بعده — وما النصر الا من عند الله .

وقصارى الحديث فى هذا المقام أن الله دعانا ووعدنا ، وتحقيق وعده مشروط علينا بتلبية دعوته .

وهذه سننه فيما يجرى لعباده ، وقديما جرب المسلمون أنفسهم فى أوضاع عدة . فحينما كانوا حزب الله كانت لهم النصرة على من عداهم ، وكانت لهم جولات مرموقة فى مسالك الحياة وفى نظام الحكم ، واتساع السلطان ، وشيوع المهابة لهم حتى عند أقوى الأمم .

وحينما تراخت صلة الولاية بربهم ، ووهنت الروابط بين صفوفهم ، وهانت على المسلمين دعوة الله ، أصبحت خطاهم وئيدة ، ثم صارت جماعتهم غثاء كغثاء السيل : لا قوام لها ، ولا منعة فيها ، لم يستمروا حزب الله كما كانوا فتخلف عنهم ما كان مرجوا لهم ، ولم يخلف الله وعده فينا ، بل نحن الذين خرجنا عن الجادة ، ورغبنا عن مواصلة السير على ما كان أسلافنا .

ومع ذلك : فمنهج الموالاة لا يزال قائما ، ولا تزال دعوة القرآن اليه صارخة مدوية فى المسامع وتجارب الحياة تدفعنا دفعا نحو الرجوع اليه لنستعيد ما فات .. ولعلنا فاعلون (حى على الصلاة حى على الفلاح) .

ب) المنهج الثانى للمؤمنين المسالمة — فى غير ضعف — مع غيرهم ، اذا لم يكن الغير مشاقا لنا ، ولا عاديا علينا .

فان الاسلام دين عمرانى ، يدعو الجماعة الانسانية الى كل خير ، ويود لها أن تسير نحو المثالية ، ولا يمنع أن يتعاون المسلم مع غير المسلم فى شئون الدنيا .. بل ينشد فى المسلم أن يكون مثلا واضحا فى الكمال ، ومصدر نفع لنفسه ولغيره ، حتى يكون فى مسلكه الشخصى حجة للدين فى سموه ، لا حجة على الدين عند خصومه « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين » أى العادلين ، ولو مع غير المسلمين ، وفوق ذلك أباح للمسلم أن يزدوج بزوجة كتابية اذا أراد ... وشرع لنا أن نأكل من طعامهم الحلال ، وحتم علينا أن نجادلهم بالحسنى ، وأن نكسب مودتهم بالاحسان ، لا ضعفا ولا هوانا منا ؟ « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » . «وجادلهم بالتى هى أحسن » . « ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

بل نهى المسلم أن يشاتم انسانا لا دين له ، لئلا يغضبه ويستفزه الى المقابلة بالمثل أو أشد « ولا تسبوا الذين يدعــون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » .

وهكذا من ضروب التهذيب التى تكفل المسالمة بين المسلم وغير المسلم، وكل ذلك للرغبة فى تركيز السلام بين الناس ، وليتفرغوا للعمل المشترك فى تعمير دنياهم ، وليظهر فى المسلم طابعه الدينى الحق ولونه الصحيح .. وكان السلف المسلمون يقولون فى دعائهم الذى يحكيه عنهم القرآن ويعلمنا اياه : « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم ».

جـ) المنهج الثالث : منهج الحذر من أعــداء الاســلام ، حتى لا يكون المسلمون أغرارا يخدعهم عدوهم حتى يفتنهم عن دينهم بما بيديه من وسائل الاغراء ، وبما يبث بينهم من النزعات الباطلة ، والانحلال المموه بلون المدنية ، والحــرية الشخصية ، والميــوعة المعسولة التى تزحزح المسلم عن رجولته ، وتستلب حياءه وغيرته ، وتجعله أشبه بالأنثى فى تخنثه ، وتجعل الأنثى كالرجل فى غشيان المجامع ، ومزاحم الأقدام : فان هذه هى الشرارة المحرقة للمقومات الشخصية فى الأفراد ، ثم هى العاصفة الجائحة للقومية التى يمتاز بها الوطن العربى ، والمرء يستهين بالخطر فى أوله ، ويستسلم للفتنة ملفوفة فى ملامح الزينة ، ويتزمت من الدعوات الجدية حتى يغلب على أمره ، ويؤتى من مأمنه .

وكانت وصية الله تعالى لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قوية فى هذا الشأن واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ــ فاحذرهم قاتلهم الله ــ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا » . خسرانا وضياعا فى المهالك ... وهذا خطاب يتناول الأمة كلها .

ثم كانت وصية الله كذلك عامة موجهة الى المؤمنين : ؟ يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم » . « ود الذين كفروا لو تغفــلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

فهذه مناهج ثلاثة : أتينا بها اجمالا ، وألقينا عليها ضوءا من اشــعاع القرآن لنبين أن نظم الحياة الاسلامية مرسومة فى كتاب الله ، وأن الرجوع اليها فى موطنها هذا أجدى على الناس من كل تفكير مستحدث ، وما يجهل

ذلك الا من حيل بينهم وبين تعرفه • وتذوقه ، أو كانت تربيته العلمية على زاد غير زاد التقوى •

وقد تكفل القرآن بزيادة الايضاح ، وبالحث على تجنب الاستسلام للعدو ، حتى لا يظل الغافلون عن هذا فى عمايتهم ، وحتى لا تكون معذرة للتخلف عن الجماعة الاسلامية فيما نوديت به ووجهت اليه •

ولم يبق بعد البيان الأكيد الا أن تكون الضلالة طامسة على الوعى ، والفتنة غالبة على المدارك ، والقلب فارغا من الضمير •

ولا حيلة فيمن كان كذلك حتى يهديه الله •• اذا شاء •

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أوليـاء ، تلقون اليهم بالمودة •• وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » • « ومن يتولهم منكم فانه منهم، ان الله لا يهدى القوم الظالمين » •

وبعد : فنظرة الى واقع الحياة الحاضرة فى مصر والبلاد العربية تكشف لنا عما كان من تخاذل عن المنهج الاسلامى الحق ، حتى تغلغلت يد الاستعمار فى عنق المجتمع الاسلامى كله ، وامتدت مخالبه الى شعاب الوطن العربى ، وعشنا حقبة طويلة فى هوان ومذلة •

ولكن بعثا جديدا من فيض الله هز المشاعر الوانية ، وحـرك العزيمة الكامنة ، فكان تجاوب العـرب عودا على بدء ، وكانت وقفتهم من جديد ايذانا بمشرق حياة ماجـدة تأصلت فيهم جذورها ، وأضـفت عليهم قديما ظلالها •

وان مصر والحمد لله لملهمة فى وقفتها ، وكان من مظاهر الالهام أن يعلن رئيسها المحبوب مبدأها فى التعايش السلمى (نسالم من يسالمنا ، ونعادى من يعادينا) وان لجمال عبد الناصر لهتافا يخفق له الوطن العربى كله ، ويرتعد له العدو المخادع (ان القومية العربية هى الدرع الواقية التى تحمى الدول العربية من مؤامرات المستعمرين) •

هكذا يا جمال !!

ففى هذه الألفاظ النيرة روح الحق ماثلا ، وفيها حفز العرب على مبدأ الموالاة فيما بينهم ، والأخذ بالمسالمة لمن يسالمنا ، والحيطـة مع الحذر ممن يخادعنا ، فهلموا اليه يا قومنا •

توجيه الناس الى مسالك الارزاق

« يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » .

آية ٨٧ ـ مائدة

١ ـ طلب الرزق أمر طبيعى ، فمن مقتضيات الحياة أن يتناول الجسم حظه من مطعم ومشرب وملبس وسوى هـذا مما يتقوم به الجسم والعقل والروح .

غير أن اتجاه الناس الى الأرزاق يتأثر بمؤثرات متباينة ، فقد يتكالب المرء على الكسب غير مشفق ، ولا متحرج فى مسلكه ، بل يدفعه طمع مسترسل ، وأنانية متحكمة : وكثير ما هم .

وآخرون يستجيبون لنزعة مذهبيـة من فلسفة أو دين موضوع ، فيتزهدون فى الكسب أو يتحرجون من التمتع بالحلال : زاعمين أن هـذا تقشف تتهذب النفس به فيكون قربة الى معبودهم .

وكانت هذه الوجهة ـ ولا تزال ـ ظاهرة دينية عند الهنود ثم عند آخرين ممن ينتمون الى كتاب سابق .

وكان لهذه النزعة موجات فى المجتمع القـديم ، فتسربت الى العقلية العربية يوما ما ، وحسبها المسلمون الأولون تصوفا يدعو اليه الاسـلام فى أسلوب التكليف .

حتى زعم رجال من خيار الصحابة أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما يعظهم ويصرفهم عن التعمق فى دنياهم انما يقصد اليهم حظر ما أباح الله من طعام ، ونوم ، وزوجة ، وتزاور ، وائتناس .

٢ ـ ولما لم تكن وجهة الاسلام قطع الناس عن دنياهم ، ولا من أهدافه أن يرجع بهم الى الكهوف ، أو يحبسهم فى الصوامع ، جاءت الآيات البينات ، وجاءت السنة النبوية مؤازرة لعقولهم فى فهم ما أنزل على محمد ، وايضاح أن التنعم بما أسبغ الله من الرزق هو قوام الحياة ، والسبب فى تقوية الصلة بالله : بادراك فضله ، والاستشعار بقدرته ، والتعبد لذاته ، وشكر نعمته ، وكان من كلام النبى صلى الله عليه وسلم فى هـذا « ليس فى دينى ترك النساء واللحم ، ولا اتخاذ الصوامع » وقال : « لا آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا » وهكذا من توجيهاته صلى الله عليه وسلم : ولن يتاح ذلك كله الا مع الأخذ بنصيب من الدنيا •

بل العمل فى الدنيا وسد ما فيها من فراغ ، وتعمير ما بها من خراب ، وتجليتها فى مظهر من الزينة : كل ذلك ضروب من مناهج الاسلام التى ينادى بها أهله ، ويحمدهم عليها سواهم •

٣ ـ ومن دعوة القرآن الى ذلك آية الموضوع •

« يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » •

فهذا نداء بالاقدام على الحلال فى كل نوع من أنواعه •

وفى هذا التوجيه غاية عمرانية ماجدة : هى الحث على اغتنام الأرزاق الطيبة ، وأن يسعوا وراء هـذه الأرزاق ، وأن يتعاونوا فى سبيلها ، ويتعارفوا من طريق التعامل بينهم .

وفى هذا التوجيه اشارة ضمنية قوية الى أن فى مجال الحلال فسحة وغناء عما لا يكون حلالا •• وسيأتى تصريح بذلك •

ثم يقترن بهذا النداء فى حيزه ومقصده نهى المؤمنين عن التعدى بتحريم الحلال (ولا تعتدوا) •

وللتعدى صور يشملها الحظر فى قوة :

منها : الامتناع عن الطيبات بتحريمها على النفس : تقربا الى الله ، كما زعم زاعمون •

ومنها : تحريمها بيمين أو نذر أو نحوهما : عند الغضب من أحد ، أو الرغبة فى النكال بأحد .. وهـذا افتراء على الله ، وتشريع لمـا لم يشرعه ، ولذلك كان المشروع فى هذه الحالة أن يحنث المانع نفسه ، يفدى يمينه ، أو نذره بكفارة يمين : تأديبا له على ما صـنع واجترأ به من تحليل حرام ، أو تحريم حلال ، فان المشرع هو الله وحده .

ومنها الامتناع عن الطيبات الحلال شحا وتقتيرا ، فهـذا فى حـكم المحرم لها تقريبا ، وتلك مسئولية غير هينة ، اذ فيها هوان للنفس ، وانكماش عن المروءات : أشبه بمن يقبض يده الى عنقه تحرجا من مدها الى عمل الخير خوفا على ماله ، وفى ذلك يقول الله للبخيل والشحيح : « ولا تجعـل يدك مغلولة الى عنقك » . كالمربوطة فى العنق بالغل .

ومنها : الاعتداء فى نفس الطيبات ، بمعنى التوسع فى جلبها والاسراف فى تناولها : على غير ما يقتضيه الحزم .

فان ذلك تبديد لما تملك اليد ، وتعرض لمذلة الفاقة والضيق ، فيصبح المسرف ملوما عند الناس ، لا يترفق به أحد ، ويصبح فى نفسه محسورا نادما على ما ضيع .

فضلا عن تعريض الزوجة والولد لمأساة الحرمان والفقر .

وهذه جناية على الغير ، فى حين أن تيسير الحيـاة للأولاد وللزوجة والورثة عند الامكان مسئولية فى عهدة الزوج أمام الله ، والقيام بهذا من البر المنشود فى شريعة الاسلام .

والنبى صلوات الله عليه يقول : انك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس .

وأنت ترى من خلال هذا التوجيه النبوى حرصا على كرامة الأولاد وسواهم من زوجة وورثة .

والقرآن يفصح عن ذلك فى قوله تعالى : « ولا تبسطها ــ اليد ــ كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

ومن صور التعدى : تجاوز الحلال الى تناول المحرم لذاته كالخبائث من لحم الخنزير والخمر وما عرف بالنهى عنه كغير المذبوح ونحوه .

أو المحرم لعارض كالمال المشبوه ، والمغصوب ، والمسروق ، والملوث بنجاسة طارئة ، والفاسد المخيف على الصحة والمكسوب من حرام .

فملاك هذا كله الحرص على الطيبات ، والحيطة فى الكسب تحرجا من الخبيث لسبب من الأسباب .

وسبيل هذا عدم التعدى بالامتناع ، أو بالاسراف ، أو بتجاوز الحلال .

وهذا نظام يكفل للجماعة وللأفراد حياة متزنة مكفولة الراحة والاطراد .

وفيها تذوق لرفاهية الحياة ، وادراك لما أنعم الله ، وتنبه الى وجوب شكره .

وقد بلغت عناية الله بالتوجيه الى مسلك الاعتدال فى الأرزاق مبلغ التهديد الشديد على الانحراف عنه .

فيقول عز شأنه : « ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » . وماذا بقى للمعتدى بعد أن صارحه ربه بأنه لايحبه ؟؟ وماذا بقى من الأمل بعد افترائه على تشريع الله بتحريم ما أحل ، وبتحليل ما حرم ؟ « ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم » .

ثم تعود الآية التى معنا فتستنهضنا استنهاضا قويا الى التمتع بالحلال بقوله تعالى « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا » وليس الأمر أمر الأكل وحده ، وانما هو التمتع بمعناه الشامل فى مطعم وملبس وتفكه بكل ماتطيب له النفس فى دائرة الحلال ، وفى حدود التوسط على نحو ما سلف ، وفى ضوء ما تشهد به التجارب الواقعة .

فسياق القرآن فى أمر واقعى يبصره كل ناظر فيما حوله ، ويشهد به كل من عركته التجارب ، وتغيرت حاله وتبدل شأنه من ضيق بعد بسطة ، ومذلة بعد نضارة ومرح .

وأقدار الله منوطة بالأسباب ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وليس لنا من عذر بعد البيان ؛ فى الدعوة، والتهديد بالبغض والعذاب.

ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » والدعوة الى التقوى مرددة فى كل معرض . ولكن أكثرنا صادف عنها ، أو هى عازبة عن تفكيره .

فأين التقوى مع الغفلة ؟؟ وأين تكون الخشية مع القسوة ؟؟
انما تكون التقوى لمن آمن بالله وبما أنزل على محمد .
ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، وانا لنرجو ونرجو فى ضراعة وأمل .

التقليد في الخطأ مهانة

« **واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسـول ، قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، او لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون »** .

(المائدة ١٠٤)

١ ـ حينما نزل القرآن بمعـارفه وآدابه : كان عرب المـدن وأعراب القرى على بعد شاسع من دعوته لفشو الجهالة ، وتحكم العصبية ، وجمود الأفهام والأذهان عن استبدال مبدأ بمبدأ .

ودعوة القرآن كانت رحيمة بهم ، لا تعالجهم بالمهانة ، ولا تسبق الى تخويفهم بالانذار ، لأن طبيعة القرآن رفق وتلطف ، وهو شـفاء ورحمة ، وسياسته دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى اذا ما وضـحت للأفهام وجهته ، ونهضت على المتخلفين حجته ، كان للقرآن أن يشتد ويشتد ، وأن يلهبهم بأسلوبه ، ويقدح في وجوههم نار وعيده ، ليهز تلك القلوب الغلاظ ، وينفذ الى دخائلها القاتمة ، أو ليتركهم وقد انصرفوا عن دعوته ، وتشبثوا بباطلهم ، ورضوا لأنفسهم بسوء العاقبة ، « ان الله لا يظلم النـاس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

٢ ـ وانظر ـ مثلا ـ الى ذلك الأسلوب الرحيم العـذب يدعو به محمد ـ صلوات الله عليه ـ قومه . وأمنه « تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول » .

فهو يدعوهم الى شيء من عند ربهم ، ليستخدموا عقولهم في نفسه ، ويقفوا منه موقف الناحص الفطن ، وحينذاك يجنحون الى صوابه عن بينة ، ويتخيرون ما يلمسون خيره : دون أن يقحمهم في الأمـر على غير بصيرة ، ودون أن يكلفهم على ذلك أجرا ، ولكن انظر الى الجمل اذا أطبق ، والى

الذهن اذا تغلق ، فهم لا يجيبون بعلم يفهمونه ، ولا برأى يناقشـونه ، بل يقولون : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » فهذا انكماش خائر عن مسـايرة الدعوة فى وجهتها القاصدة ، وهو تزهد فى الخير الذى يستقبلهم ، وعكوف على الباطل الذى غمرهم ، ويمتد فى مرمى أنظارهم ، والقـرآن يعجب من انكارهم لأنفسهم ، وتقليدهم لآبائهم ، ويبدى أن الأعجب من هذا تقليدهم لآبائهم وهم لايشهدون لهم بعلم ، ولا يعرفونهم برشد واهتداء ... وانما هى عصبية تزين لهم القبيح ، وتحبب اليهم البغيض ، وتقذف بهم عن التفاهم المنصف : فيقول الله تعـالى : « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شـيئا ولا يهتدون » ؟؟

يعنى أن التقليد مجردا عن التعقل معابة وخزى ، فمـا بالك اذا كان تقليدا لغير عالم ولا مهتد ؟

ان أولئك الآباء لا يصلحون للقدوة لأنهم كانوا جهـلة مجردين من المعرفة ، وكانوا فى غباوة وعماية ، فلم يكونوا على صواب فى أنفسهم حتى يصلحوا قدوة لمن بعدهم .

والجمود فى ذاته آفة عقلية ، تنجم عن بداوة غاشمة ، ويؤرثها تحيز المرء الى شيء بظنه صوابا ، ويراه شعار آبائه الذين ينتمى اليهم ، وناهيك بالعرب الذين كانوا يرون عزتهم فى التشيع للأنساب ، ويرون الحفاظ على تقاليد الآباء لونا من ألوان النسب الماجد .

واذا كان القرآن يحدثنا بذلك عن أولئك ، فأنه يوجهنا الى أن التقليد والتشبث به يحجب الهداية الى الحق عن ولوج القلب ، ويبعد المرء عن تيار الحياة الراشدة .

وانه لخليق بالانسان أن يعجب من نفسه حينما يقلد غيره ، وهو عالم بأن الغير جهول ، أو بعـد أن يعلم أنه جهول .. والجـدير بالمرء — وقد وجهنا القرآن ـــ أن يبحث فى نفسيته ، ويحرص على الاستفادة بما وجهنا اليه ، وعلى العلاج بما هو الدواء الذى تجاهله الأولون ، وشغلتهم عنـه مفاتنهم ، حتى ضاعت عليهم الفرصة ، وأصـبحوا مضرب المثل فى المهـانة ، والتشنيع بالجهال ، وبتقليد الجاهلين .

ذلك الدواء الذى وصفه لنا الحكيم العليم : هو الرجوع الى ما أنزل الله والى الرسول ، وفى هذا ــ لا شك ــ صلاح للدين وللدنيا ، أو فيه على أقرب الفروض صلاح لجانب من الحياتين لمن قعدت به همته عن الجمع بين النا.

نكتب هذا ونشعر بأن فى القراء وفى الناس عامة من يتحلل من أخذ نفسه بذلك الأدب : لزعمه صعوبة فى الأمر ، أو تكليفا يضايق النفس ، أو يتحلل زاعما أن توجيهنا الى أهداف القرآن سبيل الواعظين الذين يسرفون فى الترهيب •

والحق أنها مزاعم وهمية ، وهى من نزغات الشيطان ، فانها لم تقه بواحد من المهتدين لأنفسهم ، ولم تكن صارفة لمن جربوا ، وسلكوا دنياهم فى نشاط ثم لم يقطعوا أنفسهم عن دينهم ، ولم يبالغوا فى ارهاقها ، وانما عرفوا أن الأمر لا يعدو الأخذ بالحلال ، وباب الحلال واسع رحيب ، وفيه غناء عن كل حرام ، وعن كل شأن مريب •

ان التقليد الذى عابه القرآن كان وليد الضلالة ، وسيظل كذلك معابة أدبية ، ونقيصة عقلية ، ومسقطا رديئا من مساقط الجهالة التى سوغت لهم أن ينحتوا الأحجار بأيديهم ، ويعتبروها آلهة لهم ، ويعبدوها كما كان يفعل آباؤهم •

وان أشد ما ينكره العقل فى هذا الباب أن يكون تقليدا على حساب الدين ، فينصرف المرء عن معين الحق ، ومنبع الهداية فى تشريع الله ، وفيما حمله الينا الثقات من رجال العلم : الى مزاعم فاضحة يتجر بها محترف جهول ، أو يتشدق بها مفتون جرىء ، يحسب لنفسه أنه سبق الى ما لم يفهمه غيره ، ويزعم أن ذلك هو الفهم الجديد ، وما هى الا فتنة استخدمهم فيها شيطانهم ، ليهونوا على الناس أن يتخطوا حدود ما أنزل الله على رسوله، ويشاقوا الله فى دينه •

كثيرا ما يقتحم أناس ميدان الكتابة معتدين بأنفسهم : ظانين ، أو موهمين أنهم أهل رشد وارشاد ، ولكن الحق والصدق والأمانة فى غير

جانبهم : لو كانوا يستحيون وينصفون ، والأمر بحاجة الى مقاومة هده النزعات كلها ، حتى يستقيم للناس شأنهم فى دنياهم ودينهم •

ولا جرم أن الذين يفسد فى دخائلهم وازع الدين ، وتضعف فيهم خصلة الحياء : لا يمكن أن يكون منهم المواطن الصالح الذى ينضح طبعه بالخير كما تبتغيه الأمة مهما تغطى بأثواب الرياء •

ان قضية التقليد ، ومشكلة العدوان على مهابة الدين ، والتحلل من المبادىء الحقة ، والمحاولات المأفونة التى تعودناها من أناس كثيرين فى السياسة وغيرها ، لأمور تقتضى عناية جديدة من أولى الأمر ومن القادرين على انكار المنكر بأيديهم ، أو بألسنتهم • والسكوت على الانكار بالقدر الممكن مسئولية دينية واجتماعية ، ولا يعفى المقصرين فيها عذر يلتمسونه ، أو سبب يرجحونه ، ويتعلقون به •

فان الله — سبحانه — جعل الأمة الاسلامية فى رعاية حكامها يسألون عنها ، وجعلها كذلك فى كفالة متبادلة بينها : ينصح بعضها بعضا ، وينهى بعضها بعضا ، ويستمع بعضهم الى بعض فيما يبذله ناصح لمنصوح ، وفيما ينكره ناه على منهى ، وهذا معنى قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » •

فان تسامح كل فيما يلزمه ، أو تسامح البعض : كانت المسئولية واقعة ، وكان الجزاء بالمرصاد •

وربما تمنع ناصح عن بذل النصح ، أو سكت عن انكار المنكر ؛ وهو يعفى نفسه من المسئولية محتجا بقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم : لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » ، اذ يفهم المعتذر عن نفسه أن كل امرىء مسئول عن عمله ، ولا يسأل عن غيره ، ما دام هو معتدلا مهتديا •

والأمر على غير ذلك ، فان هذه الآية جاءت بعد آية المقلدين لآبائهم ، لتفصح عن شىء هام : هو — أن النصيحة واجبة من المسلم للمسلم ، وأن كل امرىء أمانة فى عهدة أخيه ، فاذا نصحه وبين له ولم يستمع اليه كان بريئا من عهدة الاخاء ، وما عليه من حساب المقصر شىء ، وعليه أن ينصح نفسه ،

ويتعهدها بحسن التوجيه ، وليس يضره اثم غيره ما دام هو فى ذاته مهتديا ، وما دام قد أبرأ نفسه من واجب التناصح •

والمفروض أن المقلدين لآبائهم قد رفضوا نصح الرسول لهم، والمفروض كذلك أن أصحاب الدعوة المرشدين الى الخير يلاقون مثل هذا الرفض من العصاة ، ويجهدون أنفسهم فى المقاومة ، ثم يلاحقهم أسف لعدم التوفيـق فى هداية من أرادوا لهم الخير ، فالله تعالى يخفف عنهم ما يساورهم ؛ ويعلن اليهم أن مرجعهم جميعا الى الله ، وأنه صاحب القضاء العادل بين عباده ، فلا حرج عليهم أن يريحوا أنفسهم من دعوة المكابرين •

وهناك حالة شبيهة بهذا ، وهى أن يعرف الآمر بالمعروف أنه سيهان من غيره ، وأن دعوته الى الخير تلابسها مخاوف الايذاء من السفهاء ، دون أن يصل الى شيء من غرضه ، فلا مانع أن يتريث ويتأنى، حتى تحـين الفرصة للنصيحة المجدية بالدعوة الحكيمة ، فعليه نفسه كذلك ، ولا يضره ضلال من ضل •

هذا وكل ما نقوله غير واقف عند أعمال الدين ، بل هو منصب وشامل لكل شأن من شئون الناس ، وهذه رسالة الاسلام التى انطوت عليها تعاليمه، وهى الكفيلة بخلق أمة ناضجة كاملة ، وهى الرسالة التى يحقد عليها أبنـاء الغرب قديما وحديثا ، فهم يأخذون لأنفسهم منها ما يسعد حياتهم ، ثم هم يحقدون على المسلمين ، ويحاولون استئصالهم من الأرض ، وان كانوا مع حنقهم عليها شامتين كثيرا لما يرونه فاشيا فى المسلمين من عدول عن دستورهم السماوى الى تلك المهازل التى رسمتها سياسات الاستعمار ، وصبغتها بألوان فاتنة للنفوس التى لم يطبعها طابع اسلامى •

تلك المهازل التى تصاغ مرة فى مناهج ثقافية ، أو فى معاهدات سياسية، أو أفلام تمثل ويذاب فيها تجريح الاسلام ذوبا معسولا فى أفهام الأحداث الذين هم الجيل المقبل ، تلك المهازل التى آزرها الاستعمار طوال عهـده ، وحارب بها كل نغمة اسلامية ، وكل فضيلة يشع بها القرآن ، أو يشرق بها حديث نبوى ، وحارب من أجلها رجال الدين فى شخص الأزهر ، وحارب

بها الأزهر فى شخص أبنائه وعلمائه ، حتى كان من أثر هذه الحرب الباردة أن أصبح الجمهور الاسلامى فى غير لونه الدينى ، وأصبح الروح الاسلامى فى كماله وحضارته الأصيلة بعيدا عن عقلية الكثيرين وبخاصة من أسلسوا أنفسهم للهوى ، وطوحوا بها وراء المغريات النسوية وغير النسوية فى ظل المدنية الحديثة التقليدية .

ان الشرق كله ، والوطن الاسلامى بخاصة ، ليحس احساسا جديا بانهماك الغرب فى مناوأته ، والقضاء على كل مقوماته ، وكل مظهر من مظاهر الحيوية الكامنة فى تعاليم الاسلام تفصيلا ، وفى دستوره العام ، وفى دخيلة كل مسلم صحيح الوجدان ، ونحن مع الغرب اليوم فى ملحمة تمثل الحروب الصليبية ، وسيكون النصر فيها لدين الله ، ولوطن هذا الدين ، بفضل المجاهدين لا بفضل المذبذبين .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
بين الإيجاب والإعفاء

أ) « يايهـا الذين آمنـوا عليـكم أنفسكم ـ
ب) لا يضـركم من ضـل اذا اهتـديتم الى الله
جـ) مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم تعملون »
(آية ـ ١٠٥ مائدة)

المعروف كل ما فيه نفع ولا يخالف الدين ؛ والمنـكر كل ما يخالف الدين ولو كانت منفعة .

ويعتبر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أصلا أول من أصول التربية فى القرآن وهو مظهر التكافل الذى ينشده الاسلام فى أهله ، ويفرضه رسالة متبادلة بين المسلم والمسلم ، والجماعة والجماعة ، فهو منوط بالذمم كأمانة يؤديها كل انسان الى أخيه حينما يجد أخاه بحاجة الى التوجيه ، ويتقبلها من أخيه حينما يكون هو بحاجة الى التوجيه. وقد جعل الله تلك الرسالة المتبادلة شعارا للقومية الاسلامية ، فامتدح فى المسلمين أنهم خير أمة أخرجت للناس، اذيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولم يرض لهم أن يبخلوا بالنصيحة، كما لم يرض لهم أن يشهدوا المنكر أو يتسامعوا به ثم لا يتناهوا عنه ، كما كان ذلك نقيصـة معهودة فى بنى اسرائيـل ، حتى أفرخت بينهم الرذائل ، وتغلغلت فى طبائعهم المنكرات .

والآية التى معنا تتعلق بمرحلة من مراحل الدعوة الاسلامية فى منهج الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر .. وهى المرحـلة التى يكون فيها الأمر والنهى غير مسموعين ، ولا نافذين الى القلوب ، ويكون موقف الداعى الى الخير موقف اليأس من النجح ، أو المتعرض للأذى فى تأدية رسالته الدينية الى قوم أو أفراد غير مستعدين للقبول ممن رانت عليهم الضلالة ، وغلبت

عليهم شقوتهم ؛ حينذاك يكون المتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد بلغ رسالته . وأدى أمانته ، وما عليه الا أن يأخذ بالحيطة لنفسه من نزغات الشيطان والركون الى اخوان السوء ، وأن يدع المتخلفين عن ارشاده الى ما هم عليه ، ليسلم من أذاهم ، ولا يلقى بنفسه الى التهلكة دون أن يكون فى ذلك صلاح لشأنهم ، ولا نفع يرتجى منهم .

وهذا تخفيف من الله عن كاهل الدعاة الى جانب الله ، حيث أعفاهم من أمر أصبح شاقا عليهم ، واكتفى منهم بالحيطة لأنفسهم .

وذلك قوله سبحانه : « عليكم أنفسكم » .

وحينئذ تكون التبعة قاصرة على المذنبين ، ولا حرج على غيرهم ممن نصحوهم وعلموهم فلم يستجيبوا لهم ، وهذا مصداق قول الله تعالى : « لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » . يعنى بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. كقوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، أى لا تحمل نفس وزر نفس أخرى بل — كل امرىء بما كسب رهين .

أما عند التقصير فى انكار المنكر ، وتوجيه الأمر بالمعروف : فاللائمة متجهة الى التاركين لواجبهم كما تتجه الى المذنبين على ارتكابهم ، والجميع مهددون من جانب الله تعالى .

وهذا قوله سبحانه وتعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

وقد وضح من المقابلة بين هذه الآيات أن الاعفاء من الرسالة المتبادلة وهى أمانة الارشاد والنصح لا يكون الا لمن حاول القيام بها ، وأبرأ ذمته منها ثم لم يجد سبيلا الى غايته ، وتعرض لما يكره .

ولا يعفى من هذا من يتعلل بمعاذير شخصية غير جدية ، كمن يتوانى فى ذلك معتمدا على أن فى القوم من يغنى عنه ، أو يخشى أن يغضب أناسا يحرص على مرضاتهم ، أو يحسب فى قيامه بالواجب حيلولة بينه وبين أمل يبتغيه ، أو ابطاء له عن مطامع يرتجيها . فكل هذا فرار من واجب شرع لحماية المجتمع من أضرار العابثين بالدين ، وبالنظام العام .

وكل هذا تمكين للفساد فى محيط يبتغى الاسلام صيانته من كل فساد بل من شوائب الفساد .

وفى الجزء الأخير فى الآية تسلية للدعاة ، وتلطف بهم حتى لا تهدأ غيرتهم على الدين ، ولا تفتر عزيمتهم عن مواصلة الارشاد والتماس الخير للنـــاس فى كل بيئة لا يســيطر عليها الاجــرام ، وفى كل مناسبة توحى بالاستجابة .

وذلك قوله تعــالى : « الى الله مرجعكم جميعا فينبئــكم بما كنتم تعملون » .

فهذا تأييد لهم فيما يقومون به . ووعد كريم بجزائهم على ما بذلوا ويبذلون من جهود ، وفيه وعيد للمتخلفين عن القبول بأن الله سيذكرهم بما ضلوا ، ويحاسبهم على كل ما كان .

ومن ثنايا الكلمات القرآنية فى هذه الآية تستشعر القلوب والأنفس أن الاتجاه فى الحياة ليس أمرا يترك فيه الحبل على الغارب ، ويأخذ فيه كل امرىء بما يطيب له ، ويلائم مزاجه ، بل هى حياة جدية أرادها الله لعباده ، وبينها لهم فى شرائعه ، وعهد بها الى رسله ، والعلماء من بعدهم ، وأعد لهم حسابا عليها سيكاشفهم به يوم يلقونه ، وفيهم أناس صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وفيهم آخرون أخلفوا الله ما وعدوه وكانوا يكذبون .

هذا : وقد وجد فى الناس قديما من يزعم أن الآية أسقطت عنهم واجب الأمر بالمعروف ، وجعلتهم فى حل من ترك مناصحة الناس ، وقصرتهم على رعاية أنفسهم فحسب .

وقد أوضح النبى — صلى الله عليه وسلم — مقصد الآية لمن سأل عنها واشتبه عليه أمرها فقال — عليه السلام — « بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى اذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام » .

فتبين لمن سأل أن الاعفاء من واجب الهدى للناس انما يكون بعد محاولته الوفاء به ، وبعد قيام المانع فى سبيله ، وظل الأمر فى التكليف بهذا

باقيـا على ما نطق به الكتاب العزيز فى كثـير من آياته كقـوله سبحانه « وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصـبر » وقوله « ادع الى سـبيل ربك بالحكمة » الآية ، وفى قول الرسول عليه السلام « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » .

وهكذا من الأحاديث وأقوال الصحابة التى حفلت بها الكتب فى هذا الشأن الخطير ، على أن سيرة الرسول — عليه الصلاة والسلام ، فى دعوته تذكى عزائم المسلمين فى مواصلة الارشاد ، والتناصح ، فقد اشتد القوم فى معارضته مرة ، واغرائه مرة بالآمال ، حتى أقسم لهم ألا يعدل عن تبليغه رسالته ولو وضعوا الشمس والقمر فى يديه ، أو قتلوه دون غرضه فى تعميم الدعوة .

واذا كان شأن الرسالة يقضى بذلك على نبى اختير للرسالة فقد كان الصحابة كذلك من بعده ، حرصا على تراثهم الاسلامى ، أو علما بأن دينهم يطالبهم بتوثيـق الاخاء ، وتركيز المحبة ، حتى تركزت فيهم عاطفة الخير ، وآمنوا ايمانا لا وهن فيه بأن المسلم يحب لغيره ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه .. فلا يتفق اسلام صحيح مع الأنانية أو لا يستقيم المجتمع اذا ترك كل امرىء وما يختار لنفسـه من مآثم ، وتعرض بسبب انحرافه للزلات .

ومثل الأمة مثل الأسرة الواحدة : تسعد كثيرا اذا استقام أفرادها على الجادة ، وبنوا مجدهم بأعمال محمودة ، وتنهار اذا لم يكونوا مطبوعين بطابع انسانى سليم من الآفات الهادمة لكيانها .

ولا أحسب فاهما يزعم أن رسالة المسلم الى غيره قاصرة على جانب العمل الدينى البحت ، بل هى شاملة لكل ما يتصل بالدنيا فى أعمالها الحيوية ، فان شأن الدنيا جانب هام من الدين ، وصلاحها منوط بفهم تعاليمه ، ومتابعة ارشاده .. ودنيا الانسان يجب أن تكون غير دنيا الحيوان ، ومن أجل هذا كانت من حساب الدين فى مقام خطير .

ومن أجل هذا أيضا عرف المسلمون الأولون خطرها ، وأعطوها حقها ، وبذلوا فى الهدى الى خيرها ما بذلوا من جهود مشكورة ، حتى كانت لهم السيادة ، ونهض بهم التاريخ .

ولكن من مآسى الحياة فى عصرنا هذا أن نجد أرباب المجون ودعاة الفسوق أشجع من دعاة الهدى ، وأن نجد الرذائل مؤيدة من أنصار لها ، وأن الخيرين من الناس لا يسلمون من ألسنة السفهاء وان كانوا من الطغام والسفلة ، وهى سنة الله قديما بين العلماء والجهلاء وبين دعاة الرشد وأهل الغواية . « وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم » :

مائدة عيسى عليه السلام

أ) « اذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟

ب) « قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين » .

(المائدة ١١٢)

الحواريون : هم الخاصة ، والصفوة الأوائل من أتباع المسيح عليه السلام ، وقد شهد القرآن لهم بما فيه الكفاية من تزكية لهم ، وثناء عليهم .

ومن ذلك قوله تعالى : « واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى . وبرسولى ، — يريد عيسى — قالوا : آمنا ، واشهد بأننا مسلمون » .

وبلغ من ثناء القرآن عليهم أن دعانا الى القدوة بهم فى صدق الايمان ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصارى الى الله ؟ ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله » .

ومع هذا الايمان المشهود به للحواريين تطلعت نفوسهم يوما الى شىء ظنه عيسى نزوعا منهم الى التمرد ، ووقف منهم موقف الرادع ، اذ فجأوه بقولهم له : « يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » فهاله سؤالهم ، وخشى عليهم مغبة السؤال ، وأن يكون هذا بادرة عناد ، أو مشغلة بالأمانى والطلب ، وحينـذاك عاجلهم بالرد غير متريث ، فقال : « اتقوا الله ان كنتم مؤمنين » .

يريد عيسى عليه السلام أن يرجع بهم الى الايمان المعهود فيهم ، ومن شأن الايمان أن يذود صاحبه عن سؤال جرىء كهذا عن قدرة الله على انزال مائدة من السماء ، فضلا عن كونه مطلبا لم تجربه العادة ، ولا هو من مسالك الرزق المألوفة ، بل هو أشبه بما كان يعهد اليه بنو اسرائيل فى طلبهم أن

يرزقوا من السماء بالمن والسلوى ، ثم لا يرضون بعد ، ولا يحمدون ولا يشكرون ، فكيف يتجه الحواريون الى المسئلة على هذا النحو المعيب من سواهم ؟ ؟ .

هذه مخاوف خطيرة يثيرها لدى عيسى طلب الحواريين انزال الخوان وعليه من الأطعمة ما يشاء الله .

ولكن الحواريين يلوذون بالايمان المعهود فيهم ، ويكشفون لعيسى عما يبتغونه حقا فيقولون له : « نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين » .

ولا شك أن فى المائدة تحقيقا لتلك الأغراض وزيادة ، فهم يفرحون بالأكل منها لأنها تحية لهم من عنــد الله ، وهم يطمئنــون بها على صدق ايمانهم ، وقبول رجائهم ، وهم يعلمون — علما أكيدا — من حصولها بطلب عيسى أنه صادق فى كل ما يدعيه وكل ما يدعوهم اليه ، وهم — رابعا — يكونون شهداء — لدى من لم يشهدها من القوم — على نزولها تلبية لعيسى فى دعوته ، وبشهادتهم تروج الدعوة ، وتنهض الحجة عند آخرين .

بهذا الايضاح تذهب الشبهة التى علقت بسوقفهم ، ويتبين لعيسى أنهم جادون فى الجراء ، وغير عابثين ، ولا مترددين .

وكثيرا ما يكون الايمان والرغبة فى المزيد منه سببا فى الشطط والامعان فى الطلب ، وخاصة اذا اقترن الايمان بشىء من السذاجة ، أو كان الحظ من العلم غير كثير بجانب اليقين الموفور ، وحينما ينبه المرء على شططه ويوجه الى الاحتشام فيما يلهج به : تراه ينيب الى الحق ، ويبادر الى تجلية قصده ، وبيان مأربه .

وهذا فرق ما بين المؤمن فيما ينشد من أمانيه ، والكافر فيما ينفث من عناده وتحديه .

فالمؤمن يترفق ، ويتلطف ، ويحتشم ، ويترضى ، والكافر يتبجح ، ويمعن فى التنكر ، ويتحول من عناد الى عناد .

وأنت تذكر من أمثلة الفريقين ما يحكيه القرآن عن ابراهيم عليه السلام اذ طلب من الله أن يريه كيف يحيى الموتى ، فلما نبه الى شططه فى السؤال قال : « ولكن ليطمئن قلبى » فاستجاب له ربه .

وتذكر أن الكافرين كانوا يطلبون الآيات ، فلما تحقق لهم يصدفون عنها ويستهينون بها « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها — واستيقنتها أنفسهم — ظلما وعلوا » .

وموقف الحواريين من طلبهم نزول المائدة موقف المؤمن المستزيد ، المتطلع الى جديد يستمد منه القوة لدينه ، والتثبيت لايمانه ، لا موقف المشاقة والتحدى ، لذلك استجاب المسيح لرغبتهم وتهيأ للدعاء بما اعتاد من طهارة ، ولباس ، واتخاذ موقفه الى القبلة بين يدى ربه ، وقال : « اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء ، تكون لنا عيدا : لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين » .

فهذه ضراعة مبرورة يتجه بها عيسى الى الله : اله الجميع ، ورب الجميع ، أن ينزل عليهم المائدة من السماء تكريما لهم ، ولتكون عيدا لهم ولمن يأتى بعدهم ، ولتكون آية بينة من عند الله على تأييده لرسوله المسيح ولمن يهتدى بهديه .

ثم يطلب الى جانب هذه المعانى المقصورة أن يرزقهم الله توفيقه وتوفيق من معه للحمد ويعينهم على الشكر .

والى هنا تمت الوسيلة وبقيت الغاية ، فماذا كان من ثمرات الدعاء ؟ ؟ قال الله : « انى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » .

فهذا وعد من الله بأنه منزل المائدة على عيسى وقومه ، غير أنه وعد مقرون بالشرط ، والشرط هو أن من كفر بالمائدة يعذبه الله عذابا لا يعذب بمثله أحدا من العالمين .

فاذا صدق الوعد بانزال المائدة فسيرتبط به لا محالة حصول الجزاء بحصول شرطه ، وخلاصة هذا أن المائدة التى وعدهم الله بها مشروط فيها عدم الكفر بها ، فاذا حصل بها كفر فسيعذبهم عذابا لا نظير له .

فهل نزلت المائدة وجرى فى شأنها حديث ؟ ؟

فريق من العلماء يأخـذون بظاهر الوعـد ويقررون نزولها ، ويصف بعضهم أطعمتها ، ويقولون : حصل من بعض القوم كفر بها ونزل بهم عذاب شديد ، وأرجح الأفهام التى نقلت فى ذلك أن الوعد مشروط بعدم الكفر .

ولما خشى القوم أن يهلك بعضهم بسبب كفره بالمائدة عدلوا عن مطلبهم وانصرفوا عن عيسى وعن التطلع منه الى تحقيقها فلم تنزل المائدة .

وليس فى هذا خلف للوعد من الله ، لأنه كان مشروطا بشرط لم يتعهد به القوم ولم يرضوه ، ويرجح هذا أنها لو نزلت لكانت عيدا مأثورا للخلف عن السلف كما طلب عيسى ، ولكن لم يعرف لدى أهل الكتاب شيء عن ذلك العيد .

ويكون مغزى هذه القصة الكريمة أن الله أقنع الحواريين بقدرته على انزال المائدة ، وأنه تعالى افترض عليهم نظير انزالها أن يؤمنوا بها تقديرا لها ، والا يكفر بها أحد .

وانهم لما عرفوا من شأن أنفسهم ومن شأن سواهم عدم القـدرة على تمام الوفاء عدلوا ، وأعفاهم الله من أثرها رحمة بهم وتجاوزا .

وبقيت القصة خالدة فى القرآن مظهرا لمنزلة الحواريين من التقرب الى الله ، وأمارة على قدرة الله فى خلق العجائب اذا اقتضـتها الحكمة ، ولم تعارضها حكمة ، وبقيت كمنة على قوم عيسى عليه السلام وتذكيرا لهم بما كانوا عليه من حق ومطاوعة ، وبما أصبحوا عليه فى دينهم ودنياهم .

والعبرة للجميع والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

الثقافة المدنية المدخولة
أشبه بالجاهلية الأولى

« الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » .
(الأنعام ١)

فى ظلمة الجاهلية الأولى كانت عقيدة الناس حائرة بين جهل وباطل وهدوء واضطراب ، وكانت أفهامهم سقيمة ، لا تكاد تميز بيت خبيث وطيب ، ولا ترجح خيرا على شر ، وأوضح ما كان من تلك الحيرة وهذا الاضطراب عقيدتهم فى ربهم الذى خلقهم وأفسح لهم دنياه ، وتولى أمرهم فيها ، وكشف لهم عن ألوهيته بآثار قدرته فيما يقع تحت أبصارهم من صنائعه فى هذا الوجود ، وبما يزخر به الكون من آيات بينات .. وكان للناس شىء من العذر فى عمايتهم عن تفقد هذه المعالم الواضحة ، فان للعقول نطاقا محدودا فى مداركها ، وفطنتها ، فضلا عن حرمانها يومذاك من مؤهلات علمية تفسح لها طريق الاهتداء بما يتكشف لها من معالم الكون .. ومع هذه الضآلة كان للناس اعتراف بالله ، وأنه خالق السموات والأرض ، وأنه ينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها .

ولم يبلغ الانحطاط فى الادراك ، أو التبجح فى الشقاق أن يتجاهلوا الربوبية اطلاقا ، كما جهلوا اليوم الآخر مثلا ، بل ساورتهم جهالتهم فاتخذوا أربابا متفرقة وعبدوا الأباطيل من أصنام ونحوها ، وزعموها تقربهم الى الله الذى آمنوا بأنه خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر .

فلما جاءتهم البينات من عند الله على ألسنة رسله ، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم تردد فيها ، أو تخلف عنها من غلبت عليهم شقوتهم ، وظلوا على شىء كثير من جهالتهم ومتابعتهم لما كان عليه آباؤهم ، وتشبث به كبراؤهم ، وهنا كانت وطأة القرآن عليهم شديدة ، ووخزاته فيهم أليمة ، اذ لم يعد لهم عذر فى جهل ما كانوا يجهلونه ، ولا فى التنكر لما جاءهم من عند الله .

وكان من مقارعة الكتاب الكريم لتلك القلوب المتحجرة أن يستنهضها الى تلبيته بمثل قوله تعالى : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » . وهذا وصف يقررونه وليس تلقينا لهم : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ؟ ليقولن : الله » .

ومع تقريرهم لهذا الوصف الحق كانوا ينصرفون عن توحيده فيتخذون آلهة أخرى ، تقربهم الى الله ، وهذا عدول عن الحق الذى يقتضيه اعترافهم ، وهى معادلة وتسوية بين الله الحق ، وما يزعمونه آلهة يتقربون اليها بالقرابين . وذلك اضطراب فى العقيدة ، وحيرة فى مجال الايمان .. فلما دعاهم ربهم الى توحيده ناقضوا أنفسهم وأشركوا مع الله غيره فى العبادة ، فسخر القرآن منهم ، وأخذها عليهم جريرة غير هينة ، وسجل الكفر عليهم فى قوله تعالى : « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » . وتلك معادلة ظالمة ، ومساواة غاشمة من عقول حمقاء منحرفة ، ولذلك حمد الله نفسه لعجز الناس عن الوفاء بحمده .

ثم سار القرآن فى توجيه الناس الى الحق سيرا حثيثا حكيما فتارة يذكرهم بدلائل ربوبيته ماثلة فى أشخاصهم : « هو الذى خلقكم من طين » أو يعتب عليهم فى رفق : « ثم أنتم تمترون » يعنى تتشككون وتتجادلون فى وحدانيته ، وتارة يقرع أسماعهم بلهجة العظمة ، وأسلوب الارهاب ليهز مشاعرهم الخامدة ، ويلوى رقابهم المتصلفة فيقول سبحانه وتعالى : « وهو الله فى السموات وفى الأرض ، يعلم سركم ، وجهركم ، ويعلم ما تكسبون » . يعنى : هو الله المعترف به وحده فى السموات وفى الأرض ، وهو المعبود فيهما وحده بالحق ، سواء : أبادرتم الى توحيده ، أم تخلفتم ولن ينقص من ألوهيته أن تضل عقول فى معرفته ، أو تتقطب وجوه فى استقبال دعوته ، والاستجابة لرسله . وهو بمقتضى ألوهيته قادر عليكم ، وعلمه محيط بكم : « يعلم سركم وجهركم » ولا يند عن علمه ما يغيب عنكم من شئون .

ثم يصارحهم بتهديد زاجر ، وتخويف مزعج فيقول سبحانه فى شأنهم « فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » فسوقف القرآن من المكذبين موقف الناصح فى دعوته ، يترفق تارة ، ويتشدد

أخرى ، ثم ينتهى بهم الى قول فصل ، ووعيد حق ، حتى لا تكون معذرة « فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » . فهنالك جزاء ينتظرهم فى موعد لن يخلفه الله مع خلقه .

وقصة القرآن مع أولئك هى قصته الجارية على من يشاكلهم فى التكذيب ويحاكيهم فى التمرد .. والقصص القرآنى كله للتذكير والتحذير لمن شاء أن يتذكر ويحذر .

واذ نحن اليوم فى غمرة الثقافة نرى نكسة خطيرة لاضطراب العقيدة ، نكسة جلبتها الثقافة المدخولة ، وهى شر من الجاهلية الأولى .

ولو تركت تلك الثقافة المدخولة ، تنفث سمومها فى الجيل الحاضر ، باسم العلم وحرية البحث ، وبدعوى أن مقاومتها تزمت ، وتخلف عن الركب اذا تركت تلك الثقافة تتغلغل فى الشباب الجامعى باسم التجديد ، وتتسرب الى البيوت والمصانع ، والمجتمعات فى ظل التسامح معها ، والتغاضى عن شرورها فانها لتهدم من بناء المجتمع أكثر مما يبنى العلم والتعليم ، وانها لتخدش من النظام الجماعى والاستقرار الأدبى أكثر مما يبذل فى دعم النظام وتوفير الاستقرار .

انها ثقافة تلبس ألوانا مخزية للعقول ، فهى تلهج مرة باسم الوجودية التى تنكر وتشكك فى وجود الله سبحانه ، ولم تنحط الجاهلية الأولى الى هذا الدرك من الاسفاف ، وانها تلهج مرة ثانية بالاباحية ، والتهوين من شأن الأخلاق عند من يلتزمون رعاية الأخلاق .

وانها لتجد مجالها فسيحا فى بعض المجلات والصحف ، وهى آمنة من سلطان يكبتها ويأخذها بجريرتها ، بل وهى آملة أن تجرف ما هنالك من حياء ، وما بقى من رعاية للتقاليد ، وما يدعو اليه الناصحون الغيورون .

انها ثقافة موسوسة علينا فى وطننا هذا ، لتنتزع من بيئتنا معانى الانسانية ، ولتدفع بنا فى تيار تأباه العروبة ، واذا استسلمت له فلن يدع لها سببا من أسباب الطموح ، ولن تجد فى صفوف الشباب من يحفظون للعروبة تراثها المجيد .

وبينما نرى مصر ناهضة فى وجه عدوها السياسى نهضة مشبوبة : نرى دعوة الاباحية ومفاتن الأهواء زاحفة فى غير تريث نحو البيئة المصرية زحفا يثير الغضب ، ويقتضى المبادرة الى صده فى غير هوادة ، وان لم يكن ذلك ، وبقيت دعوة الاباحيين على نشاطها فى وجه الغيورين على الأخلاق ، وعلى هذا الوطن ، وبقيت على نشاطها للكسب المادى من طريقها المشئومة فان الطمع فى رعاية الله لنا ضرب من الخيال ، وان الله آخذ بحقه منا ، وان الله لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض .

سلامة الأمة في تدينها

« ألم يروا : كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وارسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فاهلكناهم بذنوبهم » .
(الأنعام ٦)

ليس حديثا أن يقال : ان القرآن كتاب تربية جديدة ، وتقويم شامل ، لذلك كان منهجه فى الخطاب منهج التفاهم بالحجة ، والاقناع ، وأن يسلك بالعقول مسالك التوجيه الى ما يقع تحت الأبصار ، أولا يبعد عن المدارك .. ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام : « ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ؟ » .

ومعروف أن دعوة القرآن كانت موجهة أول أمرها الى أقوام عتاة ، يتحكم فيهم التقليد وتلهيهم الشواغل عن العبرة ، ويفهمون أن صلتهم بالزمن ستمتد بهم فى أمان من الأحداث . فكان من سياسة القرآن معهم أن يعرج بهم على الماضى ، ويضرب لهم من أمثال الغابرين ما يقع تحت أبصارهم أو ما لا يبعد عن مداركهم .

والعرب قوم يرتحلون ، ويشـــهدون من معالم الدنيا وآثار الأقدمين شيئا غير يسير ، فهم يعرفون من أنباء الأمم المحيطة بهم ما يكفى لايقاظ الوعى فيهم لو أرادوا .

ولكن لما عتو ، وتمادوا فى الاباء الغاشم جذبهم القرآن الى ناحيـة العبرة ، وذكرهم بتاريخ شاخص لمن بصر به ، ولوى رقابهم الى الوراء نحو الأحداث التى ألمت بمن كانوا أشد منهم بأسا ، وأكثر مالا ، وأعز جانبا ، ومع ذلك مادت بهم دنياهم ، وعصف بهم القضاء كما تعصف الريح بالهباء ، وأصبحوا فى حساب التاريخ عبرة لمن بعدهم .

وانظر تجد فى الخطاب خصائص جمة :

ففيه استفهام انكارى ينطوى على سخط وسخرية بأولئك المتصلفين الذين يتعامون عن رؤية ما يقع تحت بصرهم ، أو لا يبعد عن مداركهم لو تفطنوا قليلا .

وينطوى على اعتزاز الله بقوته الجبارة ، حيث أهلك قرونا سابقة كانت بالغة العتو ، وأشد بأسا من هؤلاء الذين يواجههم القرآن من جديد .

وينطوى على تحقير لهؤلاء بالنسبة لمن سبقوهم ، اذ كان للأولين تسكن فى الأرض أكثر مما لهؤلاء ، ولم تغن عنهم أموالهم ، ولا سلطانهم ، ولا قواهم وجبروتهم من الله شيئا .

ولزيادة الايضاح ذكر الكتاب الكريم جانبا مما كان عليه الغابرون من بسطة فى العيش لم تكن للمخاطبين من قريش ومن اليها .

فقال سبحانه : « وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم » . فالمطر مناط الحياة فى البقاع الحجازية وما فى حكمها ، وتعلق العرب بالمطر كتعلقهم بالحياة نفسها ، فاذا عرفوا أن المطر كان دائبا لا يتخلف عن أولئك الغابرين ، ولا تجحف بهم كثرته ، بل كان غامرا ، ومتاعا ، وخصبا ، وسعة فضفاضة فى الأرزاق والحضارة ، اذا عرفوا ذلك ، وتنبهوا الى أن حظهم من المطر وآثاره لم يبلغ ما بلغه أولئك . أدركوا ما بينهم وبين السالفين من فرق ، وعرفوا أن شأنهم فى الدنيا أهون من شأن السابقين ،

وكان عليهم أن يدركوا ما هم معرضون له كما تعرض له الأقوى منهم بسبب ذنوبهم ، وطغيانهم ، وأن الله أنشأ بعد اهلاك الأولين أمما أخرى سكنت ديارهم ، وورثت أوطانهم ، وعمروها من بعدهم ، وأصبح ذكرهم قصصا لغيرهم .

وبعد — فما كان القرآن ليترنم بهذا القصص دون هدف يرمى اليه فى اصلاح الناس ، والاقلاع بهم عن عماية البصائر وقسوة القلوب .

وما كان الاعراض عن خشية الله مهلكا لأمم سابقة دون أن يكون شأنهم شأنا لغيرهم ممن يحاكيهم فى بطرهم ، ويخطو على أثرهم فى المفاسد .

وأن سنة الله فى خلقه لا يقف دونها حائل من سلطان الأمم مهما بلغت من جبروت ، واذا كان من حكمته أن يترفق بهم ، وألا يعاجلهم بالهلاك ، فليس فى هذا أمان من أخذه كما أخذ القرى الظالمة من أهل القرون الأولى .

وقد عرف الناس من تاريخ الحياة قسطا غير محدود ، وعرفوا أن الدنيا أصبحت فى غير لونها الأول ، وأخذت فى نمو مطرد ، وفى سرعة خاطفة ، حتى تعودنا أن نطمع فى تجددها مطلع كل يوم جديد ، ونحن وكل من يدرك معنى الحياة نستبشر بهذا الرقى ، ونبتهج لانتعاش الحضارة ، ونود لو نعيش فى ظلالها حقبة طويلة .

ومع ذلك نرى استكمال الدنيا لمباهجها اقترابا من نهايتها « حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس » فالقرآن يحجزنا عن الغرور بتلك المظاهر ، مع حثه لنا على الجد فيها والمنافسة فى تعميرها ، وتدبر ما فيها من نعم ، والانتفاع بكل ما نصل اليه من أسرارها ونعمها مما أباح الله ، ولم يتعلق به حظر ، ولا تتصل به مفسدة .

وتحذير القرآن حماية لنا من الفتنة ، ومحافظة علينا من الغفلة ، فالقرآن يدفعنا دفعا الى الخير من جانبيه . جانب التمتع فى الحياة بما اشتملت عليه ، وجانب الصلة بالله ، وتحاشى ما يذهب بالنعمة ، والتحفظ لاستدامتها بترضية الله فيما دعانا اليه من نشاط روحى أو مادى .

وهذا ربط للدنيا بالدين فى أفق واسع ، وجهد متصل .

وفى ضوء ذلك تكون الحضارة الحديثة ، والمعارف ، والفنون ، وكل حركة ايجابية تأتى بنفع : تكون هذه كلها من وسائل الخير الذى يهدف اليه الدين ، ويعتبره مظهرا لفضل الله على عباده ، وتعميرا لدنياه التى وفر فيها كل أسباب التعمير ، واختار الانسان خليفة فيها ليتدبرها ، ويحسن استثمارها ، ويتمتع بها ويشكر المنعم علينا من أجلها .

وليس من الفهم للدين أن نفرضه عدوا للدنيا ، أو صارفا عنها بعد أن وضح لنا أنه يطهرها مما يشوبها ، ويرمى الى كمالها ، وحسن الاتجاه فيها .

ومن غير التوفيق أيضا أن يعتبر هذا النشـاط الدنيوى استئنافا لما ينطوى من الزمن ، وامتدادا للحياة فى سبيل الخلود ، فان طبيعة الدنيا أمام الأعين ، وفى المدارك ، وفى كل ما نحسه ، أو نفكر فيه يشهد بالفناء ، والدنو الى النهاية المحدودة فى علم الله ، فعجيب منا أن ننسى جانب العبرة ، وأن نتمادى فى التغاضى ، وأن تغمرنا مباهج الدنيا ، وننلدفع وراء الظواهر الفتانة التى تعرض ثم تنكمش بدورها وتصبح فى غير حساب البقاء .

ان المعالم الثابتة التى يستطيع الانسان أن يسير فى ضوئها ويستمد منها معارفه هى المشاهدات الكونية ؛ وهى الكتب السماويةالقويمة وملاكها القرآن الكريم .

وكم وددنا أن تجنح الأفهام الى التزود منه ، وألا تحتجب عن موارده وراء العصبية ، أو الجهالة أو الانهماك فى العيش .

ولكن أناسا يتجهون نحوه فيهديهم الله بهدايته ، وآخرين يصدفون عنه فيضـلهم بما كسبت أيديهم ، والقرآن فى ذاته مشرق دائما لـكل ذى بصيره

وصدق الله فى قوله : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

٣ من وسائل العلاج مع المتحيرين

« ولقد ارسلنا الى امم من قبلك فاخذناهم بالباساء والضراء ، لعلهم يتضرعون » .

(الأنعام ٤٢)

١ — من مفهوم الايمان ، ومما تتم به العقيدة أن دعوة الأنبياء فى كل عصر من عصورها كانت حقا وخيرا للأفراد وللأمم .

ومن بدائه المعرفة أن عقولا سابقة مستها نفحة من هداية الله ، فاستجابت للدعوة ، وأسلمت وجهها الى الله ، واطمأنت منها القلوب ، وعاشت فى ظلال الحق ، حتى لقيت ربها على وفاء بعهده ، وفوز برضوانه .

وكذلك من بدائه المعرفة أن عقولا أخرى — وهى الكثرة — تمكن منها الغباء والتعنت ، وجنحت الى كفر لو طلب منها أن تجترحه لكان نشاطها فيه دون النشاط الذى دفعها اليه جهلها ، وجمودها على تقاليد أسلافها ، وانقيادها لنزعات الشياطين .

وقد نفذ الله سنته فى المخالفين فأخذهم — بعد الامهال — بأنواع من عذابه يكون فى الدنيا جزاء لهم وعبرة لمن بعدهم ، عدا ما ينتظرهم فى الآخرة من الخلود فى عذاب أليم .

٢ — والآية التى معنا تفيد أن بعض المكذبين لرسلهم نزلت بهم الشدائد القاسية قبل أن يأخذهم الله بعذابه الماحق اذ ابتلاهم بالبأساء ، والضراء : تبصيرا لهم بسوء حالهم ، وتوجيها لهم نحو اتخاذ مسلك سوى مسلكهم الخاطىء الذى هم عليه — والبأساء : ضيق العيش ، وقلق الخاطر ، والحروب ، والمكاره ، التى لا يستطيعون العيش معها .

والضراء : علل وأمراض تبدد نشـــاطهم الدنيوى ، وتزيدهم نقصـــا جسمانيا فوق نقصهم المعيشى الذى أصبحوا فيه .

٣ — وكان مفروضا فيهم وقد تغيرت بهم الحال ، أن يلوذوا بالرجاء الى الله ليكشف عنهم ما هم فيه ، اذ الجدير بالعـــاقل أن يزدجر بالبلاء السيء ، وأن يتجه بالضراعة نحو من أنزله ، فهو القادر على تفريجه ، وتغيير الحال الى خير منه .

كان مفروضا أن ينبثق فى مداركهم وعى ، وأن يجيش فى أنفسهم أمل ، وأن يتداركوا أمرهم بالتقرب الى الله ، ويطمعوا فى تجاوزه عنهم ، ورعايته لهم .

والله تعالى يحب من عبـــده أن يكون دائما فى رحابه ، وتحت فيضه ورحماته ، وفى ملتمس هدايته ، ومن أجل ذلك كان من سنته تعالى أن يبين لنا الرشد من الغى ، ودعانا الى ناحية ، ونهانا عن أخرى وما جهلت أمة من الأمم أن هذه توجيهات الرسل ، ومقصد التشريع ، ولكن : لم يكن من تلك الأمم امتثال . ولم تأخذ بالرجاء ، بل أســـاءت أولا وأخيرا ، ولم تأخذ من شدائدها عبرة لحاضرها ، ومستقبلها ، .. والله تعالى يلومهم على ذلك أيضا ، كمـــا يلومهم على ســـابق تخلفهم ويقـــول فيهم : « فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ! ! » يعنى لم يتضرعوا اليه حين جاءهم بأسه ، وفى هذا تنديد بهم ، وتأسيف لهم على ما فوتوا : من فرصة الرجوع اليه .

وفى هذا اشعار للعباد بأن الله لم يغلق فى وجوههم بابه لو عادوا الى جانبه : سبحانه : ولكنهم أعرضوا عن جانبه ولم يتجهوا اليه كما هو الشأن فى كفار اشتدت بهم الضائقة ، وفيهم يقول تعالى : « ولكن : قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » ومع ما فى هذا من تشنيع عليهم ، وتنديم لهم ، ففيه العبرة لغيرهم ، وفيه تمهيد لسبيل الاهتداء ، وفيه تشخيص للعاقبة السيئة التى انحدر اليها أولئك ، بسبب تقصيرهم ، وسوء اختيارهم لأنفسهم ، حتى يتجنبها ذوو العقل ممن بعدهم .

٤ — وبعد هذا الموقف منهم ، ونسيانهم العظة مما حاق بهم ، رفه الله عنهم ثانيا ، وغمرهم بما كانوا يتمنون ، وليس هذا تكريما لهم ، ولكنه ، استدراج ، ومكر بهم ، واقامة للحجة عليهم ، وكشف عن خباياهم ، ليتبين لهم ما انطوت عليه طباعهم ، وليتبين للناس من بعد : أن الله لم يظلمهم فيما فعل بهم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم ، فأخذهم بذنوبهم تحقيقا لعدله فيهم .

وفى هذا يقول عز شأنه :

« فلما نسوا ما ذكروا به — من البأساء والضراء — فتحنا عليهم أبواب كل شيء — من الخير — حتى اذا فرحوا بما أوتوا ، أخذناهم بغتة ، فاذا هم مبلسون » أخذهم فجأة وهم فى أمان ، وأهلكهم وهم فى بسطة وسعة وسلطان « فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » وهكذا انتهى أمرهم لاعراضهم عن الحق بعد أن تبين لهم .

٥ — فان يكن فى شأن هذه الأمم شيء من عجب ، حيث لم يستقيموا على النعمة — أولا — ولا على العظة بالبأساء والضراء — ثانيا — ولا على تجدد النعمة والترف لهم — ثالثا ، ولم تكن فيهم صلاحية للحياة الدنيا ، حتى طهر الله منهم أرضه ، وقطع دابرهم منها : فان العجب لا يزال عالقا بالناس حتى اليوم ، لأن الشبه قائم فيهم اذ لا نقبل على الخير الا فى تكلف ، ولا نكف عن الشر الا مخافة الناس ، ورياء لهم .

وكأننا لا نثق فى توجيه الله ، فنحن خفاف الى المعصية ، ثقال عن الطاعة ، حتى اذا أصابنا المكروه وجدت فينا شبها بمن لم يردعهم المكروه ، وشبها بمن يدعون ربهم عندما يمسهم الضر ، فاذا كشف الضر عنهم نسوا ما كانوا فيه : وابتدءوا يحاربون الله من جديد .. يفهم الواحد منا أنه مسلم حقا ، فاذا استوعبت حاله وجدته فى غير ناحية الاسلام ، وبعيدا عنها بعدا يكاد يقطع صلته بدينه ، فالناس متجهون اتجاها مزعجا الى المادية وان كانت ملوثة بالمحارم ، والناس — الا قليلا منهم — مقاطعون لربهم ، لا يسجدون له ، ولا يدعونه ، ولا يخشون بأسه فى سر ، ولا جهر ، وأصبحت ترى نفسك فى مجتمع غير مطبوع بطابع الاسلام اللائق بالمسلمين وبمجدهم

الأول ، وقد أتعب المصلحون أنفسهم كثيرا فى الاحتفاظ بالشخصية الاسلامية : كريمة فى تقاليدها ، ومظاهرها وحياتها من كل ناحية .

ولكن الموجات الزاحفة تجد أنصارا كثيرين ممن لم تكن لهم نشأة فى أحضان الاسلام ، أو قريبا من ظلاله .

وهذه الموجات تعترض الغيورين ، وتكلفهم جهودا مضنية وتطيل عليهم السبيل .

ولولا أن الله — سبحانه — تفضل على محمد خاتم رسله — صلى الله عليه وسلم — بامهال الأمة التى بعث لدعوتها — وهم الناس جميعا منذ رسالته — لكان نصيبها من عدل الله فى معاملتها أشبه بنصيب من حدثنا عنهم القرآن الكريم ، وان لله قدرا لا يتخلف موعده ، وقضاء لا مرد له ، وهو ذو رحمة واسعة وذو عذاب أليم .

ونرجو أن يكون عملنا فى الدنيا مبرورا ، وعفو الله عنا شاملا ، حتى لا نتعثر بعد فيما نخشى من جزاء .

الخيرون أولى بالدعوة إلى الخير

ا) ((وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم، ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون)) .

ب) ((ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين)) .

(الأنعام ٥١ ، ٥٢)

ا) علمنا القرآن الكريم أن النفوس البشرية ليست فى وضع واحد أمام دعوة القرآن لها ، بل منها نفوس خيرة تستقبل الدعوة باستعداد حسن كامن فيها ، فيثير القرآن ما فيها من معانى الخير ، ويزيدها صلاحية ، ويجعلها مصداقا لتربيته حتى يكون ممثلا فى كل ما يصدر عنها من قول حسن ، أو عمل محمود .

ومنها نفوس غير خيرة ، يتجه اليها القرآن فتأبى الاصغاء اليه ، وتتمادى فى تأبيها وجمودها فلا يفيدها شيئا من صلاحية ، ولا يغير ما بها من فساد .

وقد ضرب الله للنوعين مثلا بأرض طيبة ، وأرض خبيثة : يخرج من الأولى نباتها باذن ربها فيعم نفعها من ثمار ، وأشجار ، وأزهار ، ولا يخرج من الثانية الا نبات نكد : من أشواك مؤذية ، أو طفيليات عديمة الجدوى ، مع أن كلا من النوعين من الأرض يسقى بماء واحد : غير أن تربة خصبة بارك الله فيها ، وأودع فيها الخير ، وفضل ثمارها على ثمار غيرها فى الأكل ، فى حين أن تربة أخرى خبث معدنها ، فكانت جدبة : تأكل ما يلقى فيها من بذور ، والخير منها معدوم ، لأن الله لم يأذن لها أن تكون ذات نفع للناس ، لحكمة اقتضت هذا التمايز بين بقاع الأرض .

« والبلد الطيب يخرج نبــاته باذن ربه ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا » .

وتشبيه القرآن للنفوس بأرض طيبة وأرض خبيثة تمثيل بالواقع الذى نحسه ولا نمارى فيه ، وليس أصدق من الواقع المشاهد دلالة على صــحة الدعوة ، وحسن التوجيه .

وكان من مقتضيات الحكمة ازاء هذا التبــاين الفطرى بين النفوس البشرية أن يؤثر الله أهل الخير بالدعوة دون الآخرين الذين لا تثمر فيهم الجهود ، وفى ذلك قوله سبحانه :

« وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ، ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون » . فان هذا توجيه للرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يجعل انذاره بالقرآن الى من عرفوا بالاستجابة لا بالعتو ، وعرفوا بالخوف من الله يوم يحشرون اليه ، دون أن يكون لهم ولى يدفع عنهم سلطان الله ، أو شفيع من جانبهم يعفيهم من عذاب ربهم ، فهؤلاء المؤمنون بالحشر ، والمعروفون بالخوف وبالايمان أن الله وحده هو صاحب الأمر فى خلقه ، وأن شفاعة الشفعاء لا تكون الا باذن منه فى شأن من رضى الله عنهم ، وترفق بهم فقبل الشفاعة فيهم : هؤلاء هم الذين تثمر فيهم الدعوة ، وتجديهم الموعظة فهم خيرون ، وهم أهل وأولى بالدعــوة الى الخير دون المستكبرين الأشرار ، وفى هذا أيضا قوله تعــالى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » . « فذكر ان نفعت الذكرى . سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى — الآية » .

وليس فى هذا التوجيه صرف للنبى عن تبليغ رسالته الى سواهم من الناس بل ، القصد من ذلك — أولا — تسلية الرسول على صبره فى شأن هؤلاء المتخلفين — وثانيا — التشنيع على هؤلاء الجامدين بأنهم انحرفوا عن سبيل الهداية انحرافا يبعدهم عن الأمل فى صلاح شأنهم ، حيث لم يوجد عندهم تصديق باليوم الآخر وبالحشر الى ربهم فى هذ اليوم ، وان كان فيهم من يقول باليوم الآخر فهو تصديق مشوب بالانكار — وثالثا — الاشادة

والتمجيد لأهل الطاعة المراقبين لله بأنهم على رجاء حق فى الله ، لأنهم الذين يعبدونه ، ويستغفرونه ، ويثابرون على الصلة به تعالى ، وفى توجيه الانذار بالقرآن الى المستجيبين رسم للمسلك الدنيوى الذى ينبغى أن نسلكه ، فلا نبذل الجهود فى موضع اليأس ، بل نبذلها حيث يكون الأمل فى النجاح ، ولا نسرف على أنفسنا فى المحاولات الضائعة .

واذا كان المنهج الدينى يتطلب بذل المجهود مع من يتوسم فيهم القبول والاهتداء ، فالمنهج الدنيوى يتابعه ويقاس عليه ، واذا سارت الدنيا وراء الدين فهى فى أمن من العثار ، فلنكن فى دنيانا على هدى الدين ان كان للعقول حكم يطاع ، ولم تكن للأهواء والشهوات سيطرة غالبة ، أو لم تكن للأنانية استبداد بالنفس ، وتحكم فى الاتجاه كما ابتلى بذلك كثير من الناس .

هذا وقد بلغ من الأنانية عند من تمردوا على القرآن ، وتخلفوا عن مطاوعته أن زعموا أنفسهم أرفع منزلة ممن اهتدوا وآمنوا ، وزعموا أيضا أن انتظامهم فى الاسلام يحط من شأنهم اذ هم سراة القوم ، وأصحاب النفوذ ، فكيف يجتمعون مع أناس مقربين الى الرسول ممن هم أرق حالا ، وأدنى منزلة منهم ؟ ؟

لذلك طلبوا من النبى — صلى الله عليه وسلم — أن يشارطهم على تخصيصهم بمجلس لا يكون فيه أولئك الفقراء ، فان أجيبوا الى مطلبهم هذا فهم كما يزعمون ، على استعداد للاسلام بعد ، وبدون هذا المطلب لا يتحقق منهم اسلام ، اذ لا يمكنهم أن يتساووا فى مجلس الرسول مع من دونهم عزة فى قومهم .

وفاتهم أن الاسلام يدعو أول ما يدعو الى المساواة ، والى التخلص من حمية الجاهلية ، وما كادوا يعلنون هذا حتى صدعهم الوحى الى النبى — صلى الله عليه وسلم — بقوله تعالى :

ب) « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء ، فتطردهم فتكون من الظالمين » .

وفى هـذه الآية كبت لنزعة الغرور عنـد أولئك المغرورين ، وقمع لجبروتهم وتحقير لشأنهم عند الله بجانب هؤلاء المسلمين الذين هم فى موضع الحب والرعاية من الله وان كانت دنياهم أضيق من دنيا أولئك المتصلفين .

ينهى الله نبيه عن مطاوعة الكافرين فى طرد المسلمين عن مجلسه حين يوجد فيه هؤلاء المتكبرون ، ويشعرهم الله بهذا أنه غنى عن اسلامهم ، وأنه بفضل أولئك المتواضعين ، لأمور يرجح بها ميزانهم على كل ما يتمدح به المفتونون ، يفضل الله السابقين الى الاسلام المتصلين بمجلس الرسول بما يأتى :

أولا — أنهم يدعون ربهم ، ويعبدونه بكرة وعشيا ، وهذا عبارة عن حرصهم على صلتهم بالله دائما ، والتعبير بالغداة والعشى يراد منه المداومة بقدر ما يستطيعون على مراقبة الله فى كل ما يصدر منهم .

ثانيا : انهم فى تدينهم مخلصون لله ، لا يريدون غير مرضاته ، لا رياء ، ولا ملق ولا شائبة تنقص من اخلاصهم ، وهذا معنى : « يريدون وجهه » وواضح أن من يريد وجه الله هو من تمحضت سريرته لحب الله واجلاله ، والطمع فى الفوز عنده ، وهذه خاصية لمن كانوا يجالسون الرسول ، ويزدريهم الكفار .

ثالثا : ان مرجع هؤلاء الجلساء فى عملهم واخلاصهم ، وحسابهم الى الله وحده ، فلن يكون الرسول مسئول عن مآخذهم التى يحاسبهم عليها ربهم ان كانت لهم مآخذ ، ولم يكونوا مسئولين كذلك عما يعتبر من عمل الرسول والعلاقة التى تربطهم بالرسول علاقة دعوة من جانبه ، وطاعة ومحبة واخلاص من جانبهم ، وما داموا أولياء لله ولرسوله فهم أهل لرعاية الله ومحبته ، وهم الجديرون بأن يكونوا حزب الله ، فكيف يسمع فيهم قول الكافرين ؟ ؟ وكيف يطردون من مجلس الرسول وهم السابقون اليه فى لهفة ، وتضحية ، ودأب ؟ ؟

ان طردهم من أجل فئة خاطئة يعتبر ظلمـا ، وليس الظلم من نزعات الرسول .

وقد نبه الله رسوله — صلى الله عليه وسلم — على أن طماعية الكفار فى هذا تعتبر طماعية منهم فى اقتياد محمد الى الظلم الذى يأباه محمد ، ويأباه الله ، وحرمه على عباده جميعا .

وان سبق هؤلاء المستضعفين الى الاســلام يعتبر ابتلاء واختبارا لمن زعموا أنفسهم خيرا منهم ، فلو كانت نظرتهم الى دعوة محمد نظرة رشيدة لسارعوا اليها كما سارع اليها الآخرون ، ولكنها نظرة حمقاء ، هيأت لهمأن الاسلام ليس خيرا ، ولو كان خيرا حقا لما فاتهم شيء منه ، فاذا كانت لهم الثروة والسيادة فكذلك يكون لهم الاسلام دون أولئــك الفقراء ، وكانوا يرددون قولهم : « لو كان خيرا ما سبقونا اليه » يريدون : لو كان الاسلام خيرا لاختاره الله لنا ، لتفضيلنا على الناس بما فضلنا به من متاع الدنيا .

والله تعالى يكشف عن خطئهم فيما يزعمون ، ويقول : « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ، ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » . نعم فتنهم ربهم ، بسبب ضلالهم وقالوا ما قالوا : والله يرد عليهم بقوله سبحانه : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » . نعم هو أعلم بمن اهتدى ، وأعلم بمن شكر ربه ، وقد اهتدى أولئك الجلساء السابقون ، وشكروا ، فالله تعالى يعزهم بعزته ويرفع شأنهم على غيرهم ، ويسجل لهم مقاما محمودا بين خلقه ، ويلعم الرسول كيف يكرمهم ويكرم أمثالهم ، وكيف يستقبلهم حين يقدمون عليه فيقول له : « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة : أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم » .

يا محمد ! ! تحية هؤلاء المسلمين وكل من جاءك مؤمنا بآيات القرآن ، وآيات الله فى الأنفس وفى آفاق الكون أن تبلغهم تحية الله لهم ، بقولك سلام عليكم ، وفى ضمن هذه التحية اخبار عن الله تعالى بسلامتهم وأمنهم من عقابه .

وبلغهم يا محمد مع التحية بشرى من الله — بأنه كتب على نفسه الرحمة بعباده ، وبأن من عمل سوءا ثم تاب من بعده وأصلح فان الله غفور رحيم .

وهذا وعد كريم من جانب الله بأن التوبة ، عن عمل السوء الذى يرتكبه صاحبه وهو متلبس بالجهالة ، اذا كان جاهلا حقا ، أو متلبسا بها حكما ، لأن الشأن فى عمل السوء أن يكون من الجاهل تقديرا ، وان كان فى نفسه غير جاهل .

فهذا وصف لبيان الحال فيمن يرتكب السوء ، وليس وصفا مشروطا فيمن تقبل توبته بل التوبة الخالصة مقبولة عند الله تفضلا منه على عباده . فهى تجعل المذنب التائب حقا كمن لا ذنب له ، والله واسع المغفرة لمن أناب اليه .

وبعد — فان انصراف أهل اليسار وأصحاب النفوذ ونحوهم ممن شغلتهم حياتهم عن جانب الدين نزعة غاشمة ، نراها سارية حتى اليوم فيمن يرون أنفسهم أوسع حظا من سواهم . فلا يرون الجنوح الى الدين متمشيا مع شموخهم ولا يطيب لهم أن يساوى الدين بينهم وبين من هم أضيق عيشا منهم ، أو أقل جاها وصيتا بين الناس . بل يرى أولئك المفتونون — حتى اليوم — أن تدين الغير انما هو العجز عن بلوغهم مبلغ السادة ، وأنهم يتخذون من الدين ستارا لضآلة شأنهم .

وأنت ترى هذه النزعة ناشية حتى فى كثرة من الخاصة المثقفة الواعية . والحق أن هؤلاء فى غفلة عن الحق . وأنهم مع امتيازهم بالثقافة والمدنية أشبه بالسوقة التى لا تدرك غير سعيها لتعيش ، فقد حجب هؤلاء عن المعرفة ، وعن جانب الدين اطلاقا نشأتهم فى أدنى الحرف . وقصورهم عن التطلع الى غير هذا الحد . حتى كأن الدنيا عندهم ليس بها سوى ما يعملون ليعيشوا .

كذلك المترفون فى النعمة ، ومن صبغتهم التقاليد والثقافة المدنية الناقصة . أولئك يطرحون الدين جانبا . وينسون ما فى هذه الغفلة من جفاء به وانكار لما استحقه عليهم من شكر . وفى هذا غرس لروح التمرد عند أطفالهم . وفى أسرهم ؛ ومهما غمرتهم النعمة ؛ وطال بهم الزمن ؛ فان الله لا تضره معصيتهم ؛ ولا تنفعه طاعتهم . وانما هم الفقراء الى ربهم وقد حاربوه بنعمه ؛ وتمردوا عليه . وهو القاهر فوق عباده . والقادر على هلاكهم وتجريدهم من نعمهم . وستواجههم مواقف عسيرة حاسمة ؛ وقد سبق أمر الله فى أمم خلت ، وسيكون الوعيد لمن خلف « فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون » .

الناس في دينهم طبقات
والقرآن يخاطب كل طبقة
بما يلائمها ..

« واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة : أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم » .

(الأنعام ٥٤)

عود على بدء :

١ — سياسة القرآن تتجه الى الناس اتجاها واحدا فى دعوتهم جميعا الى الخير ، وصرفهم جميعا عن ملابسة الشر ، وتتجه اليهم اتجاها متفاوتا فى تقدير منازلهم ، وتخاطب كل طبقة بما يلائمها .. فأهل الايمان والامتثال لهم حظوة عند الله ، ولهم من القرآن خطاب كريم ، وأسلوب رحيم .. وأهل العصيان عليهم سخط من الله ، ولهم من القرآن خطاب غير كريم ، وأسلوب غير رحيم .

٢ — واذ كانت غاية الاسلام تهذيب أخلاق الناس ، واصلاح شأنهم عامة : وجب فى حكمة الله أن تكون دعوتهم الى الخير على غرار واحد .

واذ كان الناس فى اقبالهم على دعوة الاسلام أتباعا لميولهم ، وشيعا فى اختيارهم وجب كذلك فى حكمة الله أن يتلطف القرآن فى قصصه وبيانه عن الفريق الايجابى وأن يقسو فى هجوه وزرايته بشأن الفريق السلبى .

وهذا وضع حكيم ، وتمييز عادل بين من جنحوا الى اليمين ، ومن انحازوا الى الشمال .

٣ — وانها لسنة الله لنا فى المجتمع ، نقتدى بها فى معاملة من يسالمنا فى صفاء ، ويصادقنا على الحق ، ومع من يخاصمنا فى عنت ، ويناهض الحق بالباطل ، فما ينبغى أن يسوى بين المحسن والمسىء .

٤ — هذا قبس نستمده من حديث القرآن مع محمد — صلى الله عليه وسلم — مرة فى جانب المستجيبين للدعوة ، ومرة أخرى فى شأن المناوئين لها .

ففى جانب الأولين يعلم الله نبيه كيف يتلقاهم اذا وفدوا عليه ، وكيف يشعرهم بما أحرزوا عند ربهم ، ويقول له فى ذلك : « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم » .

فهؤلاء نخبة من القوم هداهم الله الى صراطه المستقيم ، فتحامل عليهم كفار قومهم ، وحاولوا أن يبعدهم النبى عن مجلسه ، ولكن الله انتصر لهم ، وعلم نبيه أن يستقبلهم بتبليغهم سلام الله اليهم ، وأن يبشرهم بأن الله كتب على نفسه الرحمة ، وأن يفسر لهم هذه الرحمة بأن من عمل منهم سوءا — بجهالة — ثم تاب من بعد عمله ، وأصلح فيما بقى من حياته « فان الله غفور رحيم » وبهذه البشرى يطمئنون على أنفسهم مما كانوا يخافونه ، ويبتهجون بالوعد الكريم ، ويفرحون بأن لهم عند ربهم تلك المكانة المرضية التى لم يظفر بها من يعاديهم .

وهذا وعد الله لكل تائب من ذنبه اذا أصلح عمله بعد توبته ولم يكن متلاعبا فيها .

وعمل الذنب تمحوه التوبة مطلقا : سواء أكان عن جهالة بالحكم ، أم عن علم به ، ما دام المذنب لا يأتيه مستحلا له ، ومستبيحا لمحارم الله ودائبا على ذلك ، فان هذا كفر لا يمحوه غير الايمان من جديد .

وذكر الجهالة — فى قوله تعالى : « من عمل منكم سوءا بجهالة » — ليس شرطا فى قبول التوبة بل ذكر لبيان الشأن فى المذنب ، أعنى أن القصد من ذكر التنبيه على أن عمل السوء من شأنه ألا يكون الا عن جهالة ثابتة ، أو جهالة اعتبارية ممن لا يذوده علمه عن مقارفة الذنب ، فيكون جاهلا حكما ، والعلم الذى لا يكف صاحبه عن التورط فى عمل السوء هو والجهل سواء . أو الجهل أخف منه شأنا .

وهذا توجيه حميد الى أنه لا ينبغى لعالم بالحكم الدينى أن يتشبه بالجاهل فى عمل السوء ، فان ذلك التشبه نزول عن مكانة كريمة ذو العلم : الى مكانة وضيعة يهبط اليها الجاهل بسبب جهله .

والى هنا يتضح تكريم الله سبحانه للمستجيبين ، ورعايته لهم بتمييزهم عنى من عداهم .

٥ — أما الفريق السلبى فان القرآن يقسو عليهم ، ويحط من شأنهم ، ويلقن النبى — صلى الله عليه وسلم — كيف يشعرهم بهوان منزلتهم . ويسخر من عقولهم ، وينفر من مطاوعتهم فيما يقترحون عليه .

وهنا أربعة أوامر صريحة ، يتلقاها النبى — صلى الله عليه وسلم — فى نسق واحد ، وفى كل أمر منها تقريع ، وتهكم ، ومهانة لأولئك الراغبين عن هداية الله .

الأمر الأول : « قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله » : وهذا قطع لأملهم فى مطاوعة النبى لهم وعبادته لآلهتهم التى أشركوا بها مع الله

الأمر الثانى : « قل لا أتبع أهواءكم » وفى هذا ترفع من النبى عليه السلام عن متابعته هداهم ، وفيه تسجيل عليهم أنهم على غير بصيرة ، وأنهم يخوضون فى باطل .

ثم يزيدهم تجريحا بقوله : « قد ضللت اذن ، وما أنا من المهتدين » يعنى أن مطاوعتكم ضلال ، فلا آخذ بسأخذكم حتى لا أكون مثلكم من غير المهتدين .

الأمر الثالث : « قل انى على بينة من ربى ، وكذبتم به » يعنى قل يا محمد : لست صاحب فكرة شخصية أدعوكم اليها كما تدعوننى ، ولست مخترع دين كما تخترعون ، بل أنا على حجة بينة من عند ربى . وهى القرآن الذى أنزله الله ولم يجعل له عوجا وأنتم تكذبون به .

وما دمت أنا وأنتم على طرفى نقيض من الأمر فلكم دينكم ولى دينى .

الأمر الرابع : « قل : لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم » يعنى : تطلبون منى أن آتيكم بعــذاب عاجل ، أثبت به صدق دعوتى ، وتستعجلون الوعيد الذى أهددكم به من عند الله كما تحقق وعيد الرسل من قبلى لأمم سابقة ، ولكن الله الذى أخذ كلا منهم بذنبه لم يشأ أن يعاجلكم بالهلاك، ولم يجعل الأمر الى اختيارى ، ولا من تصرفى ؛ ولو كان فى مقدورى لأنفذته فيكم تصديقا لوعيد الله ، وتخلصــا من معارضــتكم لدينه ؛ وبهذا ينتهى الأمر بينى وبينكم ، ولكن الامهال لا يغركم . ولا يخلف الوعيد فيكم . فان هذا الى أجل مسمى عند الله « والله أعلم بالظالمين ، فلن يفلت واحد من وعيده ؛ وان هذا لقول فصل . وما هو بالهزل . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

وبعد : فهذا موطن من مواطن العبرة . يســاق فيه القصص الحق . ويتناول جانب العقيدة . والعمل . والخلق ؛ وهو منهج القرآن فى تهذيب البشر ؛ والاتجاه بهم الى أكرم وضع انســانى يجعل الناس على مودة مع ربهم . وعلى اخاء فيما بينهم . ويكفل لكل فرد أن يكون فى نفسه راضيا . وأن يكون آخذا بنصيبه فى حدود العدل ، وقائما بواجبه فى ظل الوفاء والاخلاص .

ولو أن الناس أرهفوا أسماعهم للقرآن كما ينبغى لطربت له نفوسهم ؛ ووجدوا الخير كله فى آياته . ولأدركوا أن القرآن خير تحفة تبتهج لها القلوب ؛ ولأصبحت دعوة النصحاء محببة الى كل ذى وعى .

ولكن الناس استسلموا للهو الحياة ؛ وتهافتوا على مباهجها فى غير اتزان . فثقلت عليهم كلمة التقوى ؛ ونبذوا كل موعظة . حتى أصــبح من العسير على ذوى الألباب أن يميزوا بين المسلم وغير المسلم من رجال ونساء ؛ اذ أصبحت المجاهرة بالتبجح شعارا سائدا ؛ ولم تعد الغيرة ذات سلطان على الرجل ولا الاحتشام حلية للمرأة فى أوساط كالذئاب ، وخيل الى كثير من الغافلين وذوى الميوعة أن الدين والتدين من خصائص قوم دون آخرين وهؤلاء يعيشون فى جو عابث ؛ ولا صلة لهم بدين ينتسبون اليه ، وهذا

وهن عقلى ، ووباء خلقى تفشى فى موجة التقاليد الزائفة التى ابتلينا بها ، وروجت لها الدعاية اللا دينية من أناس حملوا الأقلام الطائشة ، واستخدمتهم بالنقود جهات معادية للاسلام .

ومهما يكن من تصـــدع الجانب الدينى عند أناس ، أو فى هيئـــات : فستظل دعوة القرآن فى قوتها ، ومثابرتها على قرع الأســـماع ، ومقاومة الباطل ، وهداية الناس الى باب التوبة ، وباب التوبة مفتوح أمام ابن آدم ما دامت فيه روح .. والله يهدينا ويجعلنا من التوابين .

عبرة منسية
نحن بين وفاة كل ليلة وبعث كل يوم

« وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى »

الآية – ٦٠ – الأنعام

حياتنا قضية زمنية تتشابه معالمها ، ويتكرر عرضها ، ويحسها الآدمى ، وتجرى على كل كائن حى .. وهى ناطقة بالعبرة ، وزاخـرة بالتوجيهات ، والانسان أقدر على فهمها ، وأعرف بمفهومها ، ولكنه سادر فى الغفلة ، وتائه فى أفق ضيق من حياته الشخصية ، ولا يفيق من غفلته الا بعد الفصـل فى القضية ، ولا يتبصر فى موقفه الا بعد انتهاء العرض وانطواء الصفحة ... فما ذا هو مدرك بعد ذلك غير ما وعى من مشاهد القضية ؟ وماذا هو مستحق سوى ما أحرز لنفسه من مغانم روحية يهتدى بها ، ويعيش فى ضوئها انسانا عاقلا ، وساعيا خيرا ، وعاملا ناجحا : يتخطى دنياه التى تنطوى به بين ليل ونهار ، ووفاة وبعث متجددين ، الى موت طويل ، ثم بعث دائم ، وحياة خالدة ؟ .

هـذه حياتنا الدنيا نبدؤهانهارا فى جهـاد ودأب ، وذهاب وجيئة ومنافسـة وتزاحم ، وكسب وخسران ، تنتهى بنا الى ليـل ، تقضيه فى استجمام ، وننفض على جوانبه متاعب اليوم ، ثم ننهض صباحا الى ما بدأنا ، وتنتهى مساء الى مثل ما انتهينا .

وقد تمر بنا الذكريات ، وتطوف بأخيلتنا العبر ، ولكنه تنبه مؤقت أشبه بالخاطر السانح ، لا يكاد يعرض حتى ينقشع ويزول .

والله تعالى يحدثنا فى هذا الشأن حديثا واقعيـا ، لا تلاحقه الريبة ، وينبهنا الى أمر نحسه ، ولا يتسع لجدل ، فيقول سبحانه : (ا) « وهو الذى يتوفاكم بالليل » (ب) « ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه » .

ومعنى هذا أن الله يتوفى خلقه بالليل . ثم يبعثهم في النهار ، وهو عالم بما يعملون من خير وشر .. ولكن عبارة القرآن ذكرت البعث في النهار بعد ذكر العلم بما نعمله نهارا ، على خلاف ترتيب المعنى الذى بينته ؛ وليس فى ذلك مخالفة ؛ وانما هو سياق فى التقديم والتأخير ، تأذن به لغة العرب . ويختاره القرآن كثيرا لحكمة ربط الكلام بما بعده مثلا كما هنا .

وذكر الوفاة بالليل مقصود به النوم . اذ الوفاة عند العرب على الموت تطلق على النوم . والله تعالى يتوفى أرواح الناس بالنوم بمعنى يقبضها قبضا يمنعها من التصرف فى الأجسام . واذا كان النوم يحصل نهارا كما يحصل فى الليل ، فالمقصود عموم الوفاة ليلا أو نهارا ؛ وفى تخصيص الليل به مراعاة لشأن الليل . وما هو غالب وشائع فيه . كما أن الشأن والغالب فى النهار أن يكون العمل واكتساب الخير والشر . وان كان ذلك يحصل ليلا أيضا .

ويذكر الله تعالى : أنه يعلم ما تأتى جوارحنا من أعمال أثناء النهار ، وذلك أيضا متابعة للغالب فى أعمالنا . والله سبحانه عليم بما نجترحه ليلا كما يعلم ما فى النهار .

وكثير من الناس يظن أن التعبير بالوفاة لا يكون الا فى الموت . وأن البعث لا يكون الا بعد الموت . ولكن لغة العرب أوسع من ذلك فهم يذكرون الوفاة فى النوم وفى الموت ، ويذكرون البعث فى اليقظة بعد النوم وفى الحياة الآخرة بعد الوفاة .

وخلاصة هذا أن الله يتوفى الأنفس حين النوم ويتوفاها أخيرا بالموت .

وأنه يرسل الأنفس النائمة من وفاتها هذه . لتستأنف جهادها فى الحياة ليالى وأياما بين وفاة ويقظة ، حتى ينتهى ما قدر لها من زمن تعيشه . ثم يمسكها بالوفاة الأخيرة بعد الأجل المسمى — « الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها . فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى » .

ويبدو من ذكر القرآن للوفاة ليلا والبعث نهارا ، أن القصد تنبيه الناس من غفلتهم ، واقناعهم بأن الوفاة والبعث واقعان دائما . بنومهم ويقظتهم ، وأن ما وراء الوفاة والبعث أخيرا حساب لا شك فيه ، وجزاء لا مفر منه ، فاما نعيم . واما عذاب أليم . فليس للناس أن يغفلوا ما هو جار عليهم . أو يتجاهلوا ما هو على مقربة منهم . وهم — مهما عتوا — في سبيلهم الى تلك النهاية . بعد غدوات معدودة . وعشيات محدودة .

وأمر خطير كهذا . بل هو أخطر الأمور المقدورة على الناس يقتضى في حكمة الله أن يكون التذكير به دائما للناس في نومهم ويقظتهم . ومصداق هذا قوله سبحانه : « ثم اليه مرجعكم . ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » .

ونأتي الآية الثانية . فتشعر الناس أن الله قاهر لهم . وقادر عليهم . وأن سلطانه فوق سلطانهم المزعوم ، وهو القاهر فوق عباده ، ومن مظاهر قهره وغلبته . ومن أمارات رحمته أنه يرسل عليهم حفظة من ملائكته يراقبونهم ويحصون عليهم أعمالهم ويكتبونها في صحف ينشرونها يوم القيامة . كما أن معهم ملائكة يتولون المحافظة على الناس من أحداث مقدرة على غيرهم . ففلان من الناس يصادفه شيء مقدور عليه دون فلان . فالملائكة يحفظون الآخر مما جرى على غيره . كما يحافظون على الناس من أضرار الجن والشياطين الى آخر ما يعلمه الله ، وعلى الوجه الذى تجرى به حكمته في خلقه ؛ ولم يكلفنا باستيعابه أو فحصه فحسبنا الايمان بما أخبرنا .

وواضح أن علم الانسان بوجود الملائكة . وأن لهم هيمنة على أعماله . وتوجيها له نحو الخير ؛ يشجعه على الترفق بنفسه . والاعتدال في مسلكه ؛ ترضية لله ولملائكته . كما يستفاد ذلك من قوله تعالى : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا . ولا تحزنوا . وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » .

بخلاف ما اذا كان العبد موكولا الى نفسه . دون مراقبة من الملائكة . فانه يكون مهملا ومتروكا لهواه . وشيطانه . وتكون حياته سدى ، أشبه بحياة الحيوان الضال يسير على غير هدى . ولا يدرك لعيشه مغزى ولا غاية .

ولكن الله تعالى كرم الانسان فرفعه فوق هذه المنزلة ، ووصل حياته بنظامه الحكيم ، فجعلنا تحت مراقبة الملائكة ، وأعد لنا حسابا على ما قدمنا ، وسيجد الناس صحائفهم منشرة بين أيديهم فى موقف الحساب أمام ربهم ، وسيبدو لهم أن الله أحاط بكل شيء علما ، وأنه سيقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم ، وصدق الله فيما ختم به الآية « ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين

وبعد — فما أجدر العقول أن تتنبه ، والقلوب أن تتعظ ، وما أجدر المسلم أن يبصر أخاه بما ينبهه من غفلته ، وأن يعاونه على كل خير ، اذ المسلم أمانة فى عهدة أخيه ، ينصحه بما ينصح به نفسه ، ويحجزه عن الغواية — وان لم يفعل ذلك امرؤ وهو قادر عليه فليس حفيظا على أمانة الأخوة ، والنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « ولا دين لمن لا أمانة له » والله يعصمنا من الزلل ويرشدنا الى صالح العمل .

مجالسة الآثمين نقيصة دينية .. وجريمة خلقية

« واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » .

(الأنعام ٦٨)

مجالسة المرء لغيره متعة وغنيمة ، أو مأساة وجريمة ، وأمر ذلك بيقظة الضمير وغفلته ، ونباهة الحس وبلادته ، ومجرى الحديث وشجونه .

والكثير من أحاديث الناس فى مجالسهم يكون مرسلا ، وحريتهم فى القول تصيد الخواطر السانحة ، واللسان يرمى بكل ما توحى به الفكرة يمينا وشمالا ، وعاما وخاصا ، وجدا وهزلا .

والدين لم يحظر على الناس أن يتسامروا ، ولم ينكر عليهم أن يتبسطوا بل اعتبر المحادثة من أسباب المودة ؛ ووسائل التعارف ، ولم يرض أن يتنكر الجليس لجليسه بالصمت ، أو يتمادى فى التجاهل ، كما نشهد فى مجالس كثيرة وفى أسفار طويلة من بعض الأشخاص الذين يأخذون بتقليد الفرنجة ، أو الذين يزعمون أن فى الصمت عن محادثة الجليس لونا من العظمة .. وهى عظمة جافة ، ومروءة ناضبة .

اذ هى نوع من المقاطعة ... والاسلام يشرع ما يشرع من المحادثة بين الجليس وجليسه — اذا لم يكن مانع — ليسد الفراغ بين المرء وأخيه ، وليدفع وحشة المجلس عن نفس كل منهما .

وهذه سياسة اجتماعية ينشرها الاسلام بين الأفراد ، لتمتد الى صفوف المجتمع كله ، فتصبح ثمرتها فى المجموع وحدة لا فرقة ، وتعاطفا لا قسوة .

غير أن الاسلام مع دعوته الى التودد بكل وسيلة ، يحرص على مجالسنا من الشوائب ، وينهض بنا فى الاجتماع الى المستوى الكريم . فيصرفنا عن المهاترات فى الحديث ، ويطلب الى كل منا أن يقول خيرا أو يصمت ، ويكفنا عن التعرض للغو الكلام ، حتى لا يفحش الانسان فى حديثه ، ولا يأخذ فيما لا فائدة فيه ، ويكفنا عن هذا كله فى قوة . فيشبه الجليس الصالح الذى يمسك عن لغو الحديث بحامل المسك اذ يستفيد المرء منه أيسا فائدة ، ويشبه الجليس السوء بحداد ينفخ كير الفحم فيحترق جليسه ، أو يتأذى بريحه على الأقل ، وهذا تصوير قوى الدلالة . واضح التوجيه .

فاذا كان حديث الجلساء فى جانب الدين وجب أن تكون الحيطة أشد ، والأدب أكمل ، حتى لا يكون الحديث وبالا على صاحبه ، وعلى سامعه .

وواضح أن الانحراف فى السمر العادى اثم أو نقيصة ، فاذا كان خوضا فى الآيات ، ومساسا لها بالباطل ، أو كان قدحا فى تشريع صحيح فان ذلك جرأة شائنة ونتيجتها تنصل من الدين ، وتسرد على حرماته . وعلى من بلغ آياته — صلى الله عليه وسلم .

وكثيرا ما نجد فى البيئة الحاضرة . ومن أهل الثقافة المعاصرة ، من يزجون بأنفسهم فى هذا التورط : لا مستفهمين عن حكم . ولا مستفسرين عن آية . بل تدفعهم فلسفة غاشمة الى حرية جامحة فيتنافشون فى غير ما نهيئوا له . ويتحكسون فى غير ما يفهمون . ويحسبون الدين ونصوصه وأحكامه كلأ يرتع فيه الأعرج والصحيح . ويفوتهم أن هذا عدوان على التشريع ، وأنه مسلك أهل الجاهلية الأولى : الذين تحكست فيهم عنجهية فصاروا يخوضون فى الآيات بدلا من مطاوعتها : ويهبطون فى الكفر مهابط أخرى . وطالما هتف بهم القرآن لينتشلهم منها وهم لا يسمعون .

والجميل أن القرآن يترفق بهم ، فلا ينهى الرسول عن التعرف بهم . بل يطلب اليه أن يبتعد عنهم حين خوضعهم فى الآيات . ومساسهم بجلالها .. فاذا

ما أخذوا فى حديث آخر غير باطل فلا حرج على النبى أن يجالسهم ، حتى تظل فرصة الهداية بهدى النبى صلى الله عليه وسلم سانحة لهم ، وهذا رفق نتوه لم يترفقوا بأنفسهم .

وذلك قوله تعالى : « واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » .

هذا الخطاب للنبى — صلوات الله عليه — وتعليم لأمته ؟ ؟ فهو تشريع لكل مسلم يصادفه هذا الشأن ؟ ؟ !

وفى الآية اشكال يثير الاهتمام .. ففيها « واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » وكيف ينسى النبى بسبب الشيطان أمرا مكلفا به ؟ ؟ مع أن الله قال : فى الشيطان ، « انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » والنسيان من عمل الشيطان كما ذكرت الآية . فهل يكون له سلطان على الرسول ؟!

والجواب عند علماء التفسير أن الخطاب مقصود به غير النبى ، فالنسيان واقع من الشيطان لا محالة بالنسبة لغيره ، وجواب آخر : أن النسيان لا يعتبر سلطانا للشيطان . بل السلطان أن يدفع المرء بوساوسه وتأثيره الى ارتكاب محرم . أما مجرد الترك لتنفيذ شيء أمر به فلا يسمى سلطانا ، مع أن الله يتدارك نبيه عاجلا بالتذكير لما نسى فلا غضاضة فيه . وهذا كله مفروض فى غير ما أمر بتبليغه . فانه لا ينسى أبدا .

وربما كان النسيان فى غير التبليغ لحكمة : هى بيان الحكم الشرعى فى الحادثة التى كان فيها النسيان .

وحسبنا هذا من كلام طويل ، والعبرة التى نأخذها نحن من السياق : ألا نجارى أهل الباطل فى حديثهم ، ولا نرضى عن مجالسهم ، بل نردهم بالحسنى عن خوضهم . فاذا لم يستجيبوا هجرنا مجالسهم حتى يتأدبوا .

وقد يبلغ التسامح ببعض الناس أن يغفلوا هذا الحرص : حياء ، أو مهانة ، أو مجاملة ، ولكن التغاضى عن كلمة الحق مجلبة لسخط الله ، وشؤم على المجتمع اذا تفشت فيه هذه الهوادة .

وللحق أساليب مقبولة ، ودعاية معسولة ، وهى حكمة الاسلام فى دعوته ، وتبليغ رسالته والله يعصمنا من الزلل ، ويهدينا سبيل الرشاد .

المنحرف عن الدين أحمق ولن يفلت من قبضة الله

ا) « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ، وغرتهم الحياة الدنيا »
ب) وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت .
آية ــ ٧٠ الأنعام

ا) الدعوة الى الدين مكرمة من الله على عباده ، اذ القصد منها أولا وأخيرا تعليم الانسان ما يجهل ، وهداية العبد من ضلاله ، والوصول بالبشرية الى الخير هنا وهناك .

وهذا هو وجه الامتنان على الناس بنعمة الدين « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » : « فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه » « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » « من عمل صالحا فلنفسه » .

ومع هذه التوجيهات ونحوها نرى من حكمة الله فى خلقه أن تكون هذه الدعوة الخيرة الواضحة الأهداف مجال شقاق بين الناس منذ القدم ، ومثار الجدل بين أناس وبين الرسل والدعاة من بعدهم ، حتى تعب الدعاة جميعا ، وحتى كانت عزيمة النبوة بحاجة الى مؤازرة من جانب الله ، والى شحذها بالوعود الكريمة ، والتسلية بما جرى بين الأسلاف منذ درج الناس على وجه الأرض وتحت قبة السماء .

وكان فى التسلية بذكر الأسلاف تعريف للرسل ولمن سلكوا طريقهم أن هذه سنة الله فى خلقه بين الداعين والمدعوين « ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين » — فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار » « واصبر ، وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولاتك فى ضيق مما يمكرون » .

ففى هذه التسلية وما اقترن بها من وعود ووعيد تثبيت للرسل ولأهل الحق على ما يبذلون من جهد ، وما يلقون من عنت ، وفيها تهديد للمكذبين ، واعلانهم أنهم على حمق ، وأن الله سيأخذهم بعدله وقدرته ، وسيثأر منهم لدينه بحوله وقوته ، وسينزل بهم البلاء فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، أو فيهما معا « لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .

وكان من التهـــديد الرادع الـــذى تجهمت له وجـــوه الحمقى ، ولم تستجب له عقولهم الملتوية قول الله — سبحانه — « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ، ولهوا ، وغرتهم الحياة الدنيا » .

فكفار قريش يومذاك ، كانوا لا يكترثون بالدين ، ولا بدعوة محمد اليه ، بل كانوا يتخذونه ملعبة وسخرية ، أو كانوا يجعلون اللعب واللهو بالباطل دينا لهم ، وديدنا يلازمونه : فسواء أكان الدين الحق سخرية لهم ، أم كان اللعب واللهو هما الدين الذى ارتضوه بدلا من دين الله : فهم على أى التوجيهين منصرفون عن الهدى ، وعاكفون على الباطل ، ومحمد صلوات الله عليه وسلامه يحاول ويحاول أن يهدى القوم الى سبيل الله ، ويحتمل ما يحتمل من صدودهم ، ومقاومتهم ، طامعا فى توفيق الله لهم ، ولكن الله تعالى يترفق برسوله ، فيقول له مرة — ان عليك الا البلاغ — ومرة — « انك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء » ومرة يقول له « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا » .

يعنى اتركهم ، ولا تشـــغل نفسك بأمرهم أكثـــر من تبليغ الدعوة ، وحسابهم موكول الينا ، وما عليك فى شأنهم من حرج « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ب) ثم يتجه الخطاب الى النبى — عليه الصلاة والسلام — فى رسم الطريق له نحو الغـاية العظمى فيقول له « وذكر به : أن تبسـل نفس بما كسبت ، ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ، وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها .. » .

فهنا مقاصد ثلاثة تتعلق بها فواصل الآية :

أحدها : تذكير الناس بالقرآن أن النفوس تبسل - - أى تحبس - فى العذاب وعن النعيم فى الآخرة بسبب ما كسبت فى الدنيا من مآثم .

وثانيها : أن ليس للأنفس ولى غير الله يتولى نجاتها من عذابه ، ولا شفيع يتوسط فى افلاتها من الحساب والجزاء .

وثالثها : أن النفس المحبوسة فى العذاب ، الممنوعة من النعيم لا تستطيع أن تفتدى من هذا الشقاء ، كما كانت تفتدى فى الدنيا من المكاره بالمال أو بغيره ؛ ولو فرض أنها تستطيع ذلك وتقدمت بما يعدلها وبساويها ، بل لو تقدمت بكل عدل — فداء — فلن يتقبل منها شىء : لأنها الآن فى ساحة الجزاء : لا فى مساومة الفداء ! .

فما بالك وهى غير قادرة على شىء مما كانت تبذله فى دنياها ؟ ! انها مفلسة من العمل . ومفلسة من المال الذى كانت تعتاض به من قبل . وليس أمامها سوى حساب عدل . وجزاء حق ، وعذاب مقيم .

هناك موقف الفصل ، وهناك جد لا هزل . وهناك يقظة لا غفلة بعدها وحياة لا نهاية لها ، ولكل امرىء نصيب يوفاه غير منقوص .

وان مسألة الحساب والجزاء من البدائه التى لا يجهلها انسان يعيش مع الناس ؛ اذ هى محور بارز يدور حوله خطاب القرآن . واذا اتجهنا مع الآيات فى أى ناحية من مسالكها : وجدنا العظة . والتذكير . والتخويف من العذاب ، والترغيب فى الثواب شاخصة فى مواجهتنا . وفيما تنطوى عليه الأساليب المتنوعة . والبلاغة الأخاذة .

ونحن فى عصرنا هذا بين أقوام يجهلون الدين كما كان يجهله أهل البداوة قبل مشرق الاسلام .

ولهؤلاء على أهل العلم حق النصـيحة والتوجيه . وأخذهم بالحكمة والموعظة الحسنة كما أوجب الله ، حتى تنجلى عنهم غشاوة الجهل ولو بعض الشيء ، وحتى تتضح لهم السبل ، وتبدو لهم الغاية .

وربما كان عجيبا : بل هو غاية العجب أن تجد بين القوم جمهرة من أهل الثقافة المدنية ، لا نضعهم فى مستوى الجهلاء ، ولا ننكر عليهم أنهم أوتوا حظا من العلم ، ولكن ثقافتهم صرفت كثيرا منهم عن وعى ما تنادى به الثقافة الدينية المستقاة من نبع الكتاب السماوى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والذى نفهمه : أن العلم كيفما كان نوعه لا ينافى توجيه الدين ، ولا يتنافى مع ما يرمى اليه من التهذيب ، وتربية الضمير . واحياء الصلة بالله فى قلوب الناس ، وصيانة المجتمع من شرور العابثين بالنظام . وتوجيه البشرية الى ما أريد لها ، وما طلب منها من نشاط . وطموح . وبذل ، فى سبيل حضارتها وسعادتها . ومن الحق أن العلم متى كان مسلما به وصح أن يسمى علما لا يكون مجافيا للدين .

والقرآن نفسه حينما أشاد بالعلم وأهله قصد طبعا العلم الذى يهدى الى معرفة الحق والى الطريق المستقيم . وقصد كذلك كل علم نافع يكون من عبقرية الانسان وتجاربه ، فانظر مثلا الى قوله تعالى — هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ ؟ .

فقد أطلق العلم . ولم يحصره فى فرع خاص . بل أفسح مفهومه لكل ما ينفع الناس ولا يجلب عليهم نقيصة فى دين ولا خلق .

وانظر الى قوله تعالى — انما يخشى الله من عباده العلماء — بضم همزة العلماء — فهو يشعر بامتداح أهل العلم الدينى الذين يتقون ربهم . ولا يمنع أن يكون شاملا لأهل العلم الدنيوى الذين يهديهم البحث الى الايمان بالله ، والاقرار بعظمته ، وابداعه فى خلقه ، فقد آل بهم العلم الى الخشية من الله .

وانظـر كذلك الى قوله سـبحانه — « قـل هـل يسـتوى الأعمى والبصير ؟ » .

– فانه ينفى المساواة بين العالم والجاهل ، ويشبه العمى بالجهل ، والعلم بالبصر ، والمفروض كما قلنا أن العلم نور يهدى الى الحق ، وأن أهل العلم الصحيح أعرف الناس بربهم ، وأقواهم حساسية بقدرة الله وخشيته ، اذا صادف علمهم طواعية من أنفسهم ، ولم تتغلب عليهم شقوتهم .

وحينما قال النبى – عليه الصلاة والسلام – اطلبوا العلم ولو بالصين – كان يحضنا على التماس العلوم النافعة وان بعدت أوطانها ، والاسلام لا يرى شيئا خيرا من العلم ، ويحثنا عليه فى قوة ، لنكون على معرفة أكثر من سوانا ولنكون بالعلم أقوى من غيرنا فى هذه الحياة .

والمفروض أن العلوم الدينية فى طليعة العلوم المرغوب فيها ، لأنها تهدى الانسانية من حيرتها دينا ، ودنيا ، ولأنها لا تدع الناس فى غفلة عن ربهم ، ولا تلهيهم عن العمل للمتاع الخالد فى الحياة الباقية .

وللعلوم الدنيوية مقامها بعد ذلك ، اذ هى ضرورية للانسانية فى تقويم دنياها ، ولكنها لا تكفل خير الآخرة الا اذا اتخذناها فى عمل يتصل بالآخرة : لا فى المفاتن ولا فى مناهضة الدين ، والبعد عن توجيهاته ، ولا يسوغ – حين امتداحنا .. لعلوم الدنيا بقدر ما لها من شأن فى حضارتنا وسعادتنا أن نرفع من درجتها الى مستوى العلوم الدينية ، ولا أن نرفع من مقام علمائها الى منازل الأبرار عند الله .

فان العلوم الدينية مستقاة من عندالله، لامن طريق التجربة التى تنجح يوما وتتعثر يوما آخر ، وان علماء الدنيا – وحدها – لا يستوون مع علماء الدين العاملين بعلمهم : لأن العقيدة والأخذ بالدين الحق ، والامتثال لآدابه ترفع من شأن فريق على فريق عند الله .

ونستطيع أن نقرر بعد ذلك أن العلوم كلها متضامنة فى الخير وان تفاوتت فى مقداره وتفاوت أهلها بالايمان وعدم الايمان كما أوضح الله سبحانه .

هذا : وكثيرا ما قرأنا عن علماء غير متدينين أن البحث العلمى جنح بهم الى الايمان، وأنهم لمسوا ضرورةالتدين بعد أنفطنوا الىأنالقوة التى تدبر

هذا العالم وتتولى رعايته جديرة بالايمان بها ، والاستجابة لها وهى — الله — جلت عظمته وتباركت أسماؤه وصفاته .

وتلك نتيجة حتمية للعلم الصحيح يهتدى اليها العقل الناضج .

فما بالنا نرى أناسا لم يبلغوا من الثقافة المدنية مبلغ أولئك العباقرة يتخذون ثقافتهم المحدودة حربا على الدين ، ووسيلة هدامة الى التحلل من العقيدة ، والآداب ، واهدار القيم ؟ ؟ .

هل انعكست طبيعة العلم عند هؤلاء عما كانت عند من هضموا تلك المعارف ، وفطنوا الى أسرار الله فى الكون ؟ ؟ .

أعتقد أن الجريمة ليست جريمة العلم ، وانما هى جريمة العقول القاصرة ، والأفهام الكليلة ، والأمزجة المنحرفة .. وهى جريمة الاخفاق والعجز عن الربط بين دين الله وبين ما خلق الله من كائنات ، وأودع فيها من

فنحن نؤمن ، ونأخذ بالعلوم كلها ، وننتفع بها ، ونحمد الله الذى هدانا لهذا ، « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .

وما سوى ذلك مما يتشدق به الملاحدة فمردود عليهم ، والله يهدينا ويهديهم

موقف الحق من الباطل
الحاضر أشبه بالماضى

« واذ قال ابراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناما آلهة ؟ انى أراك وقومك فى ضلال مبين » .

« الأنعام ٧٤ »

ابراهيم الخليل كان فى الطبقة العاشرة من أحفاد نوح عليهما السلام .

وبعد الطوفان بفترة غير وجيزة ، عمرت الأرض ثانيا بذرية كاثرة لمن كانوا مع نوح فى سفينته الناجية من الغرق ؛ وظهر عمرانها كذلك بكائنات أخرى من حيوان وأطيار ؛ كانت مع نوح فى السفينة . ثم عاشت برعاية الله بعد ذلك . تغدو وتروح فى فجاج الأرض وسمائها .

وقد شاء الله لخليله ابراهيم ، أن يكون كالدوحة اليانعة . تنفح الناس بنسماتها فى الجو الهجير .

بعث الله ابراهيم ليجدد الحياة الروحية فى معشره ، ولينشر المعرفة ما يبدد جهالة قائمة وقاتمة فيهم . وليجتاح وثنية ناجمة بينهم والدعوة الى الحق لا يسهل ترويجها . ولا تستغنى أبدا عن جهود شاقة فى سبيلها . ولا عن مصابرة للغواة الذين يخاصمونها . ويتبجحون فى مقاومتها . ويؤثرون أن يرتعوا دائما فى وادى الباطل .

واذا كانت الأنفس غيـر مطبوعة من أول أمرها على المعرفة . ولا جانحة الى الزهادة فى شهواتها . فلا عذر لها فى العكوف على الغى بعد أن يجيئها الناصح الأمين يستنهضها الى الخير . دون أجر على هذا . ويصابرها فى التوجيه والارشـاد دون حـرج عليها : الا أنه تهذيب لهم . وتطهير لدخائلهم ، وتقويم لحياتهم فى ضوء المعالم التى يحملها من عند الله .

وهذا ابراهيم عليه السلام — يرى من قومه ومن أبيه آزر — شركا بالله ، وعبادة للكواكب أو الأصنام فى اصرار على ذلك .

فيتوجه الى أبيه كما يتوجه الى غيره ، ويخص أباه بشيء من الاقناع ليكون ذلك استدراجا للآخرين اذا لحظوا أن تقبيح الوثنية أمر يشملهم كما يشمل أبا ابراهيم أو لحظوا أن وراء الدعوة خيرا يريده لهم كما أراده لابيه « آزر » .

دعا ابراهيم أباه الى توحيد الله ، وساجله الحديث غير مرة حتى داخله اليأس من مطاوعته ، ولمس منه الزهادة فيما نصح به ، اشتد عليه فى الجدل وأغلظ فى الانكار ، وقال له : « أتتخذ أصناما آلهة » وكأنه سمع جوابا غير حميد ، وصادف نقاشا غير لين ، فقال له : « انى أراك وقومك فى ضلال مبين » .

ومن سنن الأنبياء المصلحين أن يترفقوا بالناس فى دعوتهم ، ليتألفوهم، ويهونوا عليهم ترك ما اعتادوا ، والأخذ بما لم يعهدوا ، ولكن اذا لقيت الدعوة مكابرة . وصادفت جمودا ، واقتضى الحال أن يصارح الداعى أهل الباطل بباطلهم فى أعنف ما يكون من القول فحينذاك لا يقال : ان الداعى غلظ فى دعوته . أو قسا فى لهجته ، فان الداء الدفين يحتاج الى استئصال ولا يقتلعه غير العلاج الحاسم بعد أن يكون الرفق غير مجد فيه .

وهنا لا يكون ابراهيم الا داعيا رفيقا بأبيه حينما صارحه بقوله : «انى أراك وقومك فى ضلال مبين » . والرفق فى الدعوة . مع الأخذ بجانب من الشدة حين الحاجة اليها هو المنهج المشروع فى تبليغ الرسالات ، وهو المنهج المفروض على كل ذى دعوة يواجه الناس فى شأن دينى أو دنيوى .

وهو المنهج الذى يلائم الفطرة . لأن الانسان اذا نشأ على نزعة ، أو شب على عادة فهى أحب اليه من سواها حتى يردعه عنها رادع فى لين أو فى قسوة . وذلك مفروغ منه .

هذا : وقد كانت محاولة ابراهيم أن يجاري قومه في تقديس الكواكب، حتى يبدو من شأنها ما لا يتفق مع صفات الألوهية المزعومة عاد بالانكار على قومه فيما اعتقدوا من باطل نحو هذه الكواكب ، رأى بالليل كوكبا واضحا ، فقال هذا ربى ، فما لبث الكوكب أن أفل ، وخبا نوره . فسارع ابراهيم وقال على مسمع من القوم « لا أحب الآفلين » يعنى لا يصلح هذا أن يكون ربا .

ثم رأى القمر ساطع النور ، فقال : « هذا ربى » فما لبث القمر أن تضاءل وأفل ، فأعلن ابراهيم أنه بحاجة الى الهداية للحق ، وأن القمر لا يصلح ربا يهديه ، وقال : « لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين» . وفى هذا الندم اشعار للناس بما هم عليه من باطل ، واستدراج لهم الى الصواب الذى يغيب عنهم فى زحمة الخواطر الفاسدة .

ثم يرى ابراهيم الشمس بازغة فى ضوئها ، وبهجتها ، فيقول : « هذا ربى ، هذا أكبر » ولكنها أفلت آخر النهار كما هو شأنها ، وكما يعلم القوم، وحينذاك نهضت حجته ، وصارحهم بالبراءة من عقيدتهم وشركهم ، وقال فى اطمئنان : « يا قوم ، انى برىء مما تشركون » ..

ثم اتجه الى تعريفهم بالله الذى لا اله غيره ، وهو الذى خلق الكواكب بقدرته ، وسخرها بحكمته ، وأخضعها لأمره ، وارادته « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، ــ مائلا عن الباطل ــ وما أنا من المشركين » .

يعنى : أنه لا يتابع قومه فى شركهم ، وأنه يتجه بقلبه وعبادته الى الله آخذا بالحق ، ومائلا عن الباطل كله .

وبهذا وصل ابراهيم فى جدال أبيه وقومه الى دحض مفترياتهم، واقامة الحجة عليهم ، فى بيان الحق ، فمن كانت وجهته الاهتداء فقد وضحت سبيله ، ومن كانت وجهته العناد فليس بعد الحق الا الضلال .

هذه شرعة ابراهيم فيما علمه ربه ، وهى شرعة النبيين من بعده ، وشرعة الاسلام فى الدعوة الى الخير كله .

وابراهيم هو الشجرة المورقة التى تفرعت عنها النبــوة من بعده فى اسماعيل ، ثم محمد من العرب ، وفى اسحاق وبنيه من أنبياء بنى اسرائيل ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

والقصص عن ابراهيم وغيره من الأنبياء حق لا مرية فيه ، وهو مشوق للقلوب ، وقد يراه البعض غير جديد ، ولا ذى بال .

ولكن التوجيه الدينى الذى ســيق لأجله القصص يرسم لنــا طريق العبرة ، ويضع لنا معالم الهداية ، ويجدد فينا الوعى .

وما دمنا نعيش فى دنيانا ، ونختلط فى مجتمعنا ، ونستقبل أزمانا ، وأحداثا ، وتطالعنا الحياة فى ألوان متعاقبة ، ونستهدف لأوضاع وشئون نحتاج فيها الى أسباب السلامة من المكاره ، والاستظلال بظلال النعيــم والطمأنينة ، فلا يعتبر القصص الذى تتلوه وتسمعه حديثا معادا ، ولاتعليما مفروغا منه .

بل هو جديد دائما ، بتجدد الحياة ، مخافة أن تستبد بنا الحياة الدنيا وتشغلنا عن الأخذ بما رسمت لنا سياسة السماء ، فتنقطع الصلة بين الناس وربهم ، وتقف بهم الحياة عن مزيد المعرفة .

والله تعالى قد أقام دنيانا على مقتضى علمه وحكمته ، وتعهدنا فيهــا بالارشاد ، ونبهنا الى أن ذلك الارشاد ضرورى لنا كأناس لهم قدر عنــد ربهم ، ولهم ميزة على سواهم ممن خلق ، وفى هذا يقول سبحانه « أيحسب الانسان أن يترك سدى » « ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين » ـــ طريق الخير وطريق الشر ـــ « ولقد كرمنا بنى آدم ... » « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وهل يعتبر القصص لمجرد التذكير بما سلف ، دون أن يكون له واقع بيننا ، فنأخذ من ماضينا لحاضرنا ، وننتقل فى ضــوئه من حــاضرنا الى مستقبلنا ؟.

ربما ظن بعض الأغرار أن القصص تاريخ محض لا صلة له بحياتنا ، وربما وجدت كثرة مثقفة تقف من القصص هذا الموقف عينــه فهم تعلموا ، ولم يتعلموا ..

تعلسوا هوس الملاحدة ، وتبجح بعض الفلاسفة وطربوا لما هناك من نزعات طائشة هدامة ، ولم يتعلسوا شيئا مما يكفل سعادة ، أو يهذب روحا، أو يربى ضميرا .

تركوا الأدب المشروع ، والثقافة الخالدة . واتجهوا نحو الأدب الموضوع ،وأدخلوا فيه كل موبقة ؛ وحسبوا منه المجاهرة بالاباحية التى تأباها الفطرة حتى فطرة الحيوان الأعجم .

كان الانحراف قديما أثرا من آثار الجهالة التى حاربها الأنبياء ثم أصبح فى عهودنا هذه أثرا من آثار التعليم المدنى الذى اقتاد الناس الى العدوان على مقومات الانسانية باسم الفلسفة وباسم الحرية ونحو هذا مما لا يصح أن يدخل فى نطاق التربية ؛ ولا يجوز أن يحمل اسم العلم اطلاقا . والا كان هذا استهتارا بالعلم ووضعا من قدره . نكرر هذا التنبيه لخطورة الشأن .

فليت نفحة من نفحات الله ترطب تلك العقول التى ألهبتها وساوس الشياطين ، وتقف بتلك الأفكار عند حد الاعتدال . فتكون الدعوة الى الصواب مقبولة عند أولئك المعاصرين الذين يعارضون الحق بالباطل . وتكون دعوة المصلحين منهجا يأخذون به ، ويؤازرونه فى التوجيه . والله يهدينا ويهدى الجميع

الخير من جانب الله وهو يدعو إليه
والشر من جانب الإنسان وهو يتهافت عليه

« قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ » .

(الأنعام ١٠٤)

يدرك العقل فى غير جهد أن الله وحده ذو الفضل على عباده .

وأن الإسلام كان نعمة مسبغة من عنده، أفسح بها للناس مجال الخير بدءا ونهاية . فلم يعكف بهم على الجانب الروحى وحده حتى يحبسوا أنفسهم على رهبنة .

ولم يتركهم لجاذبية المال تستحوذ عليهم حتى يذلوا المال ، ويعيشوا عالة فى الاستثمار ، والجمع ، ويفقدوا الكثير من مقومات الانسان .

ولم يدفع بهم دفعا مطلقا الى جانب القوة الآلية فى العتاد الحربى حتى يكونوا جبابرة عتاة . وحكاما غاشمين يفسدون فى الأرض أكثر مما يصلحون .

وانما اختار الاسلام لأهله أن يكونوا أهل دين معتدل . وأهل مادة غير جشعة ، وأهل قوة رهيبة ورحيمة .

وبذلك يكون الانسان روحانيا وماليا ، وشجاعا قويا فى حدود الاعتدال من هذا كله .

وهذه الخصائص كانت جلية فيمن تلقوا دعوة الاسلام أولا ، وابتسمت عنهم الدنيا وفى أيديهم راية القرآن يلوحون بها للعالم كله أن يستجيب لدعوة الله على لسان عبده محمد صلوات الله عليه .

واذ كانت هذه الدعوة جهيرة ، واضحة المعالم والأهداف ، لم يعد للناس عذر عن تخلفهم ، ولا وجه فى ترددهم ، فضلا عن شقاقهم ، وتعنتهم وصار واضحا من حق الله على عباده أن يمتن عليهم بما أبدى لهم من أساليب الهداية ، وحبب اليهم أن يكونوا مهتدين جميعا .

وفى كل امرىء من الناس عقل ، وله اختيار ، وحينئذ يكون اهتداؤه ربحا له ولا يعدوه ، ويكون عصيانه خسارة عليه دون سواه .

وفى هذا المقام يهتف النبى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله عز شأنه : « قد جاءكم بصائر من ربكم » ، والبصائر جمع بصيرة ، وهى نور فى القلب يدرك به المؤمن ما ينقصه من خير ، ويستشف به وجهة الرشاد ، والمراد بالبصائر هنا الآيات القرآنية لما فيها من دلالات على الصواب ، فهى أسباب الهداية كما أن العين سبب الابصار النظرى ، والقرآن يثير وعى الناس الى ما توافر لهم من أسباب الهداية فى كلام الله وفى آياته الكونية ، حتى يدركوا لدينهم ودنياهم ولأفرادهم ومجتمعهم كل ما يستطيعون تحصيله من نجاح فى هذه الجوانب كلها ، لا فى ناحية دون ناحية .

والتصريح بأن هذه البصائر جاءتنا من عند ربنا يفيد : أولا ، انها لم تكن ثم كانت ، ويفيد انها ذات شأن كبير خطير ، لأنها نعمة من نعم الاله المتكفل بتربية خلقه . وشمولهم بكل ما تقتضيه ربوبيته لهم .

ومقتضى هذا التذكير أن يستجيب العقل لدعوة الطاعة ، وأن يستقيم فى الاختيار لما هو أكرم ، وانفع وأبقى .

وليس بعد هذا الارشاد والتوجيه مطمع لمن أراد الارشاد والتوجيه .. فاذا لم يكن وعى ، ولا حسن اختيار وتبصر فلم يبق الا الانحراف والخسران ، وهذا ظلم المرء لنفسه ، وجنايته على مجتمعه .

لذلك امتزج السياق التوجيهى بوعد كريم « فمن أبصر فلنفسه » وامتزج بوعيد رهيب « ومن عمى فعليها » .

يعنى من تبصر بالآيات فقد أحرز عملا طيبا لا يضيع هدرا ، ولا تعدوه ثمرته ، ومن عمى قلبه ولم تفطن بصيرته ، فانه يتخبط فى مسلكه ويضل سعيه ، ويكون وباله عليه وحده ، وربك لا يظلم أحدا .

وليس لأحد على الله حجة بعد البيان والهدى ، وبعد الوعد والوعيد، وكان من تمام النصح أن يصارحهم النبى صلوات الله وسلامه عليه ، بأن وظيفته فيهم التبليغ فقط ، وأنه لا يتكفل بهم ، بل يكلهم الى ربهم يحصى عليهم أعمالهم ، ويتولى جزاءهم ، وليس بينهم وبين الله وسيط يعفيهم من سلطانه وهذا قول النبى لهم : « وما أنا عليكم بحفيظ » .. ثم تنتقل بنا الآيات الى توجيهين آخرين :

أحدهما : فى قول الله لرسوله : « اتبع ما أوحى اليك من ربك ، لا اله الا هو وأعرض عن المشركين » ففى هذا مؤازرة للرسول فى نهوضه بالدعوة دون اكتراث بالمعاندين ، ولا تأثر بما يكون منهم ، بل يكون ايجابيا معهم ، يعطيهم من نصحه ، ويفيدهم بهديه ، ولا يجاريهم فى سلبيتهم ، بل يعرض عن سفههم ، وليس منوطا بعد بحفظهم ، ولا موكلا بتدبيرهم ، وتعهد أحوا

وكذلك الشأن فى كل ذى دعوة ناصحة من أمة محمد — عليه الصلاة والسلام — يقتدى بنبيه ، ويكون عائذا بحول الله وقوته ، صابرا على مناهضة الخصوم ، ومثابرا على ما هو بسبيله .

التوجيه الثانى : فى الآيات — وهو التوكيد لما تقدم — منع النبى والمسلمين جميعا من سب الكفار وما يعبدونه ، حتى لا يكون هذا استفزازا لخصومهم أن يسبوا الله أو رسوله : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » .

ويتبين من خلال هذا التوجيه أن القائم بالدعوة الاصلاحية جدير به أن يتسامى عن المهاترة ، ويترفع عن الاسفاف ، ليكون مسلكه تطبيقا لدعوته وأمارة على صلاحيته لها ، لا أن تكون دعوته فى ناحية ومسلكه فى ناحية .

فان اصطناع الدعوة مع الانحراف عن طابعها أسوأ ما يكون هدما للشخصية ، وتنفيرا من الثقة ، وضياعا للجهود .

وهذا ما نشهده بالتجربة فى كثير من الأدعياء الذين يتخذون الدعوة — وخاصة الدعوة الدينية — وسيلة الى المنفعة الشخصية، ويحتالون على

الناس بالتظاهر بسيما الصالحين الصادقين ، حتى تكشفهم الظروف فتكون جريمتهم قاضية على ثقة الناس فى دعوات الداعين الآخرين ، ولو كان هؤلاء من المثالية بمكان .

ومن ذلك التوجيه تفهم حكمة الله فى عصمة الأنبياء من الكذب . ومن الخيانة ، ومن المعصية كيفما كان نوعها ، لأنهم مبعوثون من جانب الله برسالته الى خلقه ؛ فهم فى المرتبة الأولى من الكمال الانسانى ، والبراءة من كل شائبة تخدش سيرتهم .

وكيف تكون الدعوة مجدية اذا تبذل الداعى ، واستفز الناس الى الغضب حينما يشتد الجدل ويسب غيره ، أو يسب معبوداتهم ؛ والنصح لا يقتضى ذلك ؟

فى موقف الدعوة ، وفى كل مناسبة تتصل بها ينهج الاسلام منهج التفاهم والملاينة ، لا منهج السباب والمخاشنة ، اذ البادىء بالسباب والمناوشة هو الجانى الأول ، وهو المسىء الى نفسه والى دينه .

وليس معنى هذا أن يرضخ المسلمون لمن يبادرهم بالاساءة ، أو يسعى فيها ، بل القصد ان يتريثوا ويجعلوا الحسنة مكان السيئة ، وأن يضعوا الدواء فى موضع الداء ، لا أن يثيروا الحزازات ، ويضرموا العداوة ، وهذا أروع منهج فى التربية ، وأقوم سبيل الى النجاح وكسب الخصوم .

وأخيرا : فهذا نسط نهتدى به لو فقهناه .

ولا يضيرنا أن يتخلف البعض ، أو يزور بدعوتنا الى الحق ، ويسفه علينا بالتجريح والجفوة فى القول ، فتلك أوضاع شاءها الله ، ولم يجعل مسئوليتها على غير أصحابها وقد قال سبحانه « لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » والله يهدينا جميعا » .

إذا تمادى الانسان فى أعمال الشر سُمّى شيطاناً

« وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا : شياطين الانس والجن ، يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » .

« الانعام ١١٢ »

مما روى عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أنه قال لأبى ذر صاحبه : ــ يا أبا ذر ! هل تعوذت بالله من شر شياطين الانس والجن ؟ فقال أبو ذر : يا رسول الله وهل للانس من شياطين ؟ قال عليه السـلام : نعم . هم شر من شياطين الجن !

وقال مالك بن دينار : ان شيطان الانس أشد على من شيطان الجن . وذلك أنى اذا تعوذت بالله ذهب عنى شيطان الجن ، وشيطان الانس يجيئنى فيجرنى الى المعاصى عيانا .

والقرآن الكريم يسبق هذه المأثورات بما يذكره فى الآية التى معنا ؛ فيحدثنا أن الله جعل لكل نبى من أنبيائه عدوا من الشياطين ومن الانس ؛ ويسمى الانس المعادى لدينه ولأنبيائه . شيطانا ، فهو سبحانه يجمع الفريقين تحت اسم واحد « الشياطين » لأنهم يقومـون بعمـل واحد فى الفساد . والافساد ؛ ومحاربة الدين ؛ ومعارضة الرسل .

والله سبحانه ــ يبين لرسوله محمد صلوات الله عليه ــ كيف كانت عداوة الشياطين من الفريقين ؛ فيذكر أن بعضهم يوحى الى بعض زخـرف القول : يعنى أن شيطان الجن يوسـوس لشيطان الانس فيطرح فى خياله وخواطره زخرفة الأقوال الباطلة التى يعارضون بها دعوة الرسـل ، والتى يتحدثون بها الى الناس فى ترويج المعاصى ؛ وتهوين المفاسد.وهذه الزخرفة

والتحسين يروجان عند صغار العقـول ، وعديمى الايمان ، فينقادون لها وينشطون فى العمل بها ، ظانين أنها مستحسنة وصواب ، أو مستحسنين لها وهم على علم بمخالفتها للحق الذى ينادى به كتاب الله .

وبهذا يكون المفسـدون من الناس قائمين بوظيفـة الشياطين الذين عرفوا بنزغات الانسان والوسوسة فى خواطره ، وكل ذلك همس يكون خفيا ، لا جهرا ، ولهذا سمى وحيا كما فى قوله تعـالى : « وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم ، وان أطعتموهم انكم لمشركون » .

والله تعالى يحدث نبيه بأن هذه سنة قديمـة فى معاداة الشياطين من الفريقين للأنبياء ، ليتحمله ، كما احتمله رسل سابقون ، وحكمته تعالى فى تسليط الشياطين من الفريقين على اناس آخرين أن يختبر عباده ، لا ليعلمهم ويعرف أمرهم فهـو أعلم بهم من أنفسهـم ، بل ليكشف لهـم عن مقدار ايمانهم ، وعن استعدادهم للثبات على دينهم ، أو سرعة انحرافهم عند البلاء .

فقد يغتر الانسان بنفسه ، ويظـن أنه مطمئن الايمان ، وأنه يساوى غيره من الصادقين المجاهدين الصابرين .

ولا يكاد يفهم درجة نفسه فى تدينه ، ولا مقام نفسه بين المؤمنين حقا الا اذا عرضت له أسباب تكشف له ماخفى عليه من أمره .. وعندئذ يحاول الكمال اذا تبصر وأحسن الاختيار ، أو يدرك أن تفاوت المنازل بين العباد عند الله منوط بتفاوت الايمان كمالا ونقصا ، فلا يكون لأحد عند الله حجة ، وهذا أقصى ما نستطيع تصوره من عدل الله تعالى مع خلقه .

ثم نعود فنقول : ماذا يقصد الشياطين من زخرفة القـول ، وتحسين القبائح ؟

صرح الكتاب العزيز بذلك فى قوله « غرورا » يعنى لتغرير الناس ودفعهم الى الباطل المزخرف .

وصرح به ثانيا فى قـوله « ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنـون بالآخرة » .. يعنى لتميل الى هذا الباطل قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة فيتخذوه دينا ومعتقدا لهم .

وصرح به ثالثا ، فى قوله « وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون » يعنى ليفرحوا به ويعكفوا عليه ، وليرتكبوا من المعاصى ما هم مرتكبون . مستبيحين لهذا الباطل ، معرضين عن الحق الذى ينادى به الرسل ، وتحفل به الكتب وخاتمها القرآن الكريم .

وانما فعل الله ذلك ببعض عباده لسابق علمه أن استعدادهم سىء ، وأن الهدى لا ينفع فيهم ، فترتب على ذلك معاملة الله لهم بما هم أهله .
وهنا مناقشة فلسفية يتطرق اليها الكلام : وهى هل قدر الله عليهم الانحراف أولا ، ثم وجد منهم سوء الاستعداد بسبب ما قدر عليهم ؟ ؟ وما ذنبهم فى هذا وقد قدر عليهم ؟ ؟

وللعلماء توجيهات لا نطيل فيها ، ويكفى أن نأخذ برأى مقبول ، وهو أن الله تعالى علم أزلا أن الكفار مثلا يسيئون الاختيار لسوء استعدادهم الفطرى ، وسوء الاختيار منهم ، فقدر عليهم ذلك الانحراف لما يعلمه من حالهم بعد ، فهناك علم سابق بسوء اختيارهم ، ثم قضاء عليهم بالمخالفة والانحراف ، ثم وجدت منهم المخالفة تنفيذا للقضاء المبنى على سابق العلم .

وكيفما كان فقد أرشد الله الى التحفظ من وساوس الشيطان فقال سبحانه « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم » .

وواضح من هذا أن العبد اذا أحس بخواطر فاسدة تدور فى خياله وذهنه فليتنبه الى أنها وساوس الشياطين ، وليسرع الى الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم والاستعاذة بالله حصن يحتمى به العبد وينجو من مكايد الشيطان ، كما وعد الله بهذا فى قوله « انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .

وأما شيطان الانس ، وهو رفيق السوء ، فسهل على المرء أن يتجنبه اذا عرف منه سوء الصحبة ، والأمر أمر يقظة وحسن تقدير ، فمن راعى

جانب الله استطاع أن يتحفظ ، ومن غفل عن جانب الله زلت قدمه وساءت عاقبته ، ولن ينفعه صاحب ، ولا ولد ، ولا مال ولا ندم .

وبعد ـــ فقد عرضت الآية الكريمة لذكر الانســـان والشيطان فى نسق واحد :

(ا) ونحن اذا وقفنا ازاء كلمة انسان . لنستوحي معناها ، وخصائصها . وما لها عند الله من قدر . وجدناها فى جـــانب علوى . وفى اطار كريم من الجلال والرعاية .

(ب) واذا وقفنا ازاء كلمـــة شيطان . وما يحيط بهـــا من شناعة . وما اقترن بها من مهانة وجدناها فى مهبط ســـفلى ينحدر فى الخســـة حتى لا ينتهى عند غاية سوى اللعنات اللاحقة به من الله . وعلى كل لسان .

فانسان : عنوان كريم يشعرنا بالأنس . ويوحى بالطمأنينة . ويثير عاطفة الاخاء والمحبة ، وانسان : هو ذلك المخلوق الذى كرمه ربه . ومجده لدى ملائكته ، وشغل الدنيا به . وخلق ما فيها لاجـــله . وهيأ بعقله . ومواهبه للايمان ، وكرر نداءه . وأطمعه فى مرضاته . والخلود فى نعمائه . وحذره من سخطه . ولم يترك له من وسائل الهداية أمرا يتعلل بجهله ويعتذر به عن تخلفه .

وشيطان : عنوان بغيض ، يثير التشاؤم ، ويشعر بالغضاضة . والخوف من المكاره ، ويزعج من خطرها ، حتى كأنها قرينة لذكر اسمه ومحدقة بالمرء ولا مفر .

ويمكن أن نوجز هذه المقارنه فى اعتبار كلمة انسان مرادفه لـــكلمة خير ... وفى اعتبار كلمـــة شيطان مرادفة لـــكلمة شر . وبين اللفظـــين فى مدلولهما ما بين المشرق والمغرب أو بعد ما بين العافية والبلاء .

فما الذى جمـــع بين مدلوليهما حتى دمجهما فى لفظ واحـــد . وسمى الانسان شيطانا ؟ وما الذى هبط بالانسان من عليائه . وجـــرده من جلاله حتى أصبح رجيما لا كريما ؟ ؟

جواب ذلك : أن الانسان خرج من اطاره ، ونسى صلته بربه ، وتجاهل عداوة الشيطان له ولأبيه آدم من قبل . ثم طـــرح جانبا ما أوصاه به ربه :

من حذر وحيطة ، ومجانبة لاغـواء هذا العدو المبين ، وأخذته وسـاوس الشيطان ، وراقت له مفاتنه فانحدر اليها ، وانغمس فيها ، بل تجاوز هذا الى القيام بما يقوم به عدو الانسان ، وأصغى الى وحيه واستجاب لتنفيذه نحو أخيه الانسان ، فكان هذا المفتون جنديا بل كان فى مسلكه شيطانا حقا ؛ ولو أن المرء ركن الى ربه ، واستعاذ به من غواية الشيطان ، واستنهض عقله ومواهبه فى التحرز من الوساوس ، ومن زخرفة الأباطيل واحتفظ بسكانته عند ربه لكان فى مصـاف الأخيار ، وفى عداد الأبرار • وليس يحول بين المرء وهذا سوى غفلة وشهوة وجهالة وضلالة •• ومن خـلال ما ذكرناه يتضح أن المرء مسئول عما اختاره لنفسه ، ومحاسب على صنيعه . ولو عالج قصوره بالرجوع الى ما جاء من عند الله ، وعالج تقصيره بالتوبة والانابة لكان له من عفو الله نصيب ، وقد جعل الله بابه مفتوحا لكل قاصد ، وقبوله ورضوانه واحسانه مرجوا لكل منيب .

فاللهم اجعلنا فى ديننا ودنيانا على خير ما دعوتنا ، وعودنا الخير كله ، ولا تجعلنا من شياطين الانس ، ولا من أتباع الشيطان فى شىء •

خير ما يوصف به الحديث
أنه صدق وعدل
وكلام الله في الأوج الرفيع من ذلك

ا) ((وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم .

ب) « وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله

جـ) ((ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون)) .

(الأنعام ١١٥ ، ١١٦)

اذا وضح الكمال فى شىء فهو جدير بالقبول ، وشأنه الاجلال ، والانتفاع به فى كل ما يتعرض له ، فاذا كان الشىء على كماله ، ولم يصادفه ما هو جدير به من حسن التقدير ، فالعيب عيبنا ، والنقص فى مداركنا ، ولا يضير ذلك الشىء الكامل أن نصدف عنه . فان الحق ناهض بطبيعته ، والباطل زهوق لخسته .

ومثل هذا راضح فى القرآن الكريم . وموقف الناس منه .

فقد جاء القرآن فى روعته ، وقوته فرق متناول البشر جميعا .. ومع هذا لقى من المعارضة ، وعنف الخصومة كل ما استطاعه خصومه النافرون منه ، والمنفرون عنه .

وظلت قوة القرآن بسلطانه الروحى تشق طريقها فى بيئات معادية له ، وتركز دعوته على أنقاض المناوئين له ، وهم كثيرون فى كل زمن « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

وفى صدر الآية الأولى أربع كلمات تكفى للاقناع بأن القرآن بلغ المبلغ الأعلى من القداسة .

وكان جديرا بالناس أن يجنحوا اليه ، لولا أن العقــول فى لوثة من التقاليد الباطلة ، فجاءت الآية الثانية للتنصيص على أن زهادة الزاهدين فى القرآن ليست لعيب فيه ، بل لاسفافهــم فى الاختيار ، وقصــورهم عن التمييز ، وسيرهم وراء الظنون ، والشبه التى تسد منافذ الصواب أمــام المدارك والمواهب .

ففى الآية الأولى يقول تعالى : (١ ــ وتمت كلمة ربك ــ ٢ ــ صدقا ــ ٣ ــ وعدلا ــ ٤ لا مبدل لكلماته) وكلمــة ربك : هى القرآن ، ويقرؤها البعض ــ كلمات ربك ــ فقد وصفــت بالتمام ، وأضيفت الى لفظ الرب ، وفى هذا مقطع الشكوك ، ومثار الايمان لمن أنصف نفسه .

وحيث كان التمام فى كلمات الله فهى وافية بكل غرض ، وسامية عن كل باطل ونقص ، وكفيلة بكل خير ، وهى أرقى من أن تعلق بها الشبه التى يحاولها المتنكرون للقرآن .

ثم يأتى وصف ثان وثالث بأنها صدق وعدل .

ذلك افصاح بما تضمنه الوصف بالتمام ، واعلام لنا بأن قداسة القرآن ليست فى مجرد نسبته الى الله ، فان الخصوم لا يعترفون بذلك ظاهرا .

بل قداسته ذاتية كذلك ؛ لما وضح فيه من صدق وعدل ، فكله حق ؛ وتشريعه رفق ، وهو فى جملته وتفصيله ، رحمة بالناس ، وتيسير عليهــم ، وتوجيه لهم ، يذلل ما تعقد ويبصرهم بما خفى ، ويرافقهم طول الحياة ،وفى السراء ، وفى الضراء ــ لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ــ لأنه ــ تنزيل من حكيم حميد ــ وهذه صفات يعهدها المخالفون ، فقديما عاندوا ، وأسرفوا فى التحدى ، وحاولوا ما استطاعوا أن يخدشوا كماله ولم يظفروا بحجة ناهضة ، ولا معذرة مقبولة .

فالقرآن موصوف بصفات مستقرة فى نفوسهــم ، وان لم تكن على ألسنتهم . ثم جاء الوصــف الرابع ــ لا مبدل لكلماته ــ ليسجل عليهــم العجز عن مقاومته ، وليقرر أنه غير قابل للتبديل أو التحريف ، كما ابتليت بذلك كتب سابقة مع ما كان لها من قداسة .

ان هذا هو الكتاب الأخير ، وهو منهج الناس فى حياتهم ، حتى يتجاوزوها الى الحياة الآخرة . فحرامه وحلاله ، وكل ما فيه من وعد ، ووعيد غير قابل للتبديل .

وكيف وقد استقر على تمامه فى الكمال ؟ ؟.

وغير خاف أن خصوم القرآن يئسوا من العبث به ، ويئسوا من المساس بنصوصه ومعانيه ، واذا كانت شبه المارقين ، وتخلفات الغافلين باقية ، وواقعة ، وسارية فى أوساط عدة ، فليس ذلك كما قلنا عيبا فى القرآن ، بل هذا تحقيق لخبر القرآن نفسه فى الآية الثانية .

(ب) وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله .

فالناس فى عماية عن أخبار الغيب ، وفى عماية عن أخبار عالم الشهادة ، وهم يسمعون وينسون ، ويشاهدون ويتعامون ، وهم عند النوازل يفيقون ويتذكرون ، ثم يعودون الى ما ألفوا ، ويأخذون فيما تعودوا .

والذكرى لا تنفع الجميع ، وانما تنفع المؤمنين المستجيبين للدعوة .

وكان خصوم القرآن يطمعون أحيانا فى مطاوعة النبى لهم ، والسير فى مزاعمهم ويجهلون أن الله عاصمه من باطلهم .

ولذلك جاءت الآية الثانية كما جاءت آيات أخرى تنبه الى رعاية الله لنبيه من كيدهم ، وتنبه الى أن أكثر الناس فى ضلالة وجهالة — وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون — وانظر تجد أن المؤمنين فى الدنيا قلة بجانب كثرة غير مؤمنة ، ولكنها قلة راشدة ناجحة ، وتلك كثرة خاطئة خاسرة .

وهذا شأننا فى كل محيط ننزل به ، وكل فئة نقلب النظر فيها ، وكأن الله تعالى يسوق الينا هذه المقابلات بين فريق هداهم ، وفريق أضلهم لنحمده على ما تفضل به من الايمان ، ولنطمئن الى أن كتابه محفوظ وان تألبت عليه الأمم المعادية لهم طوال أزمانها .

وكفانا ثقة فى وعد الله أنه القادر على كل شىء ، وسيظل الكتاب العزيز خفاق الراية ، وارف الظلال فى حراسة الله الذى أنزله ، وقال : « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » وقال : « لامبدل لكلماته ، وهو السميع العليم ».

وبعد : فقد يمر بالخاطر أن الناس فى شغل شاغل عن متابعة دينهم ، وأن بعضهم أو أكثرهم لا يرون للتدين أثرا فى أعمال الدنيا ، ولا يدركون حكمة للحض على الاتصال بالدين والاهتداء بتوجيهاته .

وهذه خواطر قوية ، تساور أصحاب القلوب الحية ، فهم يأسفون لانحراف الكثرة من الناس عن حوزة الدين ، واشتغالهم بالتنافس فى المجال المادى .

وكان النبى ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ أشد الناس حدبا على أمته ، وحرصا على هدايتها ، حتى كان شغفه باجتذابها الى الطاعة ينال من نفسه ، ويذهب براحته .

فكان يتنزل عليه القرآن ليخفف عنه وطأة الأسف ، ويصرف عنه مشغلة الهم الذى يساوره ويقول له : « انك لا تهدى من أحببت » « انما أنت منذر » « ان عليك الا البلاغ » « فذكر انما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » .

ومن هذا يتضح أن الله تعالى بين للناس على لسان رسوله ما بين حتى لم يدع لهم معذرة يلتمسونها لأنفسهم ، ولا حجة يتشبثون بها عن مخالفتهم كما قررنا ذلك من قبل .

وان الله تركهم لعقولهم ، واختيارهم ، ثم هو محاسبهم بعد ذلك على متقال الذرة من الخير والشر ، ولكن الناس ظلوا فى دنياهم مدفوعين الى اجتلاب ما يجتلبونه من كسب وادخار للحياة الدنيا ، وفقدوا احساسهم بحاجة الروح والقلب الى التهذيب والتربية والاستعداد للحياة الآخرة ، وهم فى هذا الاتجاه الملتوى عن الرشد يتعلقون بظنون واهية والظن لا يغنى عن الحق شيئا .

فمنهم من يسير فى تقديره للدين وراء حدس وتخمين ، ويحسبون أن الله غير معذبهم لأنهم على حق فيما ركنوا اليه كما ركن اليه آباؤهم من قبل ، وهؤلاء هم الكافرون الأولون ، ومن يحاكيهم من المفتونين .

ومن الناس من يعتقد أن الله غفور رحيم ، وأنه مادام كذلك فسوف لا يحاسب ولا يعذب ، ومنهم من يسرف ويعصى ثم يأمل أنه سيتوب فيما بعد ، وينجو من الحساب بسبب توبته ، وكأنه واثق أنه يعيش ، وأن التوبة فى متناوله فى أى وقت ، وأن الموت لن يباغته يوما ، وتلك كلها ظنــون باطلة ، وتقديرات وهمية ، وآمال ذاهبة أدراج الرياح . وهناك حق لاينبغى العدول عنه ، وهو أن يستجيبوا ، ويعملوا ويحتاطوا وأن يقدروا مايخشونه من موت مفاجىء ، وحساب عسير ، ولكنهم لم يفعلوا ، ومن أجل ذلك سجل الله عليهم هذه الغفلة بقوله فى شأن الجميع :

« ان يتبعون الا الظن ، وان هم الا يخرصون » .

فهذا تشنيع على المتعلقين بالظنون والمبالغين فى الخرص ، وهو التخمين والتغرير بالنفس واهمال ما فى الآيات من العظات .

والله نرجو أن يهبنا رشدا ، وتوفيقا ، وأن يجنبنا الظن الخاطىء .

المثالية الأدبية فى توجيهات القرآن لمن كان ذا سمع وفطنة

« وذروا ظاهر الاثم وباطنه ..
« ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون » .
(الأنعام ١٢)

دعوة القرآن تتجه بالناس دائما الى الصعود نحو المشارف ، ليكونوا فى مقامهم من الانسانية التى يناجيها ربها ، ويتعهدها بالتربية ويضفى عليها الكرامة التى ليست لسواها فى الأرض .

وأنت ترى القرآن ينهانا عن ظاهر الاثم وباطنه ، وهو بهذا الكلام الموجز يبعدنا بعدا شاسعا عن كل نقيصة : من ظاهر الاثم الذى يبدر من الانسان على مشهد أو مسمع من الغير . ومن باطن الاثم الذى يكون فى خلوة وخفاء ، عن الناس .

والظاهر والباطن من الاثم : يتناول أعمال الجوارح ، ويتناول أعمال القلب ، مما يتصل بالعقيدة ، ويبدو فى المظهر والسلوك ، كتصديق الباطل ، والارتياح الى الشكوك ، والى الزهادة فى دعوة الدين ، والجنوح الى المشاقة لله ورسوله ، بأى لون من ألوان المروق والتحلل .

بل الظاهر والباطن من الاثم لا يقفان عند الجانب الدينى البحت ؛ بل يتناولان آداب السلوك العام ، والمساس بأى حق من حقوق المجتمع ، والخروج على النظام الذى تكفلت به القوانين الوضعية الصحيحة .

وكل ما قامت عليه المصلحة الجدية يعتبر داخلا فى اطار الدعوة الدينية، وان لم تسهب فيه النصوص الدينية فى الكتاب أو فى السنة . فالنصوص لم تأت بتفصيل كل شىء ؛ بل جاءت فى أكثر منهجها كنماذج ، يقاس عليها ما

تكشف عنه الحاجة ، وترشد اليه التجربة، ويراه ولاةالأمور خيرا للناس فى حياتهم ، وأمنا على حقوقهم ، وصيانة للنظام العام من عبث العابثين .

فحينئذ يكون هدى الدين كاشفا عن المنفذ الذى يصل منه المشرعون الى الهدف ، ويكون الدين متمشيا مع اتجاه الحياة فى خطاها المتتابعة : « مافرطنا فى الكتاب من شيء » يعنى : تفصيلا واجمالا .

وليس معنى هذا أن يتعرض الدين صريحا للمخترعات ، وأدوات المصنع ، وانتاج المعامل ... كما يشتهى بعض المتطلعين من أهل الجدل والشقشقة ، والفضول .

لا .. بل نقصد أن كل ما تهتدى اليه العقول ويكون صالحا للحياة ومفيدا للناس وليس معارضا لوجهة الدين ، ولا ناقضا لمبدأ معروف فيه ، فهو أمر سائغ ، ومأذون فيه ضمنا ، وقد يكون تطبيقا مباشرا لنصوص الدين .

وهذا استطراد يرتبط بظاهر الاثم وباطنه ، وهو واضح ، بعد أن توسعنا فى مفهوم الاثم ، وتناولنا به كل ما يجلب على الناس ضررا .

ويبدو من هذا أن عبارة الكتاب العزيز مع ايجازها فى اللفظ غاية الايجاز وسعت كل ما يعتبر فسادا ،وكل ما ينافى الحياء . وكل ما تعافه الفطرة .

وليس فى هذا التعميم تعسف ، بل هو قريب التناول اذا استأنسنا بقول النبى صلى الله عليه وسلم « والاثم ما حاك فى صدرك منه شيء » .

فهذا خطاب لصحابى مسلم ، بل هو خطاب لكل مسلم ، والمفروض أن المسلم قوى المشاعر الدينية ، ومرهف الاحساس ، وصادق الادراك ، شديد الحياء ، فهو بفطنته وفطرته قد يدرك المعابة ، ويحس بالمأخذ، ويتردد فى الأمر الذى لا يتسع له صدره بعد أن شرح الله صدره للاسلام ، وملأه نورا ، لا غرورا ، ولا وباء ، ولا رياء « والذين اهتدوا زادهم هدى ، وآتاهم تقواهم » .

واذ كان النهى عن ظاهر الاثم وباطنه شاملا لكل ما يجافى الصواب : دينا ، ودنيا ، فعقوبة المخالفة تكون خطيرة ، وتكون فى قوتها مؤازرة وموازية لقوة النهى الشامل .

وهذا قوله تعالى : « ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون » ، وقد اجتمع فى هذا التهديد ما اجتمع من أساليب التأكيد لسوء الجزاء بسبب اقتراف المخالفين لما يقترفونه من ظاهر الاثم أو باطنه .

ثم تأتى آيات بعد هذا النهى فيها تعريج على بعض أنواع الاثم الذى يقترفه الناس ، وكانوا يقترفونه قديما .

ومنها قوله تعالى « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين » .

وهذا أمر يأذن بأكل الذبائح التى يذكر اسم الله عليها عند ذبحها . وفيه رد على كفار كانوا يتركون التسمية على الذبيحة ، بل كانوا يتركون الأكل مما ذكر عليه اسم الله : عنادا منهم ، وتشبثا بالمخالفة .

و فى هذا الأمر امتنان على الناس بما أباح الله لهم من لحوم يجب أن يشكروه بذكر اسمه عليها حين ذبحها أن كانوا مؤمنين حقا بآياته ، وذلك حكم قائم، وللفقهاء تفصيل فيه بين العامد والناسى لذكر التسمية، والأرجح عندهم أنها لا تسقط عمدا ، ولا تحل الذبيحة اذا تركت عليها التسمية عن قصد . وتليها آية أخرى فى هذا الصدد :

« ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » فهذا نهى صريح عن أكل الذبيحة التى تركت عليها التسمية ، وهو رد كذلك على من كانوا يستبيحون هذا ، ويأكلون ما ذكر عليه اسم الصنم ، أو أى اسم غير اسم الله المستحق وحده للشكر على ما خلق ، وعلى اباحته للأكل من تلك الذبائح المسموح بأكلها .

وقد سمى الله تعالى أكل ما لم تذكر عليه التسمية ، فسقا « وانه لفسق » والفسق هو المعصية الكبيرة ، وقد يراد منه الكفر الصراح .

ويرى بعض الأئمة أن ترك التسمية لا يمنع من الأكل، بل المانع هو ذكر اسم غير اسم الله .

والتعرض للأكل وعدم الأكل هنا من باب التمثيل للاثم المنهى عن فعله ، وهو يتناول أكثر من الأكل ، غير أن أكثر ما يقع الاثم فيما يؤكل حراما ، فاختير ذكر الأكل لشيوعه وغلبته على سواه .

ثم تنتقل بنا الآيات الى توجيه كريم نحو ظاهرة اجتماعية ، هى : أن العصاة فى الجماعات والبلاد هم غالبا أكابرها .

وهذه سنة كونية صرح بها القرآن فى قوله تعالى : « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ، ليمكروا فيها » .. يراد فيما نفهم : أن أهل اليسار ، وأصحاب النفوذ ، وذوى المظاهر ، ونحوهم — وهم الأكابر فى كل قرية أو جماعة — هم ، غالبا ، الذين يخالفون ما أمر الله به الى ما نهى الله عنه ، والمعروف أن أصحاب النعم كثيرا ما يغترون بها فتقسو قلوبهم ، وينال الغرور من نفوسهم ، ويستحوذ الشيطان عليهم فيلتوون عن الشكر الواجب الى المتاع المحظور ، ويرون فى تبجحهم تعاليا عن مستوى الضعفاء ، والفقراء ، وتمنعا عن سماع النصح والخوف من التهديد والوعيد ، وأنهم أكبر من أن يخضعوا ، ويذلوا لأحد ، ولو كان ربهم — سبحانه — ونحن نشهد اطراد هذا الانحراف الى وقتنا ، وفى كل وسط من الأوساط بسبب ما لديهم من أسباب الزهو ، والمفاخرة ، بل ربما قلدهم وتابعهم على ذلك من ليس لديه شىء من هذا ، حبا فى التظاهر ، واستخفافا بالمعصية .

وكذلك كانت قريش فى ماضيها ، ما بين متبوع مستكبر ، وتابع مستضعف ، وفى القرآن قصص مبسوطة عن هؤلاء وما كانوا يعملونه ، واخبار بما سيكون منهم يوم القيامة من ندم ، وتنصل من التبعة ، والقاء كل من الفريقين جريمته على الآخر ، حتى يلقى بهم جميعا فى النار ، ويقف بين الفريقين هذا الجدل ، ثم يقرون جميعا بقولهم : « انا كل فيها — النار — ان الله قد حكم بين العباد » .

وان حديث القرآن عن الأكابر المجرمين فى كل قرية أو كل بيئة واضح فى التنديد عليهم والتذكير لهم ليعتبر منهم من يعتبر ، وليتنبه كل من كان مفتونا بنعمة الى الاصلاح من شأن نفسه ، وعلاج حالته بما يفيده من توجيه القرآن نحو المثالية الأدبية الخلقية .

فهل لأدبائنا المعاصرين ، وكتابنا المجددين أن تكون لهم عظة ، وأن يتريثوا فى غرورهم ويقتصدوا فى باطلهم وتضليلهم ؟ ويعلموا أنهم يمكرون بأنفسهم ولا يشعرون ؟

اللهم وفقنا ووفق الجميع .

الدّعوة الدّينية موجهة إلى الإنس والجن

ا) « ويوم يحشرهم جميعا ، يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس ..

ب) « وقال أولياؤهم من الانس : ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ..

ج) « قال : النار مثواكم ، خالدين فيها ، الا ما شاء الله، ان ربك حكيم عليم » .

(الأنعام ١٢٨)

زعم البعض أن الجن غير مكلفين ، وأن الدعوة قاصرة على الانس ، فالجن لا يثابون على طاعة ، ولا يعذبون على معصية ، فهم عند أولئك الزاعمين مهملون فى الدنيا وفى الآخرة .. وهذا من جزاف القول الذى يطرح على الأسماع دون أن يؤازره دليل ، أو يناصره وجه من الصواب .

(ا) ونظرة فى الآيات التى سقناها تدل فى وضوح على ما فى ذلك الزعم من خبط وخطأ ؛ وعلى ما يقترن به من غفلة عن آيات الله فى كتابه .

فالله تعالى يأمر نبيه — صلوات الله وسلامه عليه — أن يتذكر، ويذكر يوم الحشر للخلق جميعا وأن الله — سبحانه — ينادى معشر الجن ، جماعتهم ، ويذكرهم فى تعنيف وقسوة بأنهم أسرفوا فى اغوائهم للكثير من الناس ، وأنهم يلجمون ، ويأخذهم العجز عن الجواب ، اذ يكون موقفهم موقف الحسرة والخجل ، وموقف الباطل المهزوم أمام الحق المنتصر، وموقف المهانة والضعف ، أمام العزة والكبرياء ، وموقف اليقظة بعد الغفلة ، وقد ضاعت الفرصة ، فلا رجاء ولا مهرب .

(ب) وهنا يلهج الأتباع الغواة من الانس ، فى ذلة وضراعة ، فيعترفون اعتراف المأخوذ بذنبه ، ويقولون قولة الحق على أنفسهم : « ربنا استمتع

بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا » يعنى أن الجن استمتعوا بالسيطرة على الغواة ، وزخرفوا لهم الباطل ، وقادوهم الى المفاسد .. وأن هؤلاء العصاة استمتعوا بالجن . فاستجابو لوساوسهم ، واستمرءوا الشهوات ، وتابعوهم فى سبيل الغواية الى نهايتها ، حتى انتهت بهم الحياة الى العاقبة التى استهانوا بها ووقفوا بين يدى الله فى وعى يقظ .

وحيث كان ذلك معروفا من قبل ، وكانت دعوة الرسل واضحة ، وحاثة على التنبه لما وراء الدنيا من عذاب أليم ، أو نعيم مقيم ، فليس الموقف الآن موقف استعتاب ، وانما هو قول فصل ، وما هو بالهزل ، وهو جزاء يقنعهم بصدق ما سمعوا من النذر ، ويبصرهم بالعدل الذى تجاهلوه فى معاملة الله للمحسنين والمسيئين من عباده ، ويؤكد لهم قول ربهم « كل امرىء بما كسب رهين » « وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم » .

(حـ) والجواب الحاسم الذى يسمعونه من جانب الله تعالى — بعد هذا اللوم وهذه الاستكانة — « النار مثواكم ، خالدين فيها ، الا ما شاء الله ، ان ربك حكيم عليم » .

وهنا ينقطع الاستعطاف ، ويستقر الأمر على ما قضى الله من تخليد هؤلاء الأتباع مع متبوعيهم فى النار ، كما عاشوا على ولاء فى الجحود والعصيان .

وذكر المشيئة فى هذا السياق للاشعار بأن الأمر كله لله بدءا ، ونهاية . وأنه وحده يعلم مدى خلودهم فى العذاب ، ويقال ان الوقت المستثنى بالمشيئة هو الوقت السابق على دخولهم جهنم ، يعنى من حين المحاسبة فى الموقف .. ويرى بعض العلماء أن الاستثناء بالمشيئة يدل على أن للخلود نهاية ، ثم تفنى النار بكل ما فيها ، وهذا غير مرضى عند الجمهور .

ومما تقدم يتبين أن توجيه النداء الى الجن ، وتوبيخهم على مافعلوا بالناس من غواية ينقض زعم الزاعمين أن الجن غير مخاطبين بالدعوة الدينية، وأنهم همل فى دنياهم وآخراهم ، فهم يفسدون ولا يحاسبون .

مع أن تخصيصهم بهذا النداء السالف يؤكد مسئوليتهم أكثر من غيرهم ، لأنهم هم الفاتنون لسواهم .

ثم يأتى نداء ثان يجمع بين الفريقين فى التعنيف واللائمة « يا معشر الجن والانس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ » .

وهذا تقرير وتوبيخ ، تناول الجن قبل الانس ، لأنهم كما قررنا مصدر الفتنة ، وهو نداء يسجل أن الرسل كانوا يبعثون اليهم جميعا ، وأن الرسل كانوا من هذا المجموع ، لا من جنس ثالث مغاير لهم ، ولئن كان الرسل فى واقع الأمر من الانس ، فقد كان للجن من يسمع ويبلغ سواه ، وبهذا تكون الدعوة واصلة الى الجميع : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا : يا قومنا ، انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدى الى الحق ، والى طريق مستقيم . يا قومنا ، أجيبوا داعى الله وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين » .

وليست بنا حاجة بعد هذه الالمامة الواضحة وبعد تلك الآيات البينات الى المزيد من القول فى بيان عموم الدعوة الدينية للثقلين من الجن والانس ، فالجميع أمة دعوة والمؤمنون منهم هم أمة الاجابة ، وهذا أمر مفروغ منه فى جانب محمد بن عبد الله ، صلوات الله عليه وسلامه ، واذا كان حديثنا فى هذا الصدد غير جديد فهو تصحيح للعقيدة ، وتذكير بالحذر من الشياطين وبوجوب البعد عن اخوان السوء ، فانهم شياطين الانس ، وأنت ترى غالبا فى كل مجتمع ، وفى كل بيئة من يمثل الشيطان فى مسلكه ، وسيرته ، ومعاملاته بالكذب ، والتدليس ، والمراوغة ، والرشوة ، والخيانة .

وترى لهؤلاء رءوسا مشرئبة نحو الفسوق ، ووجوها تبتسم لاستقبال الرذيلة ، وتسمع لهم نغمات جريئة فى التوجيه الى الانحراف .

وكانت الرذيلة من قبل خانسة ، فتجهمت بيننا بتبجح المارقين .

وكانت الوجوه تتوارى حياء من النقيصة ، فأصـبحت الوجوه غير كالحة ولا تخجل من سوء ، ولا تخزى من معرة .

حتى كثر فينا الوضعاء الذين لا يستريحون الى نصح ، ولا يرضـون بالبقاء على شيء من الأدب ، ولا يرون غير مسالك الدناءة ، وكأنهم يعافون أن يقال عنهم قـول كريم ، أفليس هؤلاء من المسـتمتعين بالجن ، وأنهم سيواجهون بالموقف الذى تحدثنا عنه فى ضوء ما سلف من الآيات .

اللهم اهدنا واهدهم ، وأصلح لنا ولهم ديننا ودنيانا ، فأنت اللطيف بعبادك .

فى وصايا القرآن دعم لنظام المجتمع

١) « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا الا وسعها ..

ب) « واذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى .

ج) « وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » .

(الأنعام ١٥٢)

هذه أوامر ثلاثة ، وردت فى سياق الوصايا العشر من سورة الأنعام ، لتربية الناس تربية قيمة ، فيها صلاح الدين والدنيا ، وفيها توجيه للانسانية أن تنهض الى مستواها المثالى : لو أن الناس حرصوا على هذه التوجيهات وأخذوا بها .

(ا) الأمر الأول : يتعلق بنظام الكيل ، والميزان ، فهما فى التعامل الشائع وسيلة الايفاء والاستيفاء فى الحقوق المتبادلة كيلا ، أو وزنا .

وتعلق الناس بالأموال ، وتحفظهم عليها ، ورغبتهم فى التكثر منها ، خصائص طبعنا عليها ، فهى نزعات تلازمنا فى كل حال ، ولا تكاد طبيعتنا تتخلى عن حب المزيد من المال ، ولو كان فى ملك الغير ، ولا تتخلى كذلك عن الضن بالمال ، والامساك عليه ، ولو كان حقا عندنا للغير .

وقد استبدت هذه النزعات بأمم سابقة حتى أوردتها موارد الهلاك ، وأصبحت مثلا سيئا فى الأولين والآخرين ، وهذه « مدين » أمة شعيب عليه السلام ، طاوعت نزعتها ، وأمعنت فى بخس الكيل والميزان ، وفى تطفيفهما ، لتشبع من الأموال رغبتها ، وعصوا رسول الله شعيبا ، فيما بلغهم عن ربه ،

وفيما نصحهم به من العدل فى الايفاء ، والاستيفاء ، وسخروا من شعيب ، حتى عاجلتهم الله فى دنياهم بصيحة سماوية ، غشيتهم بصواعقها ، فتركت أجسادهم كأكوام من تراب محترق ، بل تركتهم أكواما حقا ، وتركت ديارهم أنقاضا خاوية على عروشها كأن لم تكن بالأمس آهلة بسكانها ، ولم تكن مغانيهم حافلة بهم يطربون ويمرحون .

والقرآن يحيد بنا عن متابعة مدين فى نهمها وجشعها ، والافتتان بالمال، ونهبه من الغير ببخس الكيل والميزان اذا أعطينا ، أو بتطفيفهما اذا أخذنا .

ولا يحسبن امرؤ أن التلاعب فى الكيل والميزان أمر هين يمكن التسامح فيه ، أو أنه أمر يمكن دائما درؤه بسلطة القانون ، وفرض العقوبات ، فان القوانين لا تخلق فى الناس ضمائر تراقبهم ، ولا تنتزع من نفوسهم غرائز تتحكم فيهم ، فان لم يكن من جانب الله ردع زاجر فى الدنيا كما صنع بمدين ، وكما يبتلى غيرهم بالفقر والحرمان ، ريثما يقتص منهم بأمور أخرى فى دنياهم ، وبعذاب أشد فى أخراهم ، نقول : ان لم يكن من جانب الله ردع ، لظلت الأموال فى تيار جارف من شهوات الجامحين .. ولا ريب فى أن مدار التعامل بين الناس على الكيل والميزان فى أكثر ما يتبادلون .

فبقدر ما يهتز أحدهما عن مستواه الوسط العدل ، يكون الجور فى التعامل ، ويقع الظلم على أحد الجانبين ، ويهتز تبعا لذلك نظام المجتمع من ناحية خطيرة ، هى ناحية التعامل ، أو هى : الجانب الاقتصادى ، وهو الجانب الحساس فى تكافل الجماعة ، وهو جانب لا يقبل الهوادة .

اذ تكون النتيجة الحتمية لهذه الهوادة أن تنعدم الثقة ، أو تضعف بين كل متعاملين ، فتتعثر الحياة الاقتصادية عن نشاطها المرغوب فيه . وتكون المعاملة مقرونة دائما ، أو غالبا بالتشكك ، وبالحذر ، أكثر مما ينبغى .. وهذا بعيد عن مقاصد الاسلام فيما يريده لأمته من نهوض .

لذلك التعليل الذى قد يغيب عن كثيرين لم ينظر الاسلام الى مسألة الكيل والميزان على أنها مجرد مسألة روحية ، بل نظر اليها على أنها دعامة ركيزة فى نظام الاقتصاد وميدانه ، وأنها ركن أصيل فى بناء المجتمع .

وما دام الاسلام فى تشريعه لنظم الحياة يحض على العمــل المنتج ، ويحث على الأخذ بأسباب القوة ، من علم وابتكار ، وكسب واستثمار فهو يعتبر التلاعب فى الكيل والميزان مساسا بمقياس العدالة ، وتطويحا بالثقة التى يجب توافرها ، وصدا للناس عما يتطلع اليه الدين الاسلامى فى أهله من نشاط فى دنياهم ، وأن يقنعوا بما يسر الله لهم من حلاله عن حرامه .

فلا غرو أن يسخط الله على من تعدى حدوده ، وأن يمنع البركة مما كثر عنده ولو تراكم المال عنده ، حتى ينتهى الحرام على كثرته الى ضآلة، ثم الى بوار .

ونحن نشهد بأبصارنا فى واقع الحياة بين الناس ما يؤيد هذا فى غير شبهة ، فكم من متاجر أغلقت ، وكم من مصانع تعطلت ، وكم من ثروات ذهبت ، وذلك بسبب ما تسرب الى جميعها من بخس ، أو تطفيف فى الكيل أو الميزان .

ولو أنك تتبعت آيات الكتاب فى شأن الكيل والميزان لوجــدتها فى كثرة كاثرة ، ووجدتها مبثوثة فى عدة سور ، حتى انك لتجد ذكر الميزان أربع مرات فى آية واحدة من سورة الرحمن « والسماء رفعــها ووضــع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيمــوا الوزن بالقســط ولا تخسروا الميزان » .

ومع هذه العناية بشأن الكيل والميزان ، والحض على القسطاس فيهما — وهو تمام العدل — فقد خفف الله عنا ما لا نستطيعه من الضبط حين العجز عن التحكم فيه ، على وجه التساوى بالدقة ، فقــال تعالى عقب ذلك : « لا نكلف نفسا الا وسعها » .

وبيان هذا ، أن فى صفقات المبيع ما يثقل أو يخف عن المساواة نوعا فيهتز الكيل أو الميزان صعودا ، أو هبوطا ، دون قدرة على تمام التحرى ، وهنا يكون الحرج بين الأخذ بالقسطاس ، وبين التسامح فيما زاد أو نقص ، وهو فى ذاته يسير .

فكان من فضل الله على عبــاده أن تجاوز لنا عما لا يمكن ، وعما يشق التحرز منه : زيادة أو نقصا .

(ب) الأمر الثانى فيمــا نحن بصــدده ، قوله تعالى : « واذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى » ، لم يكن العدل منشودا فى المبادلة الماليــة وحدها ، بل فى كل شأن آخر .

وقد جاءت فى هذا التعميم آيات أخرى ، مثل قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » يعنى فى كل شىء .

غير أن الكتاب الكريم أمرنا فى هذا المقام بالعدل فى القــول ، لأن القول أكثر ما يجرى بين الناس ، فمجاله أفسح ، والألسن دائما فى تخاطب ، وفى أخذ ورد ، وفى مغالبة وحوار .

فأمر الله بالعدل فى القول على وجه الاطلاق ، حتى لا تكون أقوالنا متأثرة بالغرض ، ولا يكون للعصبيات أو الخصومات سيطرة على التفسير ، فلا يطغى باطل على حق ، وحينئــذ يكون الأدب الاســلامى هو الطابع الواضح ، ويكون الاخاء الانسانى سائدا بين الناس وتكون هذه الظاهرة كفيلة ببقاء المحبة ، وأحفظ لروح التعاطف بين الجماعة من كل محاولة أخرى تراد للمجاملة .

ورعاية العدل فى القول دون تأثر بقرابة ، أو عداوة ، تدلنا على أن الاسلام يحرص على جانب العدل العام أكثر من حرصه على البر بالقرابة ، مع ما بلغ من وصيته بذوى القربى ، فهو لا يبيح أن يكون العطف على القرابة خادشا للنظام العام ، بل تطرح العصبيات جانبا مادام العدل فى غير جانبها ، وكم كان لهذا التوجيه من أثر طيب فى حياة الجمــاعة يوم كان المسلمون يستمعون ويستجيبون .. فأين نحن الآن من هذا المسلك الذى جذب الى الاسلام قلوبا متحجرة ؟.

(حـ) الأمر الثالث : « وبعهد الله أوفوا » .

والعهد معناه — كما سبق حديثنا — : كل اتفــاق بين طرفين على عمل جائز ، فاذا اقترن بقسم أو اشهاد لله فهو عهد الله .

ومعنى العهد كذلك : ما شرع الله للناس من دين يتعبدون به .

وكل ما يلتزمه المرء لله من طاعة كنذر صدقة أو نحوها فهو عهد الله .

وليس من العهد مطلقا ما يكون فسادا أو اضرارا بالغير دون سبب مشروع .. وفي الوفاء بالعهود منافع للناس ، وتوثيق للروابط بينهم ، ولذلك شدد القرآن كثيرا فى تكليفنا بالمحافظة على العهود ، حتى اعتبر الاسلام الوفاء بالعهد أمارة الايمان الصحيح ، واعتبر الغدر بالعهد نفاقا وخروجا عن الايمان . كما صرح النبى — صلى الله عليه وسلم — بأن المنافق اذا عاهد غدر .

ومن البداهة أن امرءا لا يلتزم عهده الصحيح ، أو لا يخجل من الغدر به لا يكون امرءا كريم النزعة ، ولا مستجيبا لضمير ، ولا مأمونا على شرف .

وأضرار هذه النقائص ليست فردية وانما هى ماسة بصالح المجتمع ، وحسبه ما ورد فى شأنه من تشنيع وتهديد .

ونحن نرى نقض العهد مخزاة فاشية كان يجب أن يتنزه عنها المسلمون .

ولكن الجهل وسوء البيئة أوقعا كثيرا من الناس فيما لا يتفق معأخلاق دينهم حتى خيل لغير الفاهمين أن هذه النقيصة من ناحية التربية الاسلامية .

والاسلام برىء من هذا ونحوه ، وانما الذنب ذنب من تسموا بالمسلمين ، ولم يتعرفوا روح دينهم ولا آدابه .

هذا وقد اعتبرت الأوامر الثلاثة التى تحدثنا عنها « وصايا » وحيننا تحدث عنها القرآن قال : « ذلكم وصاكم به » وحكمة هذا أن الأمر قد يكون فى المندوب غير المحتم .

وأما الوصية فانها تكون فيما يكون أمرا محتما لا تسامح فيه كهذه الأمور التى تحدثنا عنها والله المسئول أن يذكرنا ما أوصانا به وأن يعلمنا ما جهلنا .

تبرئة الله لرسوله من المفــرقين

أ) **((ان الذين فرقوا دينهم وكـانوا شيعا ، لست منهم فى شىء .**

ب) **((انما أمرهم الى الله، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون))**

الأنعام — ١٥٩

تمهيد : لم يكن تشريع الدين من جانب الله ليتشعب الناس فيه ، ويختلفوا حوله ، وانما ليجمعهم تحت راية الاخاء فى الانسانية ، وليكون هذا الاخاء دائما موثقا بحبل من الله — سبحانه — فيكون الناس على صلة بالله وعلى تضامن وتعاطف فيما بينهم ، حتى يتهيأ لهم أن يؤدوا رسالتهم فىدنياهم على أتم وجه من الكمال المنشود .

ومن هذه الالمامة يكون واضحا أن التشريع السماوى من مظاهرتكريم الله لعباده ، حيث لم يتركهم سدى ،و لم يجعل همهم فى الحياة أن يملأوا بطونهم من بطاح الأرض ، ونجادها ، ثم يعودوا آخر النهار كما تعود الأطيار الى وكناتها ، أو الأنعام الى مرابضها .

بل ناجاهم ، وشرع لهم ، ووعدهم بالثواب وفضلهم على كثير من خلقه تفضيلا ، فكان طبيعيا فى ميزان الحكمة أن يكون الدين فى وضعه : عقيدة وشريعة ، وأن تكون العقيدة أصلا ، لا يختلف باختلاف العصور ، ولا يمسه تعديل فى عهد نبى بعد نبى ممن أرسلهم الله الى الناس .

ويكو طبيعيا كذلك فى ميزان الحكمة أن يكون الجانب الثانى : وهو التشريع العملى مسايرا للعقول فى تدرجها ونضجها ، وملائما للحياة فى واقعها ، وملابساتها .

فالعقيدة ايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وبالقضاء والقدر : خيره وشره وباليوم الآخر ، وهذا ديدن للامم جميعا ، وعليه تطابقترسالات الرسل وتوافقت كتب السماء .

والتشريع العملى هو النظام الذى يحدد رسوم العبادات وأشكالها ، فى الصلاة أو الصوم ونحوهما .

ويرسم طريق التعامل بين الناس فى الأموال وفى النظم الاجتماعية : كالميراث ، والزواج ، والقضاء ، ونحو ذلك مما يتصل بالعلاقات ، ويتجه بالناس نحو العدل فيما بينهم دائما الى زمن ما ، أو الى الأبد .

ولا يضير العقيدة المتحدة أن يتطور فى ظلها التشريع بتطــور الزمن وتجدد الرسالات آنفا .

فالدنيا كما أراد الله فى تجدد ، وحاجات الناس فى توسع ، وعقولهم فى تكامل ، فشرائعهم لا تقف بهم عنــد وضع واحد ، والا كانت حيــاة جامدة ، لا تتسع للتجديد ، وكان حجرا على المواهب أن تشرق ، والله — سبحانه — أمر عباده أن يفسحوا خطاهم بالسير فى مناكبها ، وأن يتخذوا من فجاجها مصانع ، وحقولا ، يستثمرونها بمواهبهم ، ويتمتعون بما يتاح لهم م نثمراتها ، وانتاجها .

ولا يقال : ان الدين متعــدد ، لتعدد شرائعه العملية ، فان الشرائع بالنسبة للعقيدة كالأمر الاضافى ، واختلاف الأمر لاضافى لا يعتبر تعددا فى الأصل القائم مقام المحور فى وسط الدائرة .

وقد جرت سنة الله فى خلقه ألا يواجهوا الدين فى أى عصر من عصوره بالقبول التام والاطمئنان ، بل كانت للاهواء الجامحة ، وللجهالات الفاشية، وللعصبيات المتحكمة ، كانت لهذه العوامل وســواها مشــادة فى الدين ، ومناوءات للرسل ، وللانبياء .

فأناس نبذوا التدبر جملة ، وكذبوا رسل الله وأنبياءه ، وقالوا ما قالوا من الكفريات .

وآخرون تدينوا ، ولكن غيروا وبدلوا بالحذف والاضافة ، فيما شرع الله لهم ، بل وفى العقيدة نفسها ، وافتروا من بشائع الأكاذيب على الله وعلى رسله ما يظاهر أهواءهم الباطلة .

وفـريق ثالث أخير : نشـأ عـلى دين حق ، ثم طغت عليهم نزعات الاباحية ، والتقاليد الجريئة فأخذوا يتدخلون فى تشريع الله ، ويتعرضون لكتابه الكريم ، بالمناقشات المتبجحة ، وينكرون بعض آحكامه ، ويتجاهلون الكثير من آياته ظانين أنها حرية رأى ، وأن القرآن نفسه يرضى لهم بتلك الحرية الطائشة التى هى الكفر الصراح بعينه ، وذلك سفه وجحود لا غير ، وهذه النزعات على اختلافها تباين الوحدة فى العقيدة ، اذ فيـها تكذيب للرسل ، أو لبعضهم ، وفيها تكذيب لكتب السماء أو لبعضها ، وبالتالى فيها تكذيب للدعوة الموجهة الينا من عند الله .

وكان المفروض أن نستقبل الدين المبلغ الينا فى كل عصر من عصوره بالقبول ، وأن نقول : آمنا به ، كل من عند ربنا ، لا نفرق بين أحد من رسله .

(ا) ولكن شاءت حكمة الله كما سلف ، أن يوجـد مفرقون ، وأن يحاسب هؤلاء المفرقون على ما اجترحوا بميولهم ، واختيارهم .

وكان النبى — صلوات الله وسلامه عليه — يود أن لو آمن الناس جميعا ، ويجهد نفسه كثيرا فى اقناع من يحاوره ، غير عالم بما سبق به القضاء فى شأن أولئك المتمردين ، حتى يخبره الله بما كان خافيا عليـه ، ويصرفه عن مناقشتهم ويعزيه عن تخلفهم ، حتى لا يكون فى نفسه شىء من أسف على هؤلاء .

ومن هذا قوله فى الآية التى سقناها : « ان الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعا ، لست منهم فى شىء » .

يريد الله — وهو الأعلم — تبرئة رسوله من تبعات المفرقين للدين على اختلاف منازعهم ، وأنه بنجوة من شأنهم كلهم ، فالمتشبثون بدين قديم ، هم المجـافون للدعـوة الجـديدة ، والمشككون فيـها ، أو ممزقـوها وجاعلوها أبعاضا يأخذون ببعضها ويتركون بعضها ، والمتظاهرون بالقبول وهم يشقون لأنفسهم طريقا غير طريق الجماعة ، كل أولئك فى حيز غير حيز القرآن ، وهم فى قطيعة عن جانب الله ، ومحمد ليس ذا صلة بما هم عليه .

ولا هو متبوع لهم وان زعموا ، ولا شافع فيهم وان تعلقوا فى ذلك بالرجاء « لست منهم فى شىء » .

(ب) ثم يأتى ما بقى من الآية فيصرح بأن أمرهم الى الله ، وأنه — تعالى — سينبئهم بما كانوا يفعلون .

وهذه الاحالة الى الله ليست مظنة الرفق بهم ، وانما هى لاعلانهم بالهول المرتقب لهم ، فانهم فرقوا ما جمع الله ، وكذبوا وجمحوا وكفى بهذا خروجا على الله وانحيازا الى غير جانبه .

فالأولى بهم أن يحرموا من رعاية الله ، وأن يتركوا فى قطيعة عن ربهم ، كمن يخر من السماء ، فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق .

قد يقال : ان ذلك حديث معاد ، وليس فيه من توجيه جديد .

ولكن هذا شأن بالغ الخطورة ، والعود اليه من قبيل الجديد ، فانا نلاقى فى عصرنا هذا شيئا من التفريق لا يهون خطره بجانب ما كان ، فان كان للاولين عذر من جهالة أو استسلام للدسائس فما عذرنا اليوم ؟

ونحن اذا رجعنا الى الماضى فانا نرى فى ضوئه من المخاوف لنا مايثير عندنا رهبة من النكسة فى تلك الضلالات .

يحكى لنا القرآن : أن الناس كانوا أمة واحدة ، على البداوة والجهالة.

« فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه ... » الخ .

وترى من خلال هذه الآية ، وأمثالها أن انقسام الناس حول دينهم ، وتفرقهم فيه ، ما وقع الا من أهل الكتاب السماوى أنفسهم ، وقد ظل التفرق مسترسلا فى طوائفهم ، حتى رأيناهم بعد : لا يرضون الا باحتكارهم الدين وتسميته باسم طائفتهم وما هو الا دين واحد سماه الله بتسمية من عنده « ان الدين عند الله الاسلام » .

ونحن نعلم أن ابراهيم عليه السلام كان — بعد رسل سبقوه — الدوحة التى تفرعت منها النبوات ، حيث جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب كله ، ولم يكن لابراهيم كتاب ، بل كانت صحف وجيزة ، وكانت رسالته للدعوة الى التوحيد ، ثم كانت التوراة فى عهد موسى وفى بنى اسرائيل .

ومن عهد التوراة وما يليها ، تزلزلت الوحدة الدينية ، ونجم فى بنى اسرائيل ربانيون وقراءون ، وغيرهما وتعرضت التوراة لشىء يقال فيه ما يقال ، ثم جاء زمن عيسى عليه السلام فكانت دعوته مثار الانقسام والتفرق من جديد كما يفاد من الآيات السابقة ونحوها فى غير اسهاب من جانبنا ، فان ذلك مجال فسيح .

ونحن نعلم أن العرب وأهل الكتاب جميعا يدينون لابراهيم ، ويصدقون برسالته ، وانهم يتسابقون فى الانتساب اليه ، فاذا كان فى الانتساب اليه فخار واعتزاز — وهو بحق فخار واعتزاز — فقد كان ابراهيم على دين هو — من عند الله — الاسلام ، وليس الاسلام باسم جديد خاص بشريعة محمد صلوات الله عليه ، وانما هو الدين السماوى الذى بعث به ابراهيم والأنبياء جميعا ، الى خاتمهم محمد بن عبد الله رغم المخالفين . وابراهيم لم يحمل لدينه عنوانا غير الاسلام ، فلم يكن مبتدعا لاسم طائفى من الأسماء التى اخترعت بعد .

ولكن تعاقب الأزمان ، أفسح للاباطيل أن تستند الى دين ابراهيم ، فجثمت عليه فى بلاد العرب جاهلية وجثمت عليه فى غير بلاد العرب عصبيات ومن خلال هذه الفجوات التى أحدثتها الجهالة والعصبيات تسربت الى دين ابراهيم تخريفات ، أو تسميات ، وشقاق ، ومنازعات ، ولم تعد للوحدة الدينية صبغتها ، ولا وقفت المنازعات عند حدودها ، بل كانت وثنية . وطائفية . ولم تكن حقا الا عند من عصمهم الله ، وكان الأولى ، لو أراد الله : ولم يغلب على الجماعات تيار العصبية ، أن يراعى الناس وحدتهم فى الدين كما كان ابراهيم ، وهم يحرصون على الانتساب اليه ؟

وفى هذا يقول القرآن : « ما كان ابراهيم يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » .

ويقول : « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) والذين آمنوا » .

وهذا تسجيل سماوى فيمن انحاز عن دعوة ابراهيم التى رددتها الكتب السماوية الحقة ، والتى نهض بها الرسل من العرب — اسماعيل ومحمد — ومن بنى اسرائيل .

فلا يكون من ابتلى بهذا الانحياز متحريا للحق فى الدين كما كانوا يتحرون فى الانتساب اليه .

ظلت هذه التشقيقات فى الجماعات المتعددة من اتباع الكتب السماوية حتى دبت فى ثناياها جميعا تشقيقات فرعية ، فصارت الطائفة الواحدة ممذهبة بمذاهب متعددة يخالف بعضها البعض ، حتى فى أصل العقيدة ، لا فى الشريعة العملية فحسب .

لا تتهم تلك الطوائف كذبا ، فلكل طائفة منها أربابها ، وآباؤها ، ومعابدها ، ومذاهبها ، وتقاليدها ، ولا يتأتى أن يكون كل ذلك أمرا واحدا ، كما هو الشأن فى الدين الذى جاء من عند الله ، وكان عليه ابراهيم والأنبياء .

ولا نلجأ فى الاستدلال على هذا كله الى القرآن ، وفى القرآن غنية وفيرة بالأدلة حتى لا يقال : انك تستدل على قوم بغير ما يؤمنون .

ولكنا نتحدث الى القراء من ناحية القرآن قليلا ، ومن ناحية العقول والواقع كثيرا ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

ولا نخص تلك الطوائف وحدها بتهمة التشقيق أو الابتداع أو المساس بتشريع الله .

فقد أصاب الاسلام شىء كثير من ذلك منذ فجره الأول الى ساعتنا هذه .

فما كاد ينبثق نور الاسلام ، حتى تربصت له عصابات حانقة عليه من الفرس أو اليهود أو العرب أنفسهم .

وكان التظاهر بالاسلام سبيل التمكن من بث الدسائس ، وتمزيق الوحدة ، وحشر الأباطيل بين الحق ، حتى انتهى ذلك الى الانقسام والتقاتل .

والخوض فى الدماء الزكية ، ثم نجمت عن هذا التطاحن اتجاهات مختلفة وتكاذب فى فهم الدين ، ومزاعم جريئة ومذاهب باطلة .

وليس منها — طبعا — مذاهب الأئمة ، فانها لا تعدو الاجتهاد فى تطبيق النصوص الصحيحة ، وتحرى المعنى المراد .

والاجتهاد أمر سائغ مادام بعيدا عن جانب العقيدة ، والابتداع فى الدين .

وما زال الأمر بعد ذلك على انكار التفرق ، وابتداع النحل ، والتدخل فى التشريع الدينى بتوجيهات غير مستقيمة فى ميزان العقل ، ولا سائرة على هدى البحث العلمى المتزن ، كمذهب البهائية ، وما يشابهه .

وكان الظن أن يكون للثقافة المدنية شىء من تقويم الأفكار ، ومؤازرة الدين فى تهذيبه للانفس الجامحة ، وايضاح الصواب للعقول الضالة ، فان العلم كله : دينيا أو مدنيا : أوشاج بين أهله ، ورحم متصلة ، واتجاهات تتلاقى على الحق ، اذا خلصت النيات ، وبحث العلم للعلم .

ولكن الثقافة المدنية ، هى الأخرى ، أصابها ما أصابها ، فأصبحت فى كثير من أنواعها بوقا مزعجا لنشر الاباحية ، ومعرضا لأنواع الضلالات ، ووسيلة الى المغالطة فى بدائه المعلومات الدينية .

والى جانب هذه الثقافة الموبوءة نفوس مريضة ، تتحين الفرص ؛ وتتلمس المعذرة للمروق من الدين .

ومن كان يظن أن رجال الصف الأول فى المتقفين ثقافة مدنية يتطفلون على البحوث الاسلامية ؟ ؟ لا ليفهموها ، ولكن ليثيروا فيها الشكوك ، ويهدموا قداستها عند الناس ، ويصرفوا المطمئنين الى دين الله عن التجمع حول دين الله الى مباذل الشيطان ومساقط الفجور .

فهذا انسان يقلد الشيوعية فى انكار الاله ، وفى الوقت نفسه يتظاهر ويتبر منا بخطر الشيوعية .

وذاك انسان يجاهر بالدعوة الى الأخذ بنظام الزواج المدنى ، وينكر الدين فى هذا ، وينكر القرآن .

وثالث يتساءل : هل صحيح أن الرجال قوامون على النساء ؟ والقصد من هذا هدم قاعدة القرآن .

ذلك كله ، وما يشاكله تفرق فى الدين ، ومفارقة له ، والقائسون به ينتسبون الى الثقافة ، فهل من ثمرات الثقافة ومما تهدى اليه الثقافة ألا يكون دين ؟

واذن : تكون ثقافتهم هذه مرادفة للجاهلية الأولى فيما تنزع اليه ، وان اختلف اللون بينهما بالطلاء والتمويه الجديد .

وان المتهافتين على زعزعة العقيدة عند الناس ، أو تفريقهم فى المحيط الدينى الى مذاهب متناكرة ، والحيدة بهم عن التسليم لله لا يقف شرهم عند هذا التفريق فى التدين ، بل يمتد ، ويمتد حتما الى المبادىء الوطنية . والى تمزيق الوحدة الاجتماعية .

فان الدين أول ما يكفل تربية الضمير ، ويغرس الخشية من الله فى قلوب الناس ، ويذكرهم بأن القعود عن واجب الوطن خيانة عظمى للجماعة المتواطنة ، وتمكين للاعداء من كبت الدين وأهله ، والتحكم فيهم بما يكرهون حتى لا يبقى للدين دولة ، ولا يبقى لدولة الدين كيان ، ولا مهابة .

وقصارى الحديث : أن الدين أوثق رباط شرع من جانب الله لجمع الصفوف ، وحراسة الوطن .

والماضى الذى لا ينبغى تجاهله يذكرنا دائما بما بلغ المسلمون أولا من بأس وسلطان ، وبما أصابهم بعد ، بسبب التفرق ، واشتغالهم بالحزبيات، ووقوف بعضهم فى وجه البعض .

فالناعقون اليوم بأصوات الغربان حول الدين ، وتعاليمه يجنون على الوطن من حيث يقصدون ، أو لا يقصدون ، وهؤلاء بحاجة الى التنكر لهم ، والأخذ على أيديهم .

وانهم لا يؤتمنون على مبدأ ، بعد أن هان عليهم الدين .. وتبت أيديهم « ولعنوا بما قالوا » ، « والله من ورائهم محيط » .

من عدالة الإسلام
بيان الجزاء قبل المحاسبة

ا) ((من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها))

ب) ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها ، وهم لا يظلمون)) .

الأنعام — ١٦٠

لو أن الله بسط علينا تكليفه ولم يفصح لنا عن جزاء نستوجبه بعد ، لوجب أن نؤمن ونرضى ، ونقول : بيده الأمر ، وله أن يفعل بنا ما يشاء من عذاب أو مغفرة .

ولكن الله أعدل من أن يكون ذا سلطان دون رحمة ، وأكرم من أن يكون آمرا لنا دون عون من جانبه وتيسير .

وقد جعل من تكريمه للانسان أن يتبسط فى هدايته ببيان الخير والشر ، وأن يفرض على نفسه تعالى جزاء طيبا لعبده اذا ما أحسن ، كما أنه يثأر لسلطانه ممن أساء .

وكان من بره بعبده أن يكاشفه بأن الجزاء الحسن لا يقف عند غاية قريبة ، كما كان من لطفه ألا يدفع بالمسيء بعيدا عن تكرمه ورفقه حتى مع اساءته .

وبهذا البيان يكون الله جعل للانسان شأنا حريا بالتقدير والأخذ به اذ وضع له نظام المحاسبة فيما له وما عليه ، ولم يجعله فى مستوى غيره من دواب الأرض .

وبهذا البيان أيضا يكون التفاضل بين الناس ميزانا لأقدارهم ، وتحديدا لمنازلهم ، وهذا هو العدل الذى رضيه الله فيصلا بينه وبين خلقه ،

وهو القسطاس الذى شرعه للعباد فيما بينهم تأسيا بسنته فيهم ، واقتباسا من توجيهاته لهم .

وكان مما حفل به القرآن فى هذا — قوله سبحانه :

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها » .

فالله يوقظ عبده من غفلاته ، ويوثق له العهد من جانبه بأن له عند ربه عن كل حسنة يأتيها فى دينه ، أو فى شأن من شئون الدنيا جزاء طيبا : عشر حسنات .

وهذا عهد سيق فى جملة اسمية ، تؤذن بتأكد جوابها ، اذا وقع مقدمها ، فكيف اذا كان سياق ذلك العهد ممن لا يختلف وعده سبحانه ؟

هذه مشارطة انعقدت بين الأعلى وهو الداعى ، أو هو الموجب ، وبين الأدنى ، وهو المدعو . فاذا وعينا ما للجانب الأول ، جانب الداعى . من سمو فحسبنا بهذا بل ببعض هذا كفاية من الضمان والاطمئنان ، والترغيب فى الاقبال على الوفاء من أهون الجانبين مع أعز الجانبين ، ولله المثل الأعلى .

على أن الله تعالى لم يقف بوعده عند عشر الحسنات فقط ، بل بسط لدينا طريق الرجاء الحق ، حتى وصل بنا الى سبعمائة ضعف ، وضرب لنا المثل الذى نحسه ، ولا نرتاب فيه فقال : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة » فهذه حبة أنبتت سبعا فى مائة ، وليس ذلك مما يستكثره تقديرنا من فيض الله ، بل تجاوز فضل الله ذلك التقدير فقال : « والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » وهذه الكثرة مكررة فى غير مقام من آيات الله .

وفى هذا استنهاض للعبد أن يتدارك نفسه ، وألا يجهل مصيره ، حتى لا ينفق حياته فيما لا يجديه الا تقلبا فى دنياه ، وتشاغلا بألوان زمانه .

وعجيب من الانسان أن يتلقى هذا ، وأن يتمثل فى غير خفاء مصداقة فى الحبة والسبع السنابل ، ثم لا ينشط الى هذا الربح الكثير ولو بالعمل اليسير .

كأن الانسان قد بلغت به الأنانية أن يطمع فى الثواب مضاعفا دون بذل من عمله ولو قليلا ، وما هكذا سنة الله فى التبادل وفى الأخذ والعطاء ، وفى استحقاق ما عنده من فضل .

ولا يستقيم فى تقدير العقل الذى وكلنا الله الى الاهتداء به أن يكون حصاد بلا غرس ، أو كسب بلا محاولة .

مع أن الانسان قد أعطى من نفسه كثيرا لدنياه ، وأخذ منها ما أخذ ، قليلا أو كثيرا ، غير انه لم يتحر حلالها من حرامها ، ولم يعدل مع نفسه فى شأن أخراه ، فاضطرب سيره ، وكان دائما فى غير اعتدال .

والله تعالى لم يبخل عليه بنعمائه : لا مع عصيانه ، ولا مع كفره ، وهى ان لم تكن تكريما له حينئذ فهى حجة عليه ، وتطويق له .

ولقد اقترن الوعد الكريم فى جانب الحسنات بانذار رحيم فى جانب السيئات ، فلم يمدد الله يد البطش الى عبده حين لا يفعل الخير كما بسط له يد الرحمة من قبل ، بل قابل صنيعه السيىء بمثله من جزاء دون زيادة ، حتى ذكر الله ذلك فى عبارة حاصرة « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها » .

فمجال الأمل فى الزيادة مفتوح فى باب الخير ، والخوف الذى يقابله من زيادة العقوبة مدفوع ومأمون بهذا النفى الحاصر . فانظر كيف يصاغ الوعد الكريم فى عبارات فضفاضة ، وكيف يصاغ الوعيد المخيف فى عبارة محدودة ؟ وهذا لون من ألوان الفضل يجله العقل حينما يدركه .

واذا كانت للمحسنين درجات مستحقة بعملهم ، ودرجات تمنح لهم فضلا من ربهم ، فجميعها صارت حقا لهم فى تقدير الله . وتفاوتهم فيما بين عشر حسنات الى ما هو أكثر من سبعمائة انما هو بحسب تفاوتهم فى صدق النية ، وتحرى موضع البر ، وأهمية الأثر المترتب على العمل ، وما هنالك من دوافع خفية ، ومن مآرب يعلمها الله وحده ، وعلى أى حال ، فأقلهم حظا صاحب العشر الحسنات ، ولا حرج على منازلهم ألا يكونوا فى وضع واحد « ولكل درجات مما عملوا » .

وتفاوت المسيئين ليس لزيادة فى العقوبة من جانب الله ، بل لتفاوتهم أنفسهم ، فى قبح مساوئهم وبشاعة خطاياهم ، والله تعالى قد طمأن الجانبين على ما أوضحه من تحديد فى الجزاء فقال فى نهاية الآية « وهم لا يظلمون »

فالاحسان الى تصاعد فى الجزاء الحسن دون حرمان .

والاساءة غير متجاوزة مداها فى العقـوبة ، وقد تكتب حسـنة اذا انصرف عنها من كان على نية فعلها .

هذه عدالة اقترن بها لطف وكرم شملت خلق الله ، حتى المسرفين فيهم، فقد ذكر الله فى الكتاب غير مرة أنه لا يظلم الناس مثقال ذرة ، وان تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما .

ولكن كيف تتصور الاحسان فى الآخرة الى من كفر بالله فى دنياه ؟

كيف وقد هدده القرآن بآيات العذاب والخلود فيه ، وبأن ماله من عمل طيب هنا يكون هناك هباء منثورا ؟.. ذلك اشكال . ولكنه اشـكال يبدده شيء مرسوم أمامنا فى القرآن .

فالنار دركات ولها سبعة أبواب ، ولـكل باب من أهل النـار جزء مقسوم ، والعذاب فى النار لا يكون من درجة واحدة ، بل هو دركات كما أن نعيم الجنة ليس سواء بين جميع من قسمت لهم الجنة .

وهذا ما اقتضاه شأن ربك ، وشهدت له الآيات .

فصاحب الطيبات والمبرات من غير المؤمنين يكون فى حالة أخف من سواه ، وعدل الله يأبى أن يكون أبو لهب وأبو جهل مثـلا فى جانب أبى طالب ، فهؤلاء جميعا لم يؤمنوا ، وحكم الله فيهم واضح ، وهو الخلود فى النار ، ولكن أبا طالب آزر النبى وكفله ، وذب عنه ، وأبو لهب وأمثاله آدوه وآذوه ، فهل يكون الموقف هناك سواء ؟ على أن ذلك التفاوت لا يؤذن مطلقا بهوان العذاب على الكافرين مهما يكن ، وانما هو تفاوت نسبى فيما بينهم ليؤمنوا — وقد فاتهم الأوان — بأن الله حق فى وعده ووعيده ، وأنه ، بعدله ، قد حكم بين العباد .

هذا هو القسطاس الذى تهدى اليه الفطرة ويشهد به التنزيل « وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ، انه بما يعملون خبير » .

وهذه كلها توجيهات من الله الى ما يناط بنا من تكاليف ، وما يطلب الينا من سياسة أنفسنا : شعوبا ، وحكومات ، وأفرادا ، وجماعات ، وآخذين ومعطين ، وأتباعا ومتبوعين ، فما بقيت لنا بعد ذلك من حاجة الى بيان . ولم يبق الا أن نعي وأن نأخذ أنفسنا بما وجه الينا .

وما نكاد نجد ثقلا فى الأمر ولا بعدا عما ننشده من هناءة واحتمال فى يسر ، وانما هو اقتناع ، واقبال على ما دعينا اليه ؛ والسبيل معبدة ، والمحجة واضحة ، والأهداف كريمة مضمونة .

ونظرا لأن هذه السبيل أظلمت قديما فى وجه أناس ، — وربما بقيت على ظلامها فى وجوه آخرين — شاءت رحمة الله ألا تكون الموعظة فى كتابه على نمط واحد ، ولا للمرة الواحدة ، بل صاغها فى عبارات أخاذة ، ورددها فى أساليب رائعة لا يملها لسان ناطق ، ولا تسأمها على روعتها وفوتها أسماع الناس ، منذ تلقاها ، وكلم بها ترتيلا ؛ محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، وستظل على شأنها هذا الى أن تدخل الدنيا بعوالمها فى عالم سوى هذا كله .

آية الموضوع تعتبر قولا فصلا مما عاهد الله به عباده ، وتعتبر بعد أن سبقها ما سبقها تمهيدا لما بعدها من آيات جاءت من مقاطع الكلام .

الأولى : « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم . دينا قيما ، ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » فهنا مجاهرة من محمد لقومه وللناس بأن الله هداه بوحيه وتشريعه الى الدين المستقيم الموصل الى الايمان الحق والعمل الحق والنجاح المنشود ، فهو دين الرسل ، ودين ابراهيم الذى يؤمن به ولا يطعن فيه أولئك المخالفون المتهافتون على نسب ابراهيم من عرب ومن يهود ونصارى .

الثانية : « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

مقتضى ما تقرر من حقية دينى : أن تكون عباداتى وأعمالى فى الحياة وما يتصل منها بالممات كلها خالصة لوجه الله وحده لا شريك له ، كما أمرت بذلك واقتنعت به ، وأنا أول مستجيب من المسلمين .

الثالثة : « قل أغير الله أبغى ربا ، وهو رب كل شىء »

يعني : اذا استقر الأمر على أن ديني هو الحق ، وأن عملي كله الحق ، فكيف أعدل عن ربي الواحد الى غيره فأتخذه ربا وهو باطل مهما جعلتموه .

تدعونني يا كفار قريش ، الى متابعتكم فى أرباب باطلة . وتزعمون أنكم تتحملون عني ما أرتكب ، مع أن كل نفس تحمل مسئوليتها . وكسبها لا يكون محسوبا على سواها ، فكله مكتوب فى صحائفها ولا يعقل أن يرتكب الوزر انسان ثم يتحمله عنه فى الآخرة انسان غيره ، هذه مزاعم شيطانية ، وتخريفات جنونية ، فكيف أستجيب لها ، وأعدل عن صراطي المستقيم ؟ كل نفس بما كسبت رهينة ، وكلنا راجعون الى ربنا الحق « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

هذه معالم شاخصة ، وهي بينة الهدى لمن اهتدى ، ومن أغمض عينه عن ضوئها فلن يضير الا نفسه ، وستزل قدمه فى ظلمة جهله ويبقى نور الله لا يطفئه ضلال المخالفين .

ما ضر شمس الضحى فى الأفق طالعة
ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

هذا — وقد عرضت الآية الأخيرة للقربات التى يعملها مسلم ويهبها لمسلم متوفى ، وهل يتفق أن أهب عملي لغيرى ، مع أن الآية صرحت بأن كل ما كسبته نفس فهو عليها لا يحمله غيرها ، ولا يكون للانسان الا ماسعى.

وقد أفاض فيها المفسرون قديما وحديثا ، والذى لاشك فيه أن عمل الأبناء ودعاءهم مقبول لأبويهم ، وأن الصدقات يصح أن يوهب ثوابها لأى مسلم ولو غير قريب ، وكذا الدعاء . وفى هذا أحاديث الرسول .

وأما القراءة والنوافل وجعلها من الأجنبى للاجنبى عنه ، فهى عند الباحثين ، بين نفى واثبات ، اذ لم يرد فى هذه الأخيرة دليل قاطع ، وربما كان الأمر بحاجة الى الاقتصاد فى هذه التوسعات ، وأنا أميل الى قول المثبتين لنفعها لمن وهبت له ، فانها من البر بين مسلم ومسلم ، والله يهدى سواء السبيل .

لمحات زاجرة من صدر التاريخ

أ) ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام .
ب) ثم استوى على العرش .
جـ) يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثا .
(آية ٥٤ ــ الأعراف)

ومنذا يحدثنا فى صدق عن الحلقة الأولى لهذا الوجود : سوى القرآن الذى لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه ؟ ؟

أمكن للانسان أن يتعرض باجتهاده فى العلم لتقدير الزمن الذى اجتازته الدنيا ، قبل الميلاد ، أو بعده : استيحاء من الآثار ، أو متابعة لنقول مروية عن سلف . ولكنه — حتى اليوم — لم يقطع على وجه التعيين بضبط هذا الزمن ، فظلت تكهنات الفلسفة — فى تصوير الشخصية الانسانية قديما ، وتدرج الحياة بها . — قابلة للاضافة والحذف والتصديق والتكذيب .

أما الجانب المتعلق بخلق السموات والأرض ، وما يتصل بهما ، فقد زودنا القرآن بشىء من المعرفة عنه ، لندرك — ولو اجمالا — أولنا فى هذا الوجود ، كما عرفنا من طريقه منتهانا فى هذا الوجود وما بعد هذا الوجود .

وفى العلم بأولنا وآخرنا من طريق القرآن ما يغنى ، وأكثر مما يكفى للتدبر ، والاقناع ، والايمان ، والتجاوب مع دعوة الله ، والتصديق بكل آياته المتلوة فى كتابه ، أو المنشورة فى سمائه ، وأرضه ، وفيما بينهما : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع ، والأبصار ، والأفئدة ، لعلكم تشكرون » .

وفى الآية التى أسلفنا من سورة الأعراف يحدثنا الكتاب :

أولا : بأن ربنا هو الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام .

وثانيا : بأنه تعالى استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض .

وثالثا : بأنه يغشى الليل النهار : يطلبه حثيثـا . فالله — سبحانه — يفاتحنا فى هذا المقام بأمور ثلاثة يسوقها مساق التعليم لنا بما كنا نجهله ؛ ومساق التنبيه على ما نحن بغفلة عن التفطن لأسراره — وفى العلم بذلك ، والتفطن لأسراره حافز على النشاط العقلى ، وتحرر الأذهان من هدأة الركود الى توثبها فى مجال العلم ، واستجلاء ما هنالك من خفايا تزداد بها المعرفة ، وتتجلى بها حضارة الانسان فى دنياه .

ففى توجيهات الدين واشادته بما أبدع الله فى ملكه أضواء تتيح للعقول أن تكشف عن كثير وكثير ! ! .

ثم ما مقدار اليـوم من الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض ؟ ؟ قالوا : المراد باليوم الوقت مطلقا ، دون تقيد بقدر معين ، لأن التقدير انما حصل بعد تمام خلق الأفلاك وتنظيمها ، ولم يكن شىء من هذا حين خلق السموات والأرض .

والراجح : أن اليـوم هو المعروف لنا الآن ، من طلوع الشمس الى غروبها ، فان الله يخاطبنا ويخاطب عباده من قبل ، بعد تمام الخلق ، واستقرار النظام للأفلاك ، ومعرفة اليوم الذى يخاطبنا به ، ونستطيع بمعرفته أن ندرك قدرته على ايجاد السموات والأرض فى ستة أيام مما نعهده ، فلا ضرورة ، بل لا وجه لتفسير اليوم بغير هذا المعروف .

ثم لماذا كان الخلق فى ستة أيام ، ولم يكن دفعة واحدة ؛ والله قادر على كل شىء ؟ ؟ .

لهذا التأنى حكمتان : احداهما — تعليم الناس أن يتريثوا فى صنيعهم بالقدر المستحسن حتى لا يأخذهم التسرع ، ويكون التعجل عرضة للخطأ ، وفوات المنفعة ، وفى ذلك ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم : « التأنى من الله تعالى — يعنى من سنته فى خلقه ، وهديه لعبـاده — والعجلة من

الشيطان » يعنى من نزغاته ، وفتنته ، ليفوت على الانسان فرصته ، كما تعجل الشيطان آدم وحواء فى تحريضه لهما على الأكل من الشجرة التى نهيا عنها ، حتى خدعهما بالقسم والالحاح ، ثم كان ما كان .

وليس القصد من التأنى التراخى فى بطء ، ففرق بين التريث لتمحيص الرأى ، وجمع الفكرة ، ثم العزيمة والتوكل ، وبين الفتور أو التخلف عن انتهاز الفرص « فاذا عزمت فتوكل على الله » .

الحكمة الثانية — ان ابداع السموات والأرض على وجه التدرج فى ستة أيام ينبىء عن ترتيب شىء على شىء ، وتوقف ايجاد على ايجاد كما أحاط علمه ، وتعلقت ارادته ، وقدرته — سبحانه .

فلكل صفة من هذه الصفات وظيفة تؤديها فى ابراز الممكن من العدم .

وكما يفكر الانسان منا فى اقامة منزل مثلا ، فيكون المنزل حاضرا فى ذهنه ، وشاخصا فى خياله اجمالا ، ثم يختار له الرسم الذى يرتضيه ، ثم يستخدم قدرته فى التنفيذ — ولله المثل الأعلى .

ومما يشهد لذلك أن بعض الآيات يفصح عن هذا فى مثل قوله : « ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر » ، « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » ، « ما خلقناهما الا بالحق » . ثم ما هى الأيام الستة ؟ تحديدها بالذات لا تتوقف عليه عقيدة ، ولا يتعلق به تكليف عمل ، ولذلك لم يرد بتسميتها نص قاطع ، وفى هذا آثار مروية تكفى فى الجملة لتمييز بعضها عن البعض .

وأقربها الى القبول أن ابتداء خلق السموات والأرض كان فى يوم الأحد ، ثم الاثنين ، ثم الثلاثاء ، وهكذا انتهاءه يوم الجمعة ، فتكون المدة ستة أيام فقط وتكون التسمية مطابقة ، فالأحد هو الأول ، والاثنين هو الثانى ؛ وآخرها الجمعة : وفيه تم اجتماع الخلق وخلق آدم ، على ما أراد الله .

وقد بقى يوم السبت ؛ وأكثر العلماء على أنه لم يكن فيه خلق ، ويبدو واضحا أن حكمة الله فى هذا تعويد الناس على عدم الانهماك المتصل ، وتفرغهم للراحة ، ولاصلاح شئونهم الخاصة فى يوم من أيام الأسبوع ، فان

الدأب والانهماك يذهبان بالصحة ، ويهددان بالانقطاع ولذلك نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن اجهاد النفس ، حتى فى العبادة — ان لبدنك عليك حقا . ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق .. ولن يشاد الدين أحد الا غلبه .

وكان من تشريع الله لليهود أن يتركوا العمل الدنيـوى يوم السبت للاستجمام والراحة ، فالسبت معنـاه الراحة ، وكان عليهم أن يعظموا هذا اليوم ، فلا يزاولوا عملا غير العبادة المطلوبة منهم ، فى حدودها المعينة ومع علمهم بهـذا التشريع يومئذ فقد كانوا ينتهكون حرمة السبت ، اذ تكثر الأسماك فى البحر أمامهم فيتهافتون على صيد الأسماك ، ناقضين عهد الله . وناكثين لحرمة يوم السبت ، وكانت حكمة الله تعالى تقابل صنيعهم باختفاء الأسماك بعد ظهورها ، فلا يقومون بحق الله ، ولا يصيبون شيئا مما طمعوا فيه « اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسـبتون — أى لا يحترمون السبت — لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » .

وهكذا شأن بنى اسرائيل حتى اليوم : لا يدينون لله بدين حق ، ولا تشبعهم الدنيا بأسرها ، وقد تملكهم الجشع المفرط حتى رخص عندهم كل شىء يعتز به سواهم ، وحتى زعموا سـلفا أن يد الله مكتوفة عن العطاء والسخاء « وقالت اليهود : يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ، ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » .

٢ — المرتبة الثانية مما فى الآية — « ثم استوى على العرش » .

هناك عرش ولا جرم ، وقد تحقق الاستواء عليه من جانب الرحمن سبحانه ، وتقرر ذلك فى جملة من الآيات بما أخبرت به حقا ، وعقيدة ، لا تقبل شائبة من تردد ، ولا ترقى اليها شبهة ، ولكن : ما معنى الاستواء بالنسبة لله ؟ هل هو جلوس كجلوسنا على الكرسى ؟ ؟ تعالى الله عن ذلك ! أو هو استيلاء ، وتملك ، كما نستولى نحن على شىء مملوك ، دون تصويره باستيلائنا ؟ ذلك كلام اضطرب فيه علماء ! ! . ثم ما هو العرش ؟؟ هل يقال : انه فلك الأفلاك يعنى أعظمها ويحيط بها ؟ ؟ أو يقال كذاكذا ؟ ؟ والحق الذى لا محيص عنه ، ولا محذور فيه أن الاستواء والعرش مما

استأثر الله بعلمه ، فنحن نعرف العرش باســـمه فقط ، ولا نحاول تفسير الاستواء عليه بل نؤمن ونطمئن ولا نكلف أنفسنا شططا فيما لم يكلفنا الله ببحثه والتكهن فيه ! ! .

وطالما ثار حول ذلك الشأن جدل ، واحتدمت خصومات مذهبية ، أو اختلطت بحوث وفلسفات ، وركضت أذهان وعقليـــات وراء تحديد المعنى لهاتين الكلمتين ، ثم لم يكن لهذا نهاية ، فلا حاجة بنا الى التعلق بلجاج عقيم .

المرتبة الثالثة لما فى الآية — « يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثا » .

يجعل الله الليل غاشيا للنهار وطارئا عليه فيحيل ضوءه ظلاما أو يجعل النهار غاشيا لليل ، فيحيل ظلامه ضوءا ، وكلا التوجيهين صحيح ، وواضح أن النهار يعقب الليل ، وأن الليل يعقب النهار ، وفى القرآن آيات تشهد بكل ذلك ، فالله تعالى يقول : « والنهار اذا جلاها — يعنى الشمس بعد الظلام — والليل اذا يغشاها » يعنى يطرأ على النهار ، ويغطى الشمس فيكون الظلام بعد الضوء .

وقد اجتمع المعنيان فى قوله عز شأنه « يكور الليل على النهار — يجعله محيطا به — ويكور النهار على الليل » يجعله كذلك غاشيا له .

وسواء أكان هذا أم ذاك فهو نظام رتيب وسير حثيث ، لا يلاحقه خلل ، ولا وهن ، والى هنا تكون آية الأعراف بينة المعنى وكافية الهداية .

وقد عززتها آيات أخر ، فآية سورة السجدة تؤكد ذلك ، وتزيد عليه أن الستة الأيام كانت لخلق السموات والأرض وما بينهما ، ثم تأتى آية سورة ق — فتزيد على ما فى الآيتين قوله تعالى : « وما مسنا من لغوب — يعنى مع ما فى هذا الخلق العجيب من عجب ، وما له من شأو ، لم يكن فى الأمر بالنسبة لله تعالى أدنى لغوب : تعب ، كما يحصل لنا من مزاولة عمل نهتم به ، ضرورة أن طاقتنا محدودة ، وذلك تنويه على عظيم قدرته ، وتنزيه له عن شائبة العجز ، وتقديس له تعالى عن الحاجة الى راحة ما ، كما يزعم بنو اسرائيل قبحهم الله : أن الله خلق ما خلق فى ستة أيام ، ثم استراح من عمله يوم السبت وبعد الذى أسلفنا بقيت لنا حاجة الى العلم بأمرين :

أحدهما — مقدار المـدة التي خلقت فيها الأرض وحدها ، والسماء وحدها ، وجواب ذلك في قوله تعالى من سـورة فصلت : « قل أئنكم لتكفرون بالـذى خلق الأرض في يومين » فهذا ايضـاح ، لأن الأرض لم تستغرق سوى يومين .. ثم يقول بعد ذلك : « وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام ، سواء للسائلين » يعنى وهو الأعلم — بعد خلق الأرض في يومين جعل فيها جبالا رواسي من فوقها ، لتحفظ توازنها ، ولم يجعلها في جوفها ، ولا تحتها ، لتلك الحكمة ، كما نضع نحن على أطراف الشيء ، أو في وسطه ما يثبته ، ويحفظه من التمايل ، وهذا ما صرح به في قوله « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » أي :أن الجبال تحفظ الأرض أن تهبط الى ناحية من نواحيها ، وكان خلق الجبال ، ووضع البركة في الأرض لتصلح معاشا ، ومزرعة ، ومنبعا للأرزاق ، تقدير الأقوات اللازمة للحيـاة فيها : كل ذلك كان في تمام أربعة أيام : أعنى في يومين سابقين في خلق الأرض وحدها ، فتكون مدة الأرض بما فيها أربعة أيام من الستة ، ويؤكد الله ذلك بقوله : « سواء للسائلين » يعنى أنها أربعة أيام مستوية متكاملة ، وهذا لبيان حاجة السائلين .

ويكون الباقي من الأيام يومين ، وفيهما خلقت السموات وما فيها ، وتم نظامها على وجه الكمال ، وهذا هو قوله تعالى : « فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا »

الأمر الثاني مما تحتاج الى معرفته — أسبقية أيهما على الآخر : السماء أم الأرض ؟ وأنت ترى ذكر السموات سابقا على ذكر الأرض في طائفة من الآيات ! ففي أول سورة الأنعام — « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » — وفي سورة الأعراف : « ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض » وفي سـورة السجدة — الله الذى خلق السـموات والأرض وما بينهما — وفي سورة ق — ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما الخ . وفي سورة النازعات يذكر السماء ، ويذكر شيئا من صفاتها ، ثم يقول : « والأرض بعد ذلك دحاها » يعنى بعد السماء ، وهذه ظواهر تشعر كلها بأسبقية السماء على الأرض في خلقها كما هي سابقة عليها في هذا القصص ! !

ولكنك تجد الأمر على عكس هذا فى آيات أخرى : فالأرض مذكورة قبل السماء فى سورة البقرة « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء . فسواهن سبع سموات » الآية — وفى سورة فصلت التى أخذنا منها تقسيط الأيام الستة بين الأرض والسماء كما سبق .

وفى سورة طه — تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى » .

فبين الآيات مغايرة فى ترتيب ذكر السموات والأرض ، فيكون بينها تعارض فى افادة الأسبقية فى الايجاد لهما ! ! فنحن بحاجة الى قول فصل .

وقد أشكل الأمر قديما على أحد الناس فذهب الى ابن عباس ، وسأله عن التعارض بين ذكر الأرض قبل السماء فى آية فصلت وذكرها بعد السماء فى آية النازعات ، والأرض بعد ذلك دحاها فقال ابن عباس رضى الله عنهما : "ما خلق الأرض فى يومين .. فان الأرض خلقت قبل السماء ، وكانت السماء دخانا فسواهن سبع سموات فى يومين بعد خلق الأرض .. وأما قوله تعالى « والأرض بعد ذلك دحاها » يعنى بعد خلق الأرض ، والسماء بسط الأرض ، وجعل فيها جبالا ، ونهرا ، وبحرا الخ . انتهى .. ويبدو من هذا أن تأخر الأرض عن السماء فى الآيات الأولى ، ليس تأخرا فى ايجاد ذاتها بل هى سابقة ، وانما هو تأخر لما فيها من كائنات تتبعها ، فلا يكون بين نسق الآيات تعارض ، ولا يكون فى الأمر اشكال كما يسبق الى الوهم .

ولكن : هل هذا هو القول الفصل الذى تطلعنا اليه من قبل ؟ لا ندعى ذلك .. فقد تبسط علماء آخرون وخالفوا ابن عباس ، وأكدوا أن السماء سابقة فى الايجاد على الأرض ، وأن الأرض بما فيها كانت بعد السماء ، فخلقت أو دحيت ، وخلق ما فيها بعد السماء ، واستبعدوا أن يرتاب الانسان فى هذا ، قالوا : انما ذكرت الأرض قبل السماء فى كثير من الآيات ، نظرا لاتصال الانسان بها ، فهو يعيش فيها ، ويستثمرها ، ويشهد معالمها ، ويدرك من منافعها أكثر مما يدرك من معالم السماء ، فخوطب بها قبل أن يخاطب بشأن السماء ، وقوله : « بعد ذلك دحاها » قاطع عندهم بما يرونه .

وعلى كل من التوجيهين فحقيقة العلم بذلك عند بارىء السموات والأرض ، ولا ضير علينا من تعدد الاجتهاد فى استنباط معلوم لا تناط به عقيدة ، ولا يتفاوت به ايمان ، وهو بحث علسى يفيد ، ومعرفة تزداد .

والقصد المنشود من هذه الأخبار فى الذكر الحكيم ايقاظ الوعى عند الناس لما خلق الله فى ملكوته ، وتبصيرهم بما أبدع من آياته ، واستدعاؤهم الى اليقين بربوبيته ، والاستقامة على طاعته ، واللياذ الى جانبه ، والاستعادة به من معصيته .

وهذا توجيه علوى رحيم : والاهتداء به لا يحتاج الى أسبقية سماء على أرض ، أو أسبقية أرض على سماء ! ! ونسأل الله جلت قدرته وتباركت آلاؤه : أن يهدينا بهديه الى كمال الايمان به ؛ فهو نعم المولى ونعم النصير .

توجيهات علوية
من جانب الله إلى عباده

ا) « ادعــوا ربـكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتـدين .
ب) ((ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ..
ج) ((وادعوه خوفا وطمعا ، ان رحمـة الله قريب من المحسنين)) .

(الأعراف ٥٥ ، ٥٦)

ا) هنا دعوة من جانب الله الى عباده : تتألف من كلمات معدودة . ولكنها نمط فسيح ذو توجيهات حيوية للانسان فى توثيق صلته بربه ، وفى تنسيق مسلكه فى الحياة بين الناس .. وحينما يتاح للمرء أن يكون على الجادة فى حيـاته آخذا بالعدل والاعتـدال روحا ، ومسلكا ، وعزيمة ، وقصدا ، يكون حقا فى وضـعه اللائق به ، والكفيل بأهـدافه الانسانية حاضرا ، ومآلا .

وذلك هو المنهج الذى ينشده الدين الحق لمن استمع الى دعوة الدين . ولدينا أمر مقرون بالزجر مرتين ، وأمر آخر مقرون بالوعد الصادق ، وبالحث على انتهازه والتعلق بغاياته .

الأمر الأول : ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، فالمفروض أن للناس دعاء ينبعث فى خواطرهم ، ويجيش فى صدورهم ، وهو وسيلة يتخذونها الى استيفاء ما تتعلق به آمالهم ، والى ما تكمل به رغباتهم .

فيكون الدعاء على هذا التحديد ترجمة عن شعور الانسان بنقصه عن الكمال ، وعجزه عن الوصول ، وبحاجته الى قوة عليا تدنيه من غاياته ، وتحقق له ما يقعد عن تداركه .

وهذه ظاهرة طبيعية تخالج كل امرىء منا عندما تواجهه الأزمات ، أو تغريه المطامع ، فيجد نفسه بين دوافع ترغبه ، وموانع تحجبه .

فمنذا الذى ينقذه من أزماته ، أو يكفل له تحصيل غاياته سوى ذى قوة قادرة على ما يعجز عنه الانسان ، وان كان ذا جبروت ؟ هو الله وحده وتعالى شأنه ! ! .

غير أن المرء لسبب طارىء قد يضل عن جهة دعائه ، فيلقى برجائه فى غير موضع الرجاء ، ويلتمس مبغاه من غير سبيله : وهنا مزلة الفكر ، وخطأ التقدير ، وتبعات الضلال .

وفى التعبير بالرب غناء عن التعليل ، وعن الشرح .. اذ ما دامت الربوبية لله دون غيره ، وما دامت النعمة كلها من جانبه وحده ، فلا خير فى دعاء غيره ، ولا أمل يرجى من سواه ، ولا صحة لما يعزى الى من دونه من سائر خلقه .

وكل ما يجازف به الناس وراء هذه الدائرة فباطل مطروح ، وضلال محظور ، وأمل ضائع ، واثم ولا جرم .

ومن تمام الرجاء وحسن الاتجاه به الى رب الناس أن يكون الدعاء ذكرا باللسان ، لا مجرد خاطر محبوس فى النفس ، فان الخاطر لا يتعلق به حكم الشريعة ، ولا يعتبر فيه ثواب ، ولا عقاب .

والدعاء بالخير عبادة ، بل هو كما قال ، الرسول — مخ العبادة — والعبادة بصفة عامة تكون قولا ، أو عملا ، فيثاب عليها صاحبها بما شاء الله مع أضعاف مضاعفة ، واذا كانت مجرد عزيمة على فعل الخير ولم تنفذ لسبب مانع فثوابه عليها تفضل من الله ونعمة .

وكذلك الخواطر النفسية حول أعمال سيئة ، اذا لم تتجاوز حديث النفس المستتر فيها ، فان الله — سبحانه — لا يؤاخذنا عليها .

وكأن الله تعالى يعتبر من الايمان وسلامة الاعتقاد شفيعا للانسان فى حديث نفسه العابر ، وفى هذا أفادنا النبى صلوات الله وسلامه عليه : أن الله تجاوز لأمته عما حدثت به أنفسنا .

هذا — ومن صفة الدعاء المنشود فى الآية أن يكون فى ضراعة وخفية ، ففى الضراعة : وهى المسكنة ، والأدب ، وفى الخفية : وهى عدم المجاهرة تمحيص للدعاء وبعد به عن الرياء ، وذاك هو الاخلاص المطلوب فى الدين كله .

ومن هذا تكون الضراعة والمخافة وصفين معتبرين فى سلامة الدعاء من آفات الابتداع ، وتكون من وسائل قبوله عند الله .

وقد مر النبى عليه السلام بقوم يدعون الله فى مجاهرة والحاح ، فقال لهم صلوات الله عليه « اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا أعمى ، وانما تدعون سميعا بصيرا » أى : أشفقوا على أنفسكم وخففوا الجهد فان الله يسمى ، ويرى ، ويعلم ، وليس بحاجة الى هذه المشقة .

وقد لا يكون الدعاء لاجتلاب الخير ، بل يكون شرا على أحد ، والتماسا لمكروه ينزل بالغير دون سبب يبيح ذلك ، وهذا اعتداء ، وتحامل غير مشروع ، وحيث أمرنا بالدعاء تقربا الى الله فى ضراعة فلا ينبغى أن نتحرف عن بغية الخير ، ونستخدم أمر الله به فى طلب التنكيل الذى هو وليد الخصومة ومظهر السخط ؛ لذلك جاء الأمر بالدعاء فى هذه الآية مقرونا بالزجر مرتين احداهما : الاعلان بأن الله لا يحب المعتدين فهذا خبر فيه نهى ؛ وتهديد ؛ على الاعتداء كله ، وعلى الاعتداء فى الدعاء خاصة .

ب) والزجر الثانى قوله تعالى عقيب هذا ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها يعنى اذا كان الدعاء مطلوبا لالتماس الخير فلا تصرفوه عن هذه الناحية ؛ ولا تجعلوه مجلبة للشر ، فان هذا يكون فسادا وافسادا لما بينكم من فساد كله منهم عنه ؛ فان الله يجمع بينكم على دينه الحق ، وشرع لكم روابط الاخاء ، ورسم معالم المجتمع الذى يعيش فى ضوء الدين وآدابه ؛ وجعل من أسباب الألفة بينكم أن يكون دعاؤكم بالخير عاما ، ورجاؤكم شاملا ، حتى يكون فى هذا تأليف للقلوب وتمكين للمحبة ، وهذا ما أفصح عنه النبى صلوات الله عليه وسلامه — بقوله « اذا دعوتم فعمموا » فالتجاوز لهذه الآداب فساد ولا شك — والله لا يحب الفساد . .

ومع هذا التوجيه الى الخير ، ومع التحذير من مقارفة الشر ولو بمجرد الدعاء السلبى ، فهناك حالة ينفعل فيها الانسان ، ويستعجل الشر بالثأر لنفسه من الغير حينما يلاقى ظلما من سواء ، أو استهانة بحقه ، أو محاولة للاضرار به عن قصد .

وتلك حالة يقف المرء فيها بين طبيعة ثائرة من الاساءة ، وبين دين يزجر عن دعوة السوء ، والجنوح الى الشر ، فلا يكون أقرب الى الانسان حينئذ من اللجوء الى ربه والاستعانة بقوته وعدله .

فالقرآن الكريم لا يحمل الانسان على غير ما يطيق ، ولا يغفل أحاسيسه بما يتصل به ، بل يأخذه بما له وما عليه فى حدود قدرته .

لذلك جعل الله للمظلوم أن يجأر الى الله بدعوة السوء على من ظلمه ، وفى هذا تنفيس للضائقة ، وتخفيف للكربة ، وكف للنفس عن الثورة والانتقام الذى يفسح مجال الشر ، ويضرم نار الخصومة ، ويجعل الفساد مستشريا فى الأرض بعد اصلاحها .

والدعاء بالسوء على الظالم أخف الضررين فأباحه الله للمظلوم ، بل أباح له الجهر به ، مع أن الجهر بدعاء الخير مرغوب عنه « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم » فهذا استثناء من النهى ، وهو تنصيص على تخويل المظلوم حق المجاهرة بدعائه على ظالمه : ترضية لنفسه ، وايضاحا لشكواه ، ولعل فى المجاهرة بذلك زجرا للناس عن تماديهم فى ظلم بعضهم بعضا ، ويؤكد هذا قول النبى صلوات الله (اتقوا دعوة المظلوم ، فانها ليس بينها وبين الله حجاب) .

جـ) وفى الآية أمر آخر أن يكون الدعاء كله نابعا من قلب خائف وطامع « وادعوه خوفا وطمعا » . وفى الخوف بعد عن التسلط ، وعن شغل الانسان نفسه بما يلهيه عن جانب العمل ، والاكتفاء بالتمنى كما كان يفعل السفهاء من قبل ، وفى الطمع المأمور به ثقة بالله ، وايمان بقدرته على الاستجابة ، وبين الخوف والرجاء مقام الاعتدال ، وحسن القصد ، وترويج للدعاء فى باب القبول : اذ المفروض أن الطمع فى القبول يكون مسبوقا بالطاعة ، والاهتداء ، أما أن يدعو الداعى دون خوف وخشية من جانبه ، فانه يسرف ، ويتكاسل ، ويحرم من مبتغاه ، ان دعا دون طمع ، وثقة فى

الله ، وطاعة له فيما طلب ، فذلك هو الأمل الكاذب الذى لم يقم على أسبابه ، والذى لم تتوافر له مؤهلات القبول كما شرط الله فى قوله « انما يتقبل الله من المتقين » .

نعم ! ! قال الله : « ادعونى استجب لكم » وهذا اطلاق فى الطلب دون تقيد فيه ، ولكنه محمول على الطلب المشروط بأن يكون الداعى غير ملوث بالحرام فى مطعمه ومشربه وملبسه ، والا كان دعاؤه هباء ، وقد قال النبى صلوات الله عليه (يقول أحدكم : يا رب ، يا رب ، ومطعمه من حرام وملبسه من حرام ، فأنى ، « يستجاب له ؟؟ » فالأصل أن يكون دعاء ، والشرط أن يكون صحيحا ، واذا راعينا الأوصاف المذكورة فى آية الموضوع وجدناها أربعة :

التضرع والخفية .. وهذان يتعلقان بوصف الدعاء وصورته شكلا .. ثم الخوف والطمع . وهذا يتعلقان بمنبع الدعاء ومبعثه وجوهره ، واذا اكتمل للدعاء وصفه الكامل فى شكله وحقيقته كان — بحق — عبادة ، بل كان مخ العبادة كما تحدث الرسول ، وكان دعاء المتقين وهو المقبول .. وسياق الآية واضح فى أن سرية الدعاء أحب من الجهرية . الا اذا كان دعاء مشتركا بين امام ومأمومين ، أو فى حالة عامة ، أو كان مقصودا معه تعليم من يتعلم ، فان ذلك كله يكون الجهر به خيرامن السرية ، والاشتراك فى الدعاء من وسائل قبوله عند الله .. وحين لا يكون مقتض للجهرية تكون السرية عن أسماع الغير تنزها عن الرياء ، وما دام الدعاء حينئذ مناجاة لله ، وضراعة اليه فلا حاجة بنا الى اعلانه ، وقد نرى فى آيات أخرى مايشعرنا بترجيح السرية فى الدعاء وفى التسبيحات عامة : مثل قوله تعالى (سورة ق) « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » فهنا توجيهات الى التسبيح لله قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وهذه أوقات يغلب فيها الصمت قبل أن ينهض الانسان الى عمله الدنيوى ، وبعد أن يفرغ من يومه ، ويخلد الى الراحة آخر النهار ، وكذلك أوقات الليل وعقب سجدات الصلوات كلها ساعات خشوع ، والتسبيح فيها أقرب الى الكمال ، ومظنة القبول .

وكذا قوله تعالى فى سورة الطور « وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » فالعبادة بالصلاة أو بالتسبيح مطلوبة حين القيام من نوم الليل ، وفى جوف الليل ، وعقب ادبار النجوم من مطالعها ، وهذه أوقات تكاد تكون أوقات خلوة ، والدعاء فيها مناجاة لله وحده .

وكذا قوله تعالى فى سورة طه : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » الخ . وهكذا نجد الكثير من التوجيهات الى أدب الدعاء والاسرار به .

وليس حتما أن يكون القبول بتحقيق نفس المطلوب ، فقد تكون حكمة الله فى تحقيقه بالذات . وقد تكون فى تحقيق شىء غيره لمصلحة العبد ؛ وقد تكون نتيجة الدعاء ثوابا عليه ، أو تكفير ذنب بسببه ، والعبد لا يدرى من أمر نفسه ما يكون خيرا له ، والله هو الأعلم بأمورنا ، ثم قد يكون الدعاء من انسان لانسان ، والله تعالى يستجيب للصالحين من عباده ويحقق رجاءهم ، ويثيبهم على ذلك ، ولكن هذا لا يجعل الأدعية بضاعة وتجارة يصطنعها المحترفون للدين ؛ فان الله لا تخفى عليه خافية .

موقف الناس بين الدعوة إلى الهداية والجنوح إلى الغواية

١ ـ « لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ..

٢ ـ « والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ..

٣ ـ « والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ..

٤ ـ « والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره » .

(الأعراف ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥)

هذه آيات أربع ، تتفق فى مبناها ومعناها ، وكل منها تعتبر مطلقا لقصة نبى من الأنبياء مع قومه ؛ وقد اتفقت كلها — كما وافقتها آيات أخرى — على أن الدعوة من الأنبياء موجهة الى عبادة الله وحده ، وأنها للتنصيص على أنه الاله الواحد ، وليس هناك اله غيره .

وهذا هو الأصل الذى تنعقد به صلة الناس بربهم ؛ وهو الوثيقة التى تكفلت رسالات الأنبياء بتبليغها ونشرها بين شعوبهم ، وامتدت فى سائر العصور المديدة .

وليس فى هذا الأصل تفاوت بين قوم وقوم مهما تراخت بينهم فترات الزمن .

ووراء هذا الأصل الثابت شرائع يختلف بعضها عن البعض فى شىء من مناهجها وتفصيلاتها .

واذا كان جانب العقيدة وهو الأصل الأول يؤلف بين الأمم المتنوعة ، ويقارب بين أجناسها فى اطار العبودية لله ، فالشرائع المبثوثة بين الناس فى أزمانهم المختلفة تجمع بينهم كذلك من ناحية الاتجاه اليه بالطاعة فى أى لون من ألوانها المشروعة ، ولا تعتبر الشرائع مفرقة بين أهليها كما يزعم الخاطئون الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا .

فما كانت الديانات الا توجيها للناس نحو الخير . وان اختلفت من بعض نواحيها أساليب التوجيه : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم ، وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه » . هذا مع قوله سبحانه : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » .

ولو أن الناس استطاعوا أن يتألفوا على الأخذ بالدعوة الدينية فى أصلها وجوهرها الصحيح لوجدوا أنفسهم فى نطاق متناسق ، وعاشوا فى غير شقاق ، وتبينوا فى يسر وارتياح . أن اتحاد الأصل الذى واثقهم الله به فى العقيدة يأبى عليهم أن يكونوا خصوما .. وتبينوا ثانيا أن الشرائع السماوية لم يخالف بعضها بعضا فيما اختلفت فيه من فروع لغرض التشقيق بين الناس ، وتوزيعهم شيعا متنابذة ، بل كان التمايز بين الشرائع تطويرا لهم ، وتطويعا لعقلياتهم ، وتمهيدا لتنظيم صفوفهم ، ولجمعهم على طابع يتناولهم من الناحية الروحية ، وهى ناحية التدين ، كما تناولهم جميعا الطابع الانسانى الذى انبثق بهم عن أب واحد ، وأم واحدة .

ولكن لحكمة ومشيئة علوية تشعب الناس فى تلقيهم لدعوة الدين ، وانقسموا حولها قديما ، وحديثا ، واتسعت بهم جولات الخلاف ، فلقيت كل دعوة من أهلها عنتا ، ولقيت الدنيا من وراء ذلك شقاقا وتناحرا ، وأصاب أهلها سلفا ما أصابهم بسبب ما جنوا على أنفسهم ، ولم يكن للناس فى شططهم عذر يشفع لهم ، وقد بين الله لهم سبيل الهداية ، وحذرهم عواقب المخالفة عن أمره ، ثم لما لم يستجيبوا ، أخذهم بذنوبهم ، وجعلهم سلفا ومثلا للآخرين .

نعم ، كانوا ضحية اسرافهم فى العصيان والانحراف ، وكانوا قصصا يحكيه القرآن لمن بعدهم حتى لا يعيش الخلف فى غفلة ، ولا يكونوا على جهالة بالمصير .

وقد نبه القرآن في غير موضع منه على أن سنة الله فى خلقه سواء . وأن عدله فيهم قائم ، وأن من تريثت به الأحداث فليس بنجوة منها دائما ، ومن قبيل التهديد بهذا قوله تعالى ناصحا لنا : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات » « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم » .

وأنت ترى فيما يقصه علينا القرآن من شأن الأمم السالفة أنها كانت فى الضلال متتابعة ، وأنها كذلك فى الهلاك والدمار سواسية ، وان اختلف كفرها فنونا ، أو اختلف هلاكها أنواعا : ما بين قحط فى الأرزاق ، ثم احراق بالصواعق ، أو غير ذلك من ضروب العذاب .

وعلى أى نوع كانت من العصيان فهى أمم مسخوطة ، وكانت عاقبة أمرها شؤما وبورا .

« فكلا أخذنا بذنبه : فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا : ريحا ترميهم بالحجارة — ومنهم من أخذته الصيحة : صوتا ترتجف له الدنيا ، ويهلك من فيها — ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

وهذا جانب محدود مما ورد فى القرآن بشأن المتجبرين وما حاق بهم من عذاب الله ، وهو جانب يكفى لايقاظ المشاعر نحو موقفنا من دعوة الدين وهدايته ، وجنوحنا الى العصيان والغواية .

وقد يرين على بعض القلوب شيء من الغفلة فنخال أن ذنوبنا لم تبلغ ما بلغته ذنوب الغابرين ، أو أننا معصومون مما يشاء الله لو أراد بنا سوءا ، أو أن النجاة ميسورة لنا بتوبة ندركها يوما ما .

وهذه أمانى مكذوبة ، يرددها فى خواطرنا ايحاء الشياطين .

وتستجيب لها النفس فى غمرة لهوها ، وفى غفلة الضمير عنها .

تلك الأمانى كانت ولا تزال شباك الشيطان ومفاتن الأنفس ، ومصرع الحق ومبعث الباطل ، وضيعة الأمل الصـــادق ، ولو كانت حقا كما تتوهم لأتيحت لمن سبقونا اليها وتعلقوا بها ، ثم خذلتهم الأقدار ، وسخرت منهم الدنيا ، وخرجوا منها دون أن يأخذوا بالحرص من أوله ، ولم يدركوا الأمل فى أخرياته .

وما برح القرآن يذكرنا بتلك السوابق . وبما يحدق بالناس من أحداث كريهة ، وينبهنا على أن الناس يجنون على أنفسهم بما تكسب أيديهم.. فنحن الذين نتعثر فى الطريق المعبد ، ونحن الذين نتخطى الصواب فيلاحقنا الضرر ولا بد ، لأننا لم نترفق بأنفسنا فيما نسلك ، ولم نرجع الى توجيهات الدين فيما أقام لنا من معالم ، وفيما أوضح من أهداف ، وما يمكنك أن تقدر للناس غاية ينتهون اليها فى انحرافهم وانحدارهم ، ولا يمكنك ان تفرض لهم يوما ينصرفون فيه عن غيهم ، فقد عاشوا على ذلك ، وما زال الشأن هو الشأن ! .

وكأن هامسا يقول : ان الطمع فى ثوب الناس جميعا الى هداهم يعتبر اسرافا فى الأمل بل التعلق بالرجاء فى استقامة الجميع يبعد عما أفصح به القرآن : حيث يقول الله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا » فالهداية لم تكن فى تقدير الله حظا لجميع الناس ، بل فريقا هدى . وفريقا حقت عليهم الضلالة ، فماذا نحاول نحن من حديثنا عن الهداية والغواية ، ومن تعرضنا للموازنة فى ذلك بين أناس وأناس ؟ ؟ .

والجواب أن المقدور محجوب عنا ، وأننـــا أمام التكليف سواء ، لا يدرى أحدنا من شأن نفسه : أهو من المقربين ، أم من المبعدين ، والمطلوب منا جميعا أن نأخذ فى الطاعة ، ونوجه ميولنا ، وارادتنا نحو الخير ، ونروض أنفســـنا على صالح العمل ، وأن نتحبب الى الله بالكف عن الحرام ، وعن مطاوعة الهوى ، وذلك هو جهاد النفس ، وهو الجهاد الأكبر فى مشقته ، وفى عظم ثوابه ، كما أفادنا كلام الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهذا الاتجاه يملكه المرء عن نفسه ، وهو مناط التكليف الذى نسأل عن تنفيذه أو محاولة تنفيذه « فاتقوا الله ما استطعتم » ، « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » .

ومن المسلم به أن التدرج فى الأمر يجعله عادة مألوفة الى أن يصير فى حكم الخلق المطبوع ، ومن قبيل ذلك أن الدين يطلب منا تعويد الصبيان أن يصلوا ويصوموا لتنشأ فيهم الطاعة كعادة متأصلة ، فلا يرهقهم أخذهم بها بعد أن يشبوا على المخالفة والتمرد .

فالسنة فيما نحاوله بعيدة عن التشبث بما قدر لنا أو علينا ، بل المطلوب أن نحرص وأن نسدد ، ونقارب ما استطعنا ، فليس لأحد أن يتلكأ ويقول : صنعت ما قدر علينا فعله .

اذ ليس لنا علم سابق بما قدر كما أسلفت .

وانما الأمر موجه الى مغالبة النفس على هواها ، وترويضها على الامتثال فى جانب الخير .

وكل امرىء ذى عزيمة يلمس من شأن نفسه القدرة على التحكم كما هو واقع فى شئون المال والنفقات ، والاقتصاد ، والمآكل ، والملبس ونحو هذا مما يتصرف فيه الانسان ، فيمسك أو يسرف كما يحب ، فكيف لا يقدر على الاتجاه نحو الطاعة ، وتيسر النفس على الاستجابة ؟ .

ان تجارب الحياة وما يملأ سمعنا من القصص عن الغير يفيدنا فى تأكد أن أرباب الغواية انحدروا اليها فى هوادة ، وظلوا حتى كانوا ضحايا العادات التى جرفتهم ، ويفيدنا أن أهل الطاعة والمثاليين فى أخلاقهم أبنـــاء عادات طيبة تركزت فيهم وصارت خصائص يعرفون بها ، ولا يرضون سواها .

ولسنا بحاجة فى هذا السياق الى الاستشهاد بنظريات الفلاسفة ، ولا أقوال الحكماء وان كانت كلها فى هذا الصدد على وفاق معنا فيما نقرره استمدادا من القرآن الكريم ، واقتباسا من توجيهاته الى العمـــل بأحسن ما نسمع ، والى تحاشى الضلالة وأسبابها وألا نقرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأن نتحاشى الفتن ، ولا نوقظها لتظل نائمة بين الناس .

ولنا شاهد من واقع الأمر المشهود ، فحيثما نجد الغواة مسرفين فى غوايتهم ، ونراهم يتعللون بالمعذرة عن أنفسهم بأن العبد مسير لا مخير كما يزعم بعض المبطلين من دعاة البحث المذهبى نجد من المسرفين من يقلع اختيارا عن غيه ، ويتدارك نفسه بانتباذ تلك المساقط ، والتعوذ بالله من مفاتن الشياطين ، والأخذ بالعروة الوثقى فيصبح يقظا بعد غفلة ، وجادا بعد مهزلة ، ويبصر برشده ما كان محجوبا عنه فى ظلمة السفه .

واذا كان مقررا أن المرء يملك توجيه نفسه فى مجال الاقتصاد كما أشرنا فكيف لا يملك مثل هذا التوجيه فى الجانب الأدبى كما طلب اليه الدين .

والذى أريد الاقتناع به هو أن دعوة الدين الى الاعتدال ليست دعوة تعسفية ، ولا يقف فى سبيلها الا أن يقلع المرء عن عادات مستهجنة ، يأخذ بدلا منها بعادات مستحسنة ، وان كانت فى أول أمرها غير هينة ، فان الطاعة وعمل الخير مجال الحرب مع الشيطان ، والحرب كلها بحاجة الى الجلاد والمصابرة ، ولكل امرىء من دهره ما تعوده .

وهنا تتفاوت مراتب المجاهدين لأنفسهم ، وتتفاوت منازل الناس امام دعوة الدين « وما منا الا له مقام معلوم » .

واذا كان حديثنا هذا صدى لما ينبثق فى الآيات السابقة عن الأمم الخوالى فمن مواصلة الخير بين المسلم والمسلم أن تثير العبرة ، وأن يذكر بعضنا بعضا بوجوب التآزر فى النهوض بمستوانا من كل ناحية ، حتى تتوازى جوانب المجتمع كلها .

فاذا رجح شأنه من ناحية الاقتصاد ، والتصنيع ، والسياسة ، والتعليم وبدا المجتمع كما هو اليوم فى نشاط يبعث فينا الفخار ، والغبطة ، وجب أن يكون كذلك فى ناحية الخلق ، والآداب ، والتدين حتى يكون قوام المجتمع على دعائم قوية تكفل بقاءه ، ويسلم كيانه من الهزات التى كثيرا ما صدعت بنيان أقوام آخرين .

وهذا هو الكيان الذى تهدف اليه ثورتنا المبــاركة ، وتتهافت عليه جسهوريتنا الواثبة ، ووصلت الى مطالبه جهودنا الموفقة .

وما أهمل القرآن وسيلة تصل بنا الى مبتغانا الا دفعنا دفعا قويا الى تناولها ، والاستزادة من ثمراتها .

فالعمل ، وتدريب النفس على الجد ، والترفع بها عن السفاسف : كل ذلك من الوسائل الكفيلة بالغايات النبيلة ، وحينما يحاول المرء أن يتجه الى وجهات الخير ، ويلمس من نفسه تراخيا وأناة ، فليطرق مع عمله باب الدعاء الى الله أن يعينه على مقاصده .

وباب الدعاء مفتوح ، والله يحب من عبده أن يلتمس الخير عنده ، ويلوذ بدعائه .

وقديما تخلت الأقوام عن دعائه كما تخلفوا عن تلبية رسله فى طاعة ربهم فكان احجامهم هذا جفاء شرا من تغافلهم ، حتى فى ساعات البلاء النازل بهم ، وقد أخذ الله عليهم ذلك الجفــاء ، واعتبره قسوة منهم على أنفسهم ، وجنوحا الى عدوهم الشيطان .

وفى هذا يقول سبحانه « ولقد أخذناهم بالعذاب : فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » .

« فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ! ! ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » .

فهناك جحود وجمود . وهناك حاجة وعناد ، وعند الله هداية ، ورجاء ، ولكن أعرضوا وعاندوا ، ونسوا الله فيما يعملون ، فأنساهم أنفسهم فيما يرجون ويسألون . ونحن نسأله من فضله ، ونضرع اليه بكرمه وجلاله أن يجعلنا من أوليائه لا من أولياء الشيطان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

عداوة الأغبيـــاء للمصــــلحين
من آفات المجتمع

نوح عليه السلام ! ! « قال الملأ من قومه انا لنراك فى ضلال مبين » . وكذلك قيل لبقية المرسلين من بعده .

آية ٦٠ — الاعراف

١ — كما تشابهت دعوة الأنبياء لأممهم فى مقاصدها الخيرة ، ومنهاجها البين : تشابهت الأمم فى المكابرة بالباطل ، والتطاول فى غير حياء ولا وعى .

فحينما يتبلج الحق ، وتنهض حجته لا يعدم خصومة تثار فى وجهه ، ويتشبث بها غبى حاقد زاعما أنه على فطنة ورشد ، وما هو الا غبى . يسد منافذ الدعوة الى عقله ، ويحجب نور الهداية عن قلبه .

وكم من عائب قولا صــحيحا   وآفتــــه من الفهم الســقيم

٢ — وهذا نوح عليه السلام ، دعا قومه الى الهدى فلم يكفهم أن تغاضوا عن اجابته ، بل عارضوه ورموه بالضلال المبين .

وكذلك قيل لهود من بعده ، وقيل لصالح ، ولشعيب ، ونحوهم من الأنبياء الى خاتمهم محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وما كان الأنبياء ، ولا واحد منهم ليتهم بالضلال ، أو يرمى بالسفه وهم المبعوثون للهداية ، أو ليوصــفوا بالكذب أو غيره من معــابة وهم أرشد الراشدين المرشدين .

٣ — وحينما يتحدث القرآن عن الرسالات وتطورها ؛ وما لقيته دعوته من شطط فى الخصومة والعنت يبدأ بذكر نوح عليه السلام ، كما فى آيات الأعراف التى سقناها فى الموضوع السابق ، والتى اقتطفنا أولاها فى مطلع حديثنا هذا .

فسياق الكتاب العزيز فى هذا الشأن يفيد أمرين — أحدهما — أن دعوة نوح هى نفسها دعوة الرسل من بعده فى أصولها ، ومقتضياتها حتى كانت خاتم الرسالات بالنبى محمد خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً .

« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده — شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » .

الأمر الثانى — أن رسالة نوح كانت فى قومه الذين ينتمى اليهم ، ويعيش فيهم ، وهم العارفون لشخصيته ، والشاهدون بكريم سمعته ، كما هو الشأن فى كل نبى يبعث « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » الآية .

وطبعى أن يكون الاختيار لمن لا تعلق به نقيصة ، ولا تحوم حوله شبهة ، حتى يؤتمن على التوجيه ، ويصلح للقـدوة .. فالمفروض أن يلاقى اقبالا ويواجه تأييدا ، وخاصة اذا بعث بعد أن عاش بينهم أمدا طويلا وناهيك بنوح الذى بعث بعد زمن قيل انه مائتان وخمسون عاما قبل الرسالة .

٤ — وهل كان نوح أول من أرسل حتى يعتبره القرآن مضرب المثل فى الوحى الى محمد والنبيين من بعد نوح ؟ ؟ .

قال أولو العلم كان من قبله آدم ، وشيث ، وادريس ، ولكنهم ما بين نبى فقط كآدم ، وما بين رسول كادريس ، لم يشاققه ، ولم يكفر به قومه كما فعل قوم نوح معه .

فنوح أول رسول اختلف عليه أغبياء قومه ، فكانت ذكراه فى قصص القرآن مطلع الذكريات ، وكانت العبرة بما جرى معه أول العبر ، وليس لمن سبقه اتصال بالحديث عن الكافرين حتى يسبقوه فى الحكاية عنهم كما سبقوه فى التاريخ ، ثم : ماذا حصل ؟ ؟ !

قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قالوا « انا لنراك فى ضلال مبين » .

ناداهم بالقومية ، والنداء بالقومية ينبه عاطفة الاخاء القريب ، أو يثير مشاعر الود ، ويجذب الى الوحدة والتضامن ، ويطمئن الى الاخلال وتوثيق الروابط .

والناس بحاجة الى كل هذا التجمع فى حياتهم الخاصة والعامة اذا قدروا معنى الحياة ، ولم يفتهم أنها فى أول مراتب الاعتبار بالنسبة للانسان .

ولذلك الذى نقوله : ترى خطاب النبيين — لأنه فيما عهدناه من قصصهم — كان دائما بياقوم ، أو ما هو بمعنى هذا . عدا النبى محمدا صلوات الله عليه وسلامه فقد قال (يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا) . لأنه لم يبعث الى قوم دون قوم .

وقد ظل نوح يكرر عليهم نداءه هذا ، ويترفق عليهم جيلا بعد جيل ، وما يسمع منهم الا تقريعا له ، واستهجانا لدعوته « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا » .

وهو يلاطفهم : فترة يقول « يا قوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين » . ويقول : « أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون » فالله يوحى الى بأمر الغيب ، وأنا لكم مخلص وأمين ، والأمانة والاخلاص من مقتضيات الأخوة الصادقة والقومية الأكيدة ، فضلا عما تقتضيه رسالتى اليكم من ربى .. فان لم يكن بكم وفاء ، ولا ولاء فخافوا عذاب ربكم فى يوم عظيم الهول ، شديد الهوان على من خالف .

تصدى له فى دعوته الملأ من قومه ، والملأ هم أصحاب المكانة فيهم ، ودأبوا على مقاومته وصد الغير عنه من أتباعهم والمستضعفين فيهم .

والملأ فى كل جماعة يغيظهم أن يظهر عليهم من يخشون سيادته ، ويكبر فى نفسهم أن يسيروا وراء غيرهم ، ويتخلفوا عن الصدارة ليتابعوا سواهم ولو كان مرسلا اليهم من رب العالمين .

فلم تكن مشغلة نوح بأمر التبليغ فقط ، بل شغلوه بالمناوأة والاتهام بالضلال حتى كان يحاول الدفاع ، ويترفق ثم يترفق .. حتى أخذ منه النصب مأخذه ، وساوره اليأس منهم ، وعرف أكيدا أن أذاهم له ولمن آمن به غير

مقضوع منهم ، ولكنه لم يكن ليفتر عن نشـاطه فيهم حتى صارحه الوحى بقطع الرجاء منهم « وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن » وهنا أيقن أن تركهم على ضلالهم بعد مطاولته لهم عشرة قرون الا قليلا سيمكن لهم فى الفساد أكثر ، وأن من الخير للانسانية أن يجتاح الله أولئك الكافرين ، لتطهر الأرض من مآثمهم ، وتستقبل الدنيا عهدا قد يكون خيرا من عهدهم .

فكان بعد المصابرة يعلن شكواه الى الله « رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى الا فرارا . وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم انى دعوتهم جهارا ، ثم انى أعلنت لهم ، وأسررت لهم اسرارا » . « رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا » وأخيرا ، وبعد أن جأر بالشكوى من متبوعيهم وتابعيهم نفث ما بنفسه من سخط ، وقال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديـارا » أحدا « انك ان تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » .

وهذه دعوات نبى مسـتجاب الرجاء ، ومكروب من ظلم قومه له ، وتحديهم بالكفر لرسالة الله اليهم ، فكانت لحياتهم الطويلة عاقبة وخيمة ، وكان لدعائه عليهم مغبة مشئومه ، حيث أذن الله لنوح أن يصنع السفينة لينجو بها من غرق ماحق ، وأذن له أن يحمل فى السفينة من آمن به ، ويحمل أزواجا من الحيوان والطير ، ثم أنفذ الله أمره فيهم ، وبغتهم بالطوفان العارم ،يهطل عليهم من السماء ، ويتدفق تحتهم من الأرض ، ونوح ومن معه فى السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال ، حتى استأصل الغرق من كفروا جميعا ، ولم ينج منه الا نوح مع المؤمنين به « وما آمن معه الا قليل » .

فهذه قصة واقعية ، كانت الفصل الأخير للمرحلة الأولى من مراحل الحياة الدنيا .

وهكذا انتهت ثورة الملأ على نوح ، وانتهت بدنياهم سورة الجهل الذى زين لهم خصـومته ، وعاقهم عن الأخذ برسـالته ، وكذلك تكون العاقبة للمفترين على الحق ، كما كانت عاقبة أسـلافهم فى كل أمة خلت بعد نوح

ولهم عند ربك في الآخرة مواقف أنكى وأشد ، وسيتنكر الطغاة بعضهم لبعض ، ويتبرأ المتبوع من التابع ، ويلقى كل منهما وزره على صاحبه ، وأخيرا يقول قائلهم فى وهج النار وبعد اليأس من رحمة الله : « انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد » .

فهل تحققت عبرة لمن ورثوا الدنيا بعد قوم نوح . ذهب الطوفان . وعمرت الأرض ثانيا بنوح ومن معه ، ومكث فيها نوح آمدا طويلا ، ثم تطورت الحياة ، وتغيرت الوجوه ، ونشأ فى الدنيا قبيلة عاد التى وصفها الله بما وصفها من بأس ، وقوة ، ومال ، وتعمير ، فكانوا شر خلف لشر سلف وأخذهم الله بالريح العاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام ، بحرها وبردها ، حتى تركتهم أخيرا كأعجاز نخل خاوية .

وهكذا تحقق وعد الله فى قوله لنوح عليه السلام حين نجاته من الغرق : « قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ، وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » .

وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا ، وللكلام بقية عن ذلك فى مناسبة آتية .

وبعد : فهذه مقتطفات أجملناها من قصص القرآن ، وهى تمثل ألوانا من حياة المجتمع فى قديمه ، وتعرض لنا صورا من عقليات كانت تسيطر على أتباع ، وكانت لها جولات فى توجيه أقوامهم ، ولكنها توجيهات الغباء ، والجهالة ، والجمود ، حتى ذهبت المشأمة الناجمة عن تخبطهم بالمجتمع كله ، وحتى ذهبت أمجادهم التى غرتهم ، وانطمست النعم التى أبطرتهم ، وأصبحوا حديثا تتقزز منه الانسانية ويتوارى من ذكرها التاريخ .

هذه مقتطفات تسوق لنا العبرة فيما جرى لأولئك الأسلاف لنستفيد منها ، ولا نتأسى بهم ، ولنعرف عنهم ، ولا نخطىء خطأهم ، وقد أتيحت لهم الفرص فى نعمة سابغة ، وحياة طويلة ، وتذكير حق من رسل الله ، ولكن الغواية تمكنت منهم . والحقد على الأنبياء استحوذ عليهم . وتعثروا فى غرورهم حتى كان من أمر الله فيهم ما كان .

نعم : تعب الأنبياء ، وكم تعبوا . وتعب من بعدهم مصلحون آخرون فى أقوامهم وكم تعبوا ، وماذا يعمل الداعى الى الخير سوى ابداء النصح فى اخلاص ، وسوى التحذير من سوء العاقبة فى هدى الدين ، وهدى البصيرة ، والاخلاص ، والأمانة .

وماذا يساعد الداعى فى دعوته أكثر من الوحى ان كان نبيا ، وسوى الاعتماد على الأفهام فى تقدير ما يطلب اليهم الأخذ به ؟ .

الأهداف الطيبة تبدو عادة فى منهاج المصلحين ، ويعززها دائما مايقترن بها من شواهد الصدق فى مسلكهم ، وما يعرف من خصوصياتهم .

والعقول من وراء ذلك تحكم بالحق ، وتستجيب للصدق ، وعند ذلك تلتقى وجهات على خير النظر فان الحق بطبعه ناهض وناطق ، وان الباطل بطبعه خافت وزاهق .

وتلك أو هذه احدى الغايتين اللتين ينتهى اليهما الأمر بين الداعين والمدعوين .

وكانت غاية الأنبياء خيرا لولا الملأ ونفوذهم فى الضعفاء ، فان تكن الدنيا حافلة بهذا النوع من المستكبرين فان شؤمهم سيحيق بهم ، وبمن يرضى عنه ، وهذه سنة الله ، والله غالب على كل شىء ، وماربك بغافل عما يعمل الظالمون .

مسئولية المرء عن اضلال نفسـه

« سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق »
(الأعراف ١٤٦)

هناك صرفة وصرف ، أما الصرفة فقول الكفار من قريش : ان القرآن فى ذاته غير معجز بلفظه ولا بمعناه ، ولكن الله صرفنا بقـدرته عن الاتيان بمثله .

ومع أن هذا تطاول منهم وانكار بغير حق ففيه اعتراف ضمنى بجلال القرآن وسموه عن مدارك البشر ــ ولكنهم لا يفقهون .

وليس هذا موضوعنا الذى نتجه اليه .

١ ــ بل موضوعنا صرف الله لبعض الناس عن آياته ؛ فلا يتدبرونها على الوجه الحق .

وهذا شطر من آية فى القرآن يثير جـدلا بين المرء ونفسـه ، ويدفع بالانسان فى مجال فسيح من التفكير فى تحديد مسلـكه أمام دينه وربه ، وربما امتد هذا التفكير من الحيز الفردى الى الجماعة الكثيرة .

وحينما يضطرب الصدر بهذه الأحاسيس الباطنة ؛ ويتخذ الانسان من عقله رائدا فى الموازنة بين ما هو عليه ، وما ينبغى له ، أو بين ما يوحى به الضمير وما تجنح اليه الميول ، فالغالب أن يجد للضمير غلبة وللحق سلطانا ، فاذا ما طغت نوازع الهوى ، أو تعثر الضمير فضعف لدى الانسان سلطان الحق فان صوت الدين غير خافت ، ودعوة الله موصولة بالأسماع ، وغير محجوبة عن الأبصار وبقية الحواس فى كل ما تشهده العين وسواها من صور الطبيعة وألوانها ، وأعراضها .

وقد عهدنا فى القرآن حرصا على هداية النـاس بالحث على النظر فى آياته المتلوة ، والآيات الكونية ، وعهدنا فيه الاحتكام الى عقولنا فى تقدير دعوته والاقتناع بكل آياته وتصديق الرسالة ، والاتجاه الى الطاعة .

ولكن الموطن الذى نحن فيه الآن ازاء ما معنا من آية الموضوع يواجهنا فى صراحة بأن العبرة بما فى الآيات ليست متاحة لكل انسان ، وأن الله يصرف عنها الانسان فلا يمكنه أن يفطن الى شىء من هدايتها .

فكيف يستقر الفهم على الاهتدا بالآيات كما أمر الله ، وبين صرف الله عن العبرة بآياته كما صرح به فى قوله تعالى « سأصرف عن آياتى ... » .

٢ ــ وجواب ذلك بديهى مبسوط فى نفس الآية ، فان « تمامها » .. الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق . ومن هـذا يتضـح أن الصرف عن الآيات وفهمها ليس مفروضا دائما ، وانما هو معاملة بالمثل ، فالذين يتكبرون عن المطاوعة ، ويتورطون فى الكبرياء بين الناس ، ويفرضون لأنفسهم تدخلا فى سلطان الله ؛ وفى تشريعه لعباده ، ويفرضون سيادة غاشـمة بين خلقـه : هؤلاء الذين يحاولون أن يتنصلوا من العبودية ، ويتفلتوا من دعـوة التكليف : هم الذين أبعدوا أنفسهم عن ذكر ربهم ، وأغفلوا نداء الله لهم ، فصرفهم الله عن تدارك أنفسهم ، وشغلهم فى لهوهم عن الرجوع الى آياته ، وهؤلاء هم الذين تحدث عنهم القرآن بأنهم « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » فالجفوة بادئة من جانب الانسان ، والجزاء عدل من جانب الله بصرف العبد .

وقد يقال : ان العبد رهين بالمشيئة من الله فلو شاء الله هدايته لهداه كما نطق القرآن نفسه بذلك فى كثير من آياته « ولو شـئنا لآتينـا كل نفس هداها » ، « ولو شاء لهداكم أجمعين .. الآيات » .

فكيف تلقى على المرء تبعة ضلاله ، وتتجه اليه باللائمة ، وهو مغلوب على أمره ؟..

٣ ــ ونحب أن نكرر ونؤكد أن للعبد ارادة فى الاختيار ، وهو المذهب العلمى الذى ندركه فى سهولة ، ونختار الجنوح اليه ؛ وهو المعقول الذى تتضح به مسئولية العبد عن تبعاته ، حيث أراد لنفسه ما أراد .

وهو ما يتمشى مع نسق الكتاب العزيز فى كل ما أتى به فى هذا الشأن « كل امرىء بما كسب رهين » ، « كل نفس بما كسبت رهينة » ، « بما كسبتم » « بما كنتم تكسبون » ، «ليجزى الذين أساءوا بما عملوا» .

وزيادة فى البسط مع الايجاز نذكر الناس بأن للانسان علاقة روحية بالله ، وعلاقة مادية بالدنيا .

وقد جعل الله من سننه فى تربية عباده أن ينبههم دائما الى العلاقتين ، ليعرف الواحد منا حق الله عليه ، ويحاول الوفاء به ما استطاع . وليدرك نصيبه من الدنيا ويتمتع فيها بنصيبه المقسوم له متاعا غير مشوب بكفران ، ولا غفلة عما وراءها من حساب .

وليس بين العلاقتين تعارض كما يتصور ذلك أفراد منا . وكما يصوره للناس بعض الواعظين .

فمن الحق أن العلاقتين بالنسبة للانسان كجناحى الطائر يحتاج اليهما معا ، ولا يمكنه أن ينهض بأحدهما نهوضا يعتد به فى حياتنا هذه أو فيما بعد هذه الحياة .

فالدنيا مجال العمل ، ومرحلة الاستعداد لحياة خالدة ... والعمل فيها لا يكون الا بالتزود من خيرها ، ولا يكون بالانقطاع عنها ... واذا كان القرآن يزهدنا فيها ويفضل لنا متاع الآخرة فذلك للتحذير من غرورها والاستسلام لزينتها ومرحها ، ولايقاظ وعينا نحو ما هو مغيب عنا فى الحياة الثانية وما فيها من ترفه لنا ، ونعيم هو خير وأبقى من نعيمنا الحاضر مهما بلغ .

أما الدنيا فى ذاتها فهى متاع . وفيها نعيم وفيها مظاهر قدرة الله ، وأنواع خلقه ، وفيها فرصة الادخار للنعيم المقيم ، وقد أشاد بها القرآن كثيرا ، وامتن الله على عباده بما خلق لهم فيها من ضروب نعمائه .

٤ ـ واذا كان فى عباد الله من أخذوا منها بالقليل ، وعاشوا فيها على الرضا ، وحذروها أكثر من سواهم فلأن لهم رسالة تستقل بجهودهم ، وتستأثر بأعمالهم ، وتقتضيهم أن يتفرغوا فيها لما هو منوط بهم كالرسل عليهم صلوات الله ، فلم تكن حياتهم لأنفسهم بل كانت للدعوة والاصلاح

وتوجيه الأمم الى ما يراد منها . فحاجة الرسل الى الدنيا فى المكان الأخير بالنسبة لشأنهم هذا .

على أن من الرسل من جعل الله فى قبضته رزقا واسعا ، وجعل له بجانب هذا الرزق سلطانا مكينا ، وحكما نافذا حتى على الجن والطير ، فلو كانت الدنيا حقيرة كما زعم زاعمون لما منحها خالقها لأكرم الناس عنده وهم رسله الأخيار من عباده ، كسليمان وداود ونحوهما .

٥ — وأما علاقة الانسان بالله روحيا فتلك ملاك الأمر كله ، فان الله — سبحانه هو الأول بلا بداية ، ومنه الخلق والرزق والحياة والموت .

وهو سبحانه الآخر بلا نهاية فاليه المرجع والحساب .

والمرء فيما بين أوله وآخره بين أصابع الرحمن ، وتحت سلطانه ؛ فكيف تنقطع علاقته بربه ، وكيف ينفك من عقاله هذا وعقاله فى يد قوية وفى ارساء متين ؟.

صلة العبد بالله صلة الفقير جدا بالغنى جدا ، فان تكن حاجة الفقير داعبة الى الأدب. والتواضع والاعتراف بالجميل فكذلك حاجة العبد أو أشد بكثير وكثير ، مع ملاحظة الفارق بين العبودية والربوبية .

٦ — وحينما يتبجح الفقير فى وجه الغنى المحسن اليه يكون الفقير قد أساء الى نفسه ، وانحاز بها الى الحرمان من خيـــر كان يغمـــره عن طريق الاحسان . فهو شؤم على نفسه واللائمة عليه لا على غيره ...

فأولى بذلك الأدب والتقدير عبد من عباد الله مصنوع بيد الله، وفقير من كل ناحية الى الله !! ...

على أن الله لم يقطع كل خيره عن عبده المنحرف ، فهو لا يزال يرزقه ، ولا يزال يتلطف به فى دنياه ، ويسنحه الكثير من فضله فى صحته وماله وولده . وجاهه .

وهذه معاملة احسان يفيض من الجانب الأعلى : لا وجوبا لنا ، ولا لزاما عليه . ولكنه يعاملنا بما يليق به هو من كرم ورحمة كتبها على نفسه ، فهى من كماله ؛ وجلاله ، ومن مقتضى ذاتيانه القدسية ، وصفاته العلوية ، فيكون حتما علينا أن نخضع ونؤمن ؛ وأن نفكر ونشكر .

هذا توجيه الى ناحية اتصال العبد بربه من طريق الدين والدنيا ، ويتبين منه واضحا أن الدين يلتقى مع الدنيا فى أصح التئام • وأكرم تقدير : الا من ختم الله على قلبه ، وسمعه ، وجعل على بصرة غشاوة ، وتركه لشيطانه يخرجه من النور الى الظلمات ، فان رأى آية من آيات الله فلا يؤمن بها ، وان ير سبيل الرشد لا يتخذه سبيلا ، وان ير سبيل الغى يتخذه سبيلا ، وهؤلاء هم الذين كذبوا بآيات الله ، وكانوا عنها غافلين •

٧ ـ وان يكن هذا الذى فى آية الموضوع مسوقا فى جانب الكفار من أهل الكتاب ، أو المشركين ، فجانب العبرة فيه موجه الى الجميع بما فيهم المسلمون ، فانه لتربية الناس عامة ، وليس لتهذيب فريق دون فريق ، فان عدل الله سواء فى جزاء كل بما عمل ، وما هناك من عفو أو مزيد فى العطاء فانما يكون لحكمة يعلمها هو ، دون استحقاقنا لذلك الا مجرد فضل من عنده سبحانه وفى حديث قدسى (••• وانما هى أعمالكم ، أحصيها عليكم . ثم أوفيها لكم) •

وان التحاكم الى العقل فى هذا لكفيل برد الفكر عن شططه فى الأمانى ، ولكفيل بتركيز ايماننا ، وتقديرنا لعدل الله فيما يعامل به عباده من غضب وعذاب ، بعد أن بين لنا الحجة ، ودعانا الى الاهتداء ، ومحاولة التخلص من حبائل الشيطان بطرح وساوسه والاستعاذة بالله من نزغاته •

هذا ـ وقد يبدر الى الأذهان أن ضلالة المرء هى كفره ، أو جرائمه الشخصية فى عمله الخاص به •

٨ ـ ولكن هناك جانبا من الضلال لا يفطن اليه سوى قليل من الناس. وهو جانب الاضلال للغير ، فتلك وظيفة الشيطان مع أتباعه، وسياسة شياطين الانس مع رفاقهم من أهل الأهواء •

وقديما كانت هذه شائعة بين المستكبرين والمستضعفين من الناس فى سعيهم من الاقبال على الايمان ، والصد عنه .

وللقرآن حملات صادقة عنيفةعلى تحكم المستكبرين فىالمستضعفين. وعلى متابعة هؤلاء الضعفاء لأولئك فى الكفر والتخلف عن دعوة ربهم •

والقرآن تدلت تصوير صادق ومزعج لحاله الفريقين وموقف كل من صاحبه يوم يتحاجون عند ربهم ، ويلقى بعضهم تبعة جرمه على الآخر .

ولعل هذا النوع من الضلال والكفر المتبادل بين المتبوع والتابع يكون باقيا فى كثير من الأوساط على الرغم من ذيوع التعليم ، وانطلاق الفكر فى مجال البحث والموازنة والاختيار .

فان كثيرا من البيئات لا تزال غير آبهة بوضعها الدينى ، ولا مقبلة على تصحيح هذا الوضع ، وان توافرت وسائل الهداية ، وسهلت عليها مآخذ المعرفة ، فبقى للتقليد أثره الفعال فى نفوس الناشئين فى بيوت يشيع فيهـا التحلل ، ولا يوجد فيها توجيه صحيح .

ومن هذا نجد ألوانا من الضلال فى العقيدة ، أو فى المسلك شائعة بيننا فى رجال وسيدات ، وفى شبان وشابات محسوبين من البيئة الاسلامية . وما هم منها الا فى الاحصاء والتعداد .

وهل تظن أن رجلا بلغ من العمر ما بلغ فاذا سألته عن الصـلاة وهو مسلم ــ فيما يقول ــ أو سألته أن يقرأ الفاتحة أو يفرق بين الفرض والنفل فى دينه ، أو سألته عن معنى الحج : وقف من سـؤالك موقف العجب فى دهشة ، وموقف الجاهل فى خزى مما فاجأته بسؤلك الغريب على عقله !

وهل تظن أن سيدة فى عداد المسلمات تسألها عن ربها فتقول : اسمه محمد ، وتسألها عن محمد فلا تعرف شأنه فى الدنيا ! وهى أم تربى أطفالا !.

وهذه أمثلة من واقع الحياة فى بيوت تحسبها مسلمة ، ولكن جوها ، وطابعها ، وكل ما يدور فيها من أقوال وأعمال هو اقتباس من الغير ومحاكاة للغير ، وارتياح الى ما عرفوا عن الغير ، وهم بعد ذلك كله فى غير قلق لما هم عليه من ضياع ، بل ، ولا فى أدنى تفكير للنظر فيما هم عليه ، وحسبهم فى حياتهم أنهم سادرون فى غفلة عما وراء حيـاتهم هـذه ما داموا يمرحون ، ويلعبون ، وما داموا يتمتعـون ويأكلـون ، وان كانوا يأكلون كما تأكل الأنعام .

٩ ـــ وهناك نوع من الاضلال أشد خطرا مما ذكرنا من فعل الانسان للجريمة ، أو تقصيره فى الاهتداء .

هناك أناس يتصدون لدعوة الغير الى ناحية الدين ، أو هم فى دعوتهم غير مبالين بما جاء فى كتاب أو سنة ، بل هم مبتــدعون لشيء جديد من عندياتهم ، وغير معتمدين على قول لله أو لرسوله ، أو على أثر لأصحاب الرسول ، فماذا تنتظر من هؤلاء المعتمدين على أنفسهم فى التشريع للأحكام سوى المخالفة المردية فى الهلاك ، وسوى البعد بالناس عن دينهم الحق .

المفروض فى عالم الدين أنه أمين على ماعرف من حكم الله ، وأنه يؤازر الناس ويحبب اليهم الطاعة ، والحرص على أحكام دينهم .. فاذا أتاح لنفسه أن يجتهد فليعتمد على ما لديه من دليل منصوص ، وليستعن برأى العلماء كما كان الرسول أحيانا يستعين بمشورة أصحابه .

وكما كان الصحابة من بعده يستعين بعضهم ببعض ، ليتعرفوا مالدى بعضهم من نص ، أو ليتعاونوا فى التحرى عن وجه المصلحة فيما هم بسبيله من تعرف الحكم المطلوب .

فما بالنا وقد ابتدع بعض المعاصرين خطة غريبة فى التحليل والتحريم ؛ وماذلك التشريع الا حقا لله وحده ، واستمدادا من تشريعه واهتداء برسوله فيما وضع لنا ونصح به ؟

أيكفى أن أقول للناس : هذا ماأراه ، وهذا ما أعتقده ، دون أن أكون مستصحبا لسند يبيح لى الابتكار فى الأحكام ؟ فضلا عن بعدى عما شرع الله ، وتركز فى أذهان المسلمين ، واستقرت عليه الأوضاع ، وأصبح معلوما من الدين بالضرورة ؟

ليس هذا الابتكار الخطير مجرد غلطة ، أو ضلالة شخصية ، وانما هو اضلال للغير ، وليس فى الناس أظلم من افترى على الله الكذب ، وهو يدعى الى الاسلام .

١٠ — أقول ذلك : وفى النفس لاعج من الأسف لأن رجالا وسيدات أيضا يتصدون لتفسير القرآن فى مجلات يقرؤها المسلمون تفسيرا عجيبا جدا ، والمسلمون يرون فى هذه التفســيرات الخاطئة جرأة على الكتاب الحكيم .

ويبرءون الى الله من الأخذ بهذه التفسيرات حفاظا على دينهم ، وخوفا من ربهم •

ولو تركنا الناس يفعلون المحرم وهم يعتقدونه محرما لكان خيرا لنــا وللناس وللدين من أن تقول لهم : هذا الحرام عند الله حلال فى رأينا ،أوتقول لهم ان ماترونه مصلحة لكم يبيح ما حرم عليــكم : فبهذا التأويل تستباح الحرمات ، وتهدر النصوص وتلغى القيود وترفع الحدود التى وضعها الله بين حرامه وحلاله « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » •

هدانا الله جميعا وعصمنا من الزلل •

الغضب مجلبة لسوء الظن والندم
والإكراه معذرة في الخطأ
والاستغفار طهرة من الشوائب

ا) « ولما رجع موسى الى قومه غضبان اســفا ، قال بئسما خلفتموني من بعدى ! أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره اليه ..

ب) « قال : ابن أم ! ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين .

ج) « قال : رب اغفر لي ولأخي ، وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين » .

الأعراف ١٥٠ ، ١٥١

حياة موسى عليه السلام كانت مرحلة زمنية حافلة بالأحداث والعجب . وفي كل جانب منها فصول تلقتها الانسانية في مصابرة . وعرفت منها الدنب مالم تكن رأت في أحقابها الأولى .

فاذا تجاوزنا الحديث عن طوره الأول — في عهد فرعون وما أحاط به من مخاوف — الى الحديث عنه رسولا الى بني اسرائيل.وماكان من شئونهم مع موسى . وجدنا متسعا للقول ، وأحداثا يستغرق ذكرها أوقاتا ، ويثير الحيرة في أمر هؤلاء اليهود .

نعم ! تاريخ اليهود حافل بالعجب . وقضاياهم بارزة في صفحة هذا الوجود .

فان يكن لهذه الطائفة بين سائر الشعوب نشاط في الدنيا ، وجولات في المجال الاقتصادي . فكأن الله خلقهم على نمط خاص بهم في التفكير ، ونسج

لهم تاريخا من مناهجهم فى الحياة ، ومن شئونهم فى الدين ، ومواقفهم أمام رسالات الأنبياء •

وانك لتجد الكتب زاخرة بالقول فيهم ، وتجد القرآن يتناولهم بالشىء الكثير ، حتى لتشعر — صادقا فى شعورك — أنهم رموز حية لشياطين الانس • وأن جانبهم لايؤمن ، وان غلبت عليهم المودة والزلفى ، وتلمس فى غير ريبة أن عهدهم وان وثقوه عهد منقوض ، وفى سياستهم مع موسى عليه السلام أمثلة تنبيك عن طبائعهم ، واتجاهاتهم فى دنيانا ، فضلا عما كان لهم مع غير موسى من الأنبياء ، وماضيهم لا يختلف عن حاضرهم ، وهم فيما سلف أشبه بما نراه منهم اليوم ، وربما كانوا فى غدهم شرا مما عرفنا عنهم •

ولكن الله لن يرفع لهم راية ، ولن يعلى لهم شأنا كما سجل عليهم غضبه وهددهم بشر وعيده فى القرآن ، ولن يخلف الله وعيده معهم •

حينما اجتاز موسى بهم البحر ، وتجلت فيهم المعجزة باغراق فرعون وجنوده ، ونجاة موسى وأتباعه من طغيان الفراعنة : ماكادت أقدام اليهود تستقر على أرض سيناء حتى اقترحوا على موسى أن يتخذ لهم أصناما يعبدونها كما رأوا هناك جهلة كفارا يعبدون الأصنام « ياموسى ! اجعل لنا الها كما لهم آلهة •• » •

فنهاهم موسى عن ذلك التقليد ، وذكرهم نعمة الله عليهم بالنجاة من فرعون ، وكانوا فى ضنك من حكمه عليهم بمصر ، وفى شقاء من مطاردته لهم وتقتيل أولادهم واستحياء نسائهم •• ولكن طبائع الشر كامنة فيهم ، فما انصرفوا عن طلبهم ذاك الا تحينا للفرصة وانتهازا للوسيلة ، وذلك دأب النفوس المتمردة الخبيثة •

وحينما استقر بهم موسى حيث استقروا فى سيناء ، وعد الله موسى أن ينزل عليه كتابا يتلقاه بالوادى المقدس — وهو المعروف بطوى — بجبل الطور فى تلك الصحراء •

وفى الموعدة التى وعد الله موسى أخذ معه سبعين رجلا من خيارهم ليصحبوه الى الميقات ويحضروا معه مايتلقاه من ربه ، وترك هارون مع القوم ينتظرون •

وفى طريقهم الى الوادى المقدس تعجل موسى فى سيره ليسبق ، ووعد أصحابه اللقاء عند الميقات •

وفى هذا سؤال الله تعالى : « وما أعجلك عن قومك ياموسى ؟! » وفيه جواب موسى « قال : هم أولاء على أثرى ، وعجلت اليك رب لترضى » •

مكث موسى وأصحابه ثلاثين ليلة ، ثم عشرة أخرى ، أراد الله زيادتها فى الموعد ، ولم يكن هارون ومن معه يعلمون بتلك الليالى العشر ؛ فراب القوم غيابه ، وأخذوا ينتقضون عليه ، ويتحللون من دينهم ، ويسارعون فى الكفر كما كانوا يشتهون من قبل ، وبعد تلقى موسى للتوراة ، وقبل انصرافه الى أكثرية القوم فى مقرهم الأول مع أخيه هارون وزيره ، أخبره الله أن القوم غمرتهم الفتنة فى غيابه ، وأن موسى السامرى أحد أتباعه ، دبر لهم فتنة الكفر التى ارتكسوا فيها •

ومع أن موسى كليم الله ؛ وصاحب الحظوة بالحديث الى ربه لم يستفسر عن تفصيل الفتنة ، لأنه يعهد فى الكثير من يهوده ذبذبة الفكرة ؛ ووهن العقيدة ؛ فشغله الهم لذلك وقفل راجعا ليتدارك القوم فى محنتهم •

(ا) عاد فأبصر قومه حول تمثال من الذهب لعجل من البقر يعبدونه •
فكانت ظاهرة الغضب فى أمور ثلاثة :

١ ــ أنكر على قومه فى شدة « قال : بئسما خلفتمونى من بعدى !! أعجلتم أمر ربكم ؟ » يريد بئس العمل الذى عملتموه فى غيابى عنكم وهل استبطأتم حضورى فتعجلتم أمر ربكم ؛ ولم تنتظروا عودتى بما آتيكم به من عند الله ؟ ؟ •

٢ ــ « وألقى الألواح » وضع التوراة حيث وضعها ، فى شىء من التسرع والانفعال لما رأى عليه قومه ، وكان المفروض أن يتهادى ويتئد فى وضعها ، ولكن الغضب قد بلغ منه مبلغه .

وهنا توسع أناس ، وعلقوا على هذا الالقاء بأن التوراة تحطمت ألواح منها ، وذهب جانب كبير من أصولها الأولى ، ولكنها روايات لا ينبنى عليها علم صحيح •

٣ ـــ الأمر الثالث « وأخذ برأس أخيه يجره اليه » لما ظنه موسى بأخيه أنه تسامح مع القوم فلم يزجرهم عن عبادة العجل ، ولم يقم فيهم بالارشاد كما أوصاه موسى .

وطبيعى أن يساء الظن بمن كان معهودا اليه فى أمر ثم لايفى به على الوجه المطلوب .

(ب) ولكن هارون أبدى معذرته لموسى وأقنعه بقوله : « ابن أم !! ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين » .

طابت نفس موسى وسكت عنه الغضب ، اذ أصبح على بينة من الأمر ، واقتنع بأن أخاه هارون لم يتسامح ، بل نصح وقاوم حتى كادوا يقتلونه ، وأن موسى السامرى ومن انتقضوا معه قد تغلبوا ،وصنعوا العجل من الذهب وأخذوا يعبدونه كما كانوا يتهافتون على الشرك سابقا .

(حـ) واذ كان موسى ظانا بأخيه غير الواقع ، وكان هارون معذورا فى شأنهم فلم يسع موسى الا أن يبادر الى الله بطلب العفو عنه وعن أخيه مما كان من غضبه وسوء ظنه بهارون ، ومما يكون من تخلف هارون عن الذهاب الى موسى واخباره كما عتب عليه ذلك فى قوله « ياهارون ! مامنعك اذرأيتهم ضلوا ألا تتبعن » فمع وضوح المعذرة لموسى ولهارون فى موقفه أناب موسى الى الله بالدعاء « قال : رب اغفر لى ، ولأخى ، وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين » . وكذلك شأن الأتقياء يطلبون المغفرة ولو لم يكن ذنبا ، ويطلبون الرحمة لهم وللناس فى كل حين ، لأن النفوس الخيرة تشعر دائما أنها دون الكمال فى القيام بحق الله ، ولو كانت كاملة ، وتطلب المزيد من رحمته تفضلا منه تعالى : لا استحقاقا على الله ، بخلاف الجهلاء الذين يحفزهم الخيال والحمق على الاعتزاز بأنفسهم ، فيقول المرء منهم عند النعمة : ربى أكرمنى لاستحقاقى ذلك الاكرام ، ويقول عند النقمة : ربى أهاننى ، وأنا لا أستحق الاهانة ، وكان من هذا القبيل أن يستهين الكفا ربالايمان ، ويقولوا عن المؤمنين « لو كان خيرا ماسبقونا اليه » فهذا شموخ الحمقى الذين يعيبون الايمان . « واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم » . وفيما تقدم توجيه لنا الى ناحية الغضب والاكراه .

فالغضب نزعة بشرية طبيعية فى الانسان ، وهى لاتنقص شأن الأنبياء ، لأنهم أناس كغيرهم ، ولكنا نختلف فى هذه النزعة شدة وهوادة ، وهذا فرق ما بين الحليم والغضوب ، وما كانت هذه النزعة لتأخذ على نبى من الأنبياء حلمه المفروض ، الا أنهم يغارون على دين الله ويغضبون لله ، وكذلك كان موسى ، بل كان أكثر الأنبياء انفعالا كما يقول بعض المفسرين .

واضح أن لموسى عذره فى مزيد استيائه لأنه بعث فى قوم ليسوا كفارا فقط ، وانما هم خبثاء ماكرون ، وجبنـاء مستذلون لا يحترمون لأنفسهم شخصية ، وكأن مقامهم فى حكم فرعون أورثهم المهانة ، وعلمهم الخـداع : فضلا عن أنهم لايوفون بعهد ، ولا يشكرون نعمة ، ولا يتخلفون عن رذيلة ولا يأمرون بمعروف ، ولايتناهون عن منكر .. وتلك أوصافهم التى يحكيها عنهم الله الذى خلقهم وابتلاهم بتلك النقائص .

فالانفعال من موسى ازاء هؤلاء غير معيب منه ، ولا كثير عليـه لما يحتاجون من زجر وتقويم ..

وربما كان الغضب فى كثير من الأحيان أجدى من الحلم فى علاج أمثال اليهود ..

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وقد أوضح العلماء أن الغضب فى حقيقته جمرة نفسية تتوقد فى الصدر ولذلك كان علاجه فى هدى الرسول صـلى الله عليـه وسلم أن من غضب فليضطجع ، فان لم يذهب غضبه اغتسل . ومما ورد فى ذلك : (اذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فان ذهب عنه الغضب والا فليضطجع) وقوله صلى الله عليه وسلم كذلك : (ان الغضب من الشيطان : وان الشيطان خلق من النار ، وانما تطفأ النار بالماء ، فاذا غضب أحدكم فليتوضأ) وهكذا ما نصح به الرسول فى مقاومة الغضب بالجلوس من قيـام ، وبالاضطجاع ، وبالوضوء ، وبالاغتسال ، ومهما يكن للغضب من أسبابه ومبرراته ففضل الحلم المشهود به ، وثواب الاحتمال مضمون فى قول الله سـبحانه مدحا فى المتقين : « والكاظمين الغيظ والعـافين عن الناس » ومن قبيل هـذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (الحلم سيد الأخلاق) .

وقد تعرض الفقهاء للغضبان اذا طلق زوجته فى غضبـه ، فكثير منهم لايعتبر الغضب مانعا من وقوع الطلاق ، وفريق يرى الغضب مانعا من وقوع الطلاق فى حالة شدة الغضب ، لأن المرء لايكون مدركا لما قال بل أخبره غيره بما حصل منه ، ففى تلك الحالة فقط يعتبر كالمجنون فلا يؤاخذ ، والاكراه كذلك له أثره فى محاسبة المرء على عمله .

ومن قضية هارون عليه السلام انه لم يكن متسامحا مع قومه فى تعهدهم وهو نبى ووزير لأخيه موسى فى رسالته ، فلم تكن عليه تبعة فى انحرافهم ، وما ارتكبوا من خطأ جسيم لأنه مكره ، اذ هددوه بالقتل ، فتحاشاهم لأنه لو تمادى وقتلوه ، لكان ملقيا بنفسه الى التهلكة دون ثمرة لهذا .

وكذلك تشريع الله للناس يعفيهم من تبعة الاكراه على المخالفة اذا نفدت الحيلة وعجزت المحاولة، والله لايكلف نفسا الاوسعها، والمكره عاجز ولاشك وفى ذلك يقول النبى صلوات الله عليه وسلامه : (عفى لأمتى عن الخطأ غير المقصود والنسيان ، وما استكرهوا عليه) .

بل القرآن نفسه يتحدث عن الاكراه على الكفر بالقتل مثل « الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » .

فتلك حالة صادفت فسحة فى الدين ، وعفوا من جانب الله .

ولكن يراعى فى الاكراه المعفى من التبعة ألا يجد الانسان منفذا منه ، فالمكره فى دينه مطالب بالهجرة الى وطن آمن سوى وطنه اذا عجز عن الجهاد والقيام بواجبه .

والمدافع عن ماله أو عرضه اذا اقتضاه الأمر أن يقتل المعتدى عليه فله ذلك والتخلص من عدوانه ، لأنه يعتبر مكرها على فعله هذا من جانب المعتدى نفسه ، ومهما يكن من تجاوزنا فباب التوبة مفتوح لمن ينيب الى ربه بالتوبة والله يعفو عن السيئات ، ويهدينا الى صراطه المستقيم .

ضراعة الاخيـــار شـفاعه للمذنبين

ا) « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ..

ب) « فلما أخذتهم الرجفة قال : رب ! لو شئت أهلكتهم من قبل واياى ..

جـ) « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ ان هى الا فتنتـك تضل بها من تشاء ، وتهدى من تشاء ... أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وانت خير الغافرين» .

(الأعراف ١٥٥

١ ــ من شعب القصص عن موسى عليه السلام طلبه ــ أولا ــ ثم طلب قومه ثانيا ــ رؤية الله تعالى شأنه رؤية عينية .. وآيات الكتاب الكريم تفيدنا أن طلب الرؤية حصل مرتين .

الأولى ــ فى الميقات الذى كان موعودا لموسى أن يتلقى فيه التوراة .

الثانية ــ كانت بعد نزول التوراة وحدوث فتنة السامرى بصناعـة العجل من الذهب ، واتخاذه الها يعبدونه فى غيبة موسى عنهم .

وحديثنا عن الأولى من باب توفية الموضوع وأما الثانية فهى التى تتجه اليها بشىء من الايضاح والتعليق .

٢ ــ حينما حضر موسى الى الوادى المقدس « طوى » فى طور سيناء ومكث المدة المحدودة أربعين ليلة يتعبد فيها ، وحان موعد المناجاة مع الله ، وتجلى فضل الله بمكالمته طمع موسى فى المزيد من تكريم الله له ، فتعلق أمله برؤية الله كما سمع كلامه على الوجه الذى يعلم الله وحده صـفته ، فقال : « رب أرنى أنظر اليك » .

فكان الجواب تلطفا بموسى ، وتعليما له أن هذا طموح فى أمر لايتعلق به الأمل ، ولا تطيقه أنت « لن ترانى ، ولكن انظر الى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى » .

وهذا اشعار لموسى أن شأن الرؤية خطير ، وأن مايبدو لك من الجبل يكفيك اقناعا بمقدار ماطلبته ، وبضعفك عن احتماله بجانب الجبل الذى هو أضخم شيء ترونه « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا »

ومعنى تجلى ربه للجبل :

تكشف الله للجبل تكشفا يعلمه هو ، وتدريجيا بقدر ما تقضى به الحكمة الالهية ، فلم يتحمل الجبل رهبة التجلى ، ومهابة القدسية لعظمة الله تبارك شأنه .

صار الجبل دكا . بمعنى ساخ فى الأرض ، وتطامن حتى لم يصر جبلا سامخا .. وعندئذ سقط موسى مغشيا عليه من هول مارأى .. وأيقن أن طلب الرؤية كان تعلقا بأمل فوق احتمال البشرية .

ولما أفاق موسى من غشيته ، وتنبه الى تلطف الله به ، ورعايته بالخير له . « قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين » .

لم يكن موسى مذنبا فى طلب الرؤية ، بل كان طامعا فى المزيد من فضل الله عليه بالرؤية لذاته على أى صفة ، كما سمع كلامه العلوى على أى نحو شاءه الله .

وانما بادر موسى بتسبيح الله وتنزيهه عن كل شبه ، وبادر بالتوبة من تسرعه فى الطلب دون أن تكون الرؤية موعودا بها مع المكالمة التى كانت على وعد سابق ، وأعلن موسى ايمانه ، بل أنه أول المؤمنين فى غير وهن ، لا لأنه كان جريئا فيما طلب .

وعبرتنا فى هذا الموقف أن تكون وجهتنا الى الله ، وجهة صالحة كما كانت وجهة موسى ، وأن تكون آمالنا دائما فى غير اسراف ، وأن تكون ألسنتنا دائما رطبة بالاستغفار ، والتوبة والدعاء بالخير .

(ب) الموقف الثانى — فى طلب الرؤية — وهو موضوعنا — لم يكن من موسى نفسه ، وقد سبقت له العبرة من شأن الجبل ..بل كان من قومه بعد انزلاقهم فى فتنة السامرى وعبادتهم لعجله الذى صنعه وعبدوه .

١ ـــ أمر الله موسى أن يختار ممن معه طائفـــة يحضر بهـــا الى موقف المناجاة فى طور سيناء ، ليعتذروا . ويتوبوا الى الله من عبادة العجل ، فاختار موسى سبعين رجلا من خيارهم فى اعتبارهم . ولمـــا بلغوا الميقات وسمعوا بآذانهم نجوى موسى لربه لم يتجهوا الى الاعتذار كما جاءوا ، ولا حرصوا على التوبة من جريمة قومهم التى جرفتهم . بل تمردوا على موسى ، وقالوا « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة !! » .

فماذا يكون شأن أولئك المتناقضين ؟

٢ ـــ لهم سابقة فى طلب الآلهة يعبدونها من دون الله ، ولهم سابقة فى عبادة العجل ، رغم أن هارون وعظهم وأنكر عليهم ، وأن موسى عاتبهم على فعلتهم ، ووبخ السامرى فى شدة ، وهدده بعذاب الله ، ثم هذه سابقة جديدة بعدولهم عن التوبة الى التحدى بطلب الرؤية لذات الله .

لو كان ايمانهم بالله ايمانا متأصلا فى قلوبهم . أو لو كان تصـــديقهم عن طمأنينة لما تعثروا فى هذه الكفريات ، ولا تهافتوا على تلك السفاسف ، ولكن ايمانهم من أول الأمر ايمان اللاجىء من فرعون وجبروته ، والمحتمى بموسى ريثما ينقذهم من مذلة الاستعباد .

فاذا ماابتعدوا عن سلطان فرعون فى مصر . واطمأنوا الى حياة آمنة فى سيناء عاودهم التمرد ، وبدا فيهم لؤم الطبيعة ، وخساسة الأنفس ، ونقضوا ماتعاهدوا عليه فى ساعة ضعفهم ، وفى وقت طواعيتهم للرسول ، وماذايستحق هؤلاء فى موقفهم هذا ؟

٣ ـــ أخذتهم صاعقة محرقة ، مدوية ، ارتجف لها الجبل ، وماتوا بهـــا مغضوبا عليهم من الله،فكيف استقبل موسى هذه الفاجعة لمن كانوا فى صحبته وقومه يعلمون أنه ذاهب بهم ليتوبوا ، وأنهم عائدون معه آمنين ؟

خشى موسى ـــ أولا ـــ أن يكون هذا الشر مجتاحا للآخرين الذين لم يذنبوا بعبادة العجل ، والذين لم يتحدوه بطلب الرؤية لله تعالى .

وخشى ـــ ثانيا ـــ أن يساء به الظن من أهليهم الذين لايعلمون تمردهم عليه ، وهنا تتجلى عاطفة الخير من جانب موسى عليه السلام ،فيتدارك الموقف

بضراعته الى الله ، وبدعواته الطيبات ، ويستعطف ربه فيقول « رب ! لوشئت أهلكتهم من قبل واياى » يعنى يارب : ليتك أهلكتهم وأهلكتنى معهم قبل حضورهم معى الى هذا المكان ، وقبل مشاهدتى لهذا الهول ، وقبل تعرضى لاتهام القوم ، « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ » هل تكون نقمتك علينا جميعا بسبب مافعل السفهاء منا ؟ لاتجعل بلاءك عاما لنا ، والطف بنا فى محنتنا هذه .

« ان هى الا فتنتك ، تضل بها من تشاء ، وتهدى من تشاء » .

ماهذه المحنة الا اختبار منك ، يتميز به المؤمن الحق عن غير المؤمن ، ويتكشف لنا به ماخفى من أمورنا ، فيثبت به على الدين من صدق فى دينه ، ويرضى بما جرى من قضاء الله فى خلقه ، وينحرف الى الفتنة من كان مزعزع الايمان ، فيتضح هذا من ذاك ، ويكون المنحرفون مستحقين للنقمة«ليمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين » وفى هذا التوسل من موسى اشارة الى ماسبق فى المناجاة حين نزول التوراة من قول الله سبحانه « انا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامرى » .

فتلك الفتنة هى الاختبار الذى يتعلل به موسى فى طلب التجاوز من جانب الله عن اهلاك الجميع .

وكأنه يقول : يارب ! هذا اختبار اقتضته حكمتك ، ولايمكن أن يكون عبثا ، بل لابد له من نتيجة ، وهى نجاة البعض من النكوص الى الكفر ، واخفاق البعض ممن علمتهم غير ثابتين على عهدك ، فلا نعترض على نظامك ، ولكنا نرجو النجاة من غضبك بسبب جريمة من أجرم ، بل نسألك اللطف بالجميع ، فأنت اللطيف بعبادك ، « أنت ولينا ، فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الغافرين » .

أنت المتولى أمور الجميع ، فاغفر لنا بسترك الجميل مايعلق بنا من شوائب المخالفة حتى نكون أطهارا من حوبة المعصية ، وأهلا لتكريمنا بلطفك ورضوانك ، وان تقصيرنا فى طاعتك لا يغالب عظيم فضلك يا خير الغافرين ، ويا أرحم الراحمين .

٤ — هذا : وانك ياقارئى ! لتعهد فى ذوى العطف من رحماء الناس ألا يضيق صدرهم باساءة المسىء ، بل ينتظرون الهداية وينظرون الى مرضاة الله فيتجاوزون عن المساءة رجاء فى صلاح الحال .

فما بالك بالأنبياء ؛ وهم أرحم عباد الله بعباد الله ؟

تراهم يتراحمون على المخالفين ، ويسألون لهم الهداية ؛ وكما يطلبون لأنفسهم الخير يطلبونه للجميع : الا اذا أذن الله لهم بغير ذلك ، كما دعا نوح على قومه أخيرا .

وحينما دعا موسى بما دعا كان قوى الرجاء فى الاستجابة ، واثقا أن الله ذو رحمة على العالمين ، ولذلك لم يكتف بطلب الغفران والرحمة ، بل توسع فى ضراعته فقال : « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ، انا هدنا اليك » يعنى حقق لنا جميعا حسنة فى الدنيا وهى الهداية ، ونعيم الحياة وحقق لنا فى الآخرة حسنة وهى القبول والرضوان ونعيم الجنة .. ويقول « انا هدنا اليك » يعنى رجعنا اليك باعتذارنا عما فرط من بعضنا .

ولكن الله يجيب موسى بما يفيد عدالة الله فى جزاء عباده فيقول سبحانه « عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء » .

يعنى عذابى ليس شاملا بل هو لمن أشاء تعذيبه من خلقى ؛ وهم الكافرون الذين لم يستجيبوا لدعوة رسلى ، والعصاة الذين لم يتوبوا ولم أغفر لهم .

أما رحمتى فقد وسعت فى الدنيا كل شىء حتى شملت المخالفين من عبادى ، فهم يتمتعون فى الدنيا بأرزاق وأموال وبنين ؛ وبصحة وحياة وغير ذلك ، وهذه الرحمة مظهر فضلى على عبادى جميعا ،وان لم يشكرونى جميعا والله يعطى الدنيا لمن يحب ، ولمن لايحب .

ولكن العدل الالهى يقتضى تفاوت الناس فى حظهم من رحمة الله فى الآخرة التى هى دار الاقامة والخلود على الحالة التى قسمت لهم فيها .

والعدل الالهى يأبى التسوية بين من أسلم وجهه لله وهو محسن . وبين من حارب الله بعصيانه غير مكترث بما جاءه من النذر والآيات .

وازاء هذا تكون الرحمة فى الآخرة حظوظا مقسومة بالعدل ، يتفاوت الناس فيها كما تفاوتوا فى الدين ، وفى الاخلاص فى الأعمال •

وتكون رعاية الله للأخيار من عباده متجلية فى رحمة خاصة ، بهم زائدة على سواهم ممن لم يبلغوا شأوهم ، بل السابقون الى طاعته : سابقون غيرهم الى منازل الجنة ونعيمها •

وهذا هو قوله تعالى : « فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون » فلا يتخلفون عن دين الله ، ولا يكذبون بما جاءهم من عند الله حاضرا وغائبا ، فهؤلاء هم المؤمنون بالغيب والشهادة . ومن آمن بالغيب مما جاء من عند الله فقد أوفى على الغاية .

وفى هذا الجواب غنية لموسى عن طلب جديد فى هذا الصدد ، وتحديد لمطامع الناس فى المغفرة •

هذا جانب من القصص عن موسى عليه السلام ، عرفناه من طريق كتاب الله الكريم على لسان رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه •

ومنه نتعلم — أولا — ألا يشتط المرء فى طلبه كما اشتط بنو اسرائيل فى طلب الرؤية لله تعالى ، ونتعلم ثانيا — أن المرء يعتبر بماجرى لغيره حتى لايذهب ضحية المجازفة كما ذهب بنو اسرائيل بالصاعقة ، ونتعلم ثالثا — أن أفعال السفهاء شؤم على سواهم ، وأن دعاء الطيبين قد يخفف من غضب الله على السفهاء ، كما دعا موسى لقومه ، ونتعلم — أخيرا — وهو آكد ما نتعلمه — أن الله ذو فضل على بنى آدم وان كانوا يهودا لم يتركوا موبقة الا انغمسوا فيها ، ولا عهدا الا نقضوه ، ولا يزالون يطلعون مع كل يوم بأقبح الأعمال ، وشر الأحداث ، والله يتركهم فى طغيانهم ، ولكنه بالمرصاد لهم •

المؤمنون بالحق منتصرون
والمتشبثون بالباطل مخذولون
والمثل فى بنى اسرائيل

ا) « واذ قالت امة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم او معذبهم عذابا شديدا ؟

ب) « قالوا : معذرة الى ربكم ، ولعلهم يتقون .

ج) « فلما نسوا ما ذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء ..

د) « واخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » .

(الأعراف ١٦٤ ، ١٦٥

١ ــ فى كل أمة مجاهدون صابرون ، وفى كل أمة خبثاء مفسدون .

وقد عودنا الله بحكمته وقدرته أن يؤيد أهل الحق ولو كانوا قلة . لأن الحق صفته ــ تعالى ــ بل من أسمائه ، والحق شرعته فى خلقه، فالناهضون الى الحق جنود الله ، والناكصون عن الحق أعوان الشيطان وأعداء الله .. وانما ينصر الله جنده ، ويهزم أعداءه .

٢ ــ ومع ماغلب على بنى اسرائيل من فسوق . وما تحكم فيهم من ضلال كان رسلهم وأخيارهم يدأبون على نصحهم ، ويجاهدون فى ارشادهم ، ويتلقون منهم أسوأ مايلقاه صابرون محتسبون .

وماكان تمادى الغواة فى غيهم ليمنع الأخيار من مواصلة الدعوة . لأنها رسالتهم من عند الله ، أو لأنها رسالة العلم ، توراثوها عن الأنبياء ، فهى فى ذمتهم أمانة الدين ، تحملوها عن أمناء الرسالة .

وانه لمن فضل الله على الناس أن يهيىء فى كل بيئـة من يتعاهدهـا بالتوجيه ، ليظلوا على بصيرة من أمرهم ، فلا تتجه الحياة بهم الى البهيمية ، وينحدرون عن مقام الانسانية ـ ثم لعل استمرار الـدعاة على دعوتهم ، وتحملهم فى سبيلها مرارة العنت أمارة أخرى على رعاية الله لعباده ، وتلطفه بهم ، اذ لم يعاجلهم بالهلاك من عنـده ، بل يثبت فيها أصـحاب الدعوة ، ويخفف عليهم متاعبها ، وصعابها ، حتى يبلغ الأمر مبلغه من نجاح أو بأس ، وينطوى من الزمن ما يكفى للخبرة والمطاولة ، ثم يكون قضاء الله فى خلقه على ما أراد لهم من عاقبة مقدورة بالخير أو السوء .

٣ — وكان فى بنى اسرائيل طائفة ثالثة طيبة غير الناصحين ، ينظرون الى العصاة منهم نظرة اليأس من هدايتهم . وينظـرون الى الدعاة الأخيـار نظرة الاشفاق ، والترفق ، ويحاولون أن يصرفوهم عن دعوة هؤلاء الأشرار الماكرين ، ويقولون مستفهمين : « لم تعظون قوما : الله مهلكهم ، أو معذبهم عذابا شديدا » ؟ ؟ .

يعنى : لافائدة من ارشاد قوم مصرين على افسادهم ، ونقضهم للعهود التى تؤخذ عليهـم ، والمفروض أن يهلكهم الله حتما ببلاء يجتاحهم فى دنياهم ، أو يعاقبهم بالعذاب الشديد فى أخراهم ، أو يجمع عليهم هلاك الدنيا وعذاب الآخرة .

فموقف هؤلاء موقف المحايدين،لايرتكبون مايرتكبه المخالفون، ولا ينهضون بالنصـح مع الناصـحين ،بل يرون أن يعرض الناصحون عن ذلك المجهود الضائع .

٤ — ولكن الناصحين المتعلقين بأداء الرسالة ، وبذل الهداية يأبون الانصراف واليأس ، ويلتمسون لأنفسهم سببين كريمين ، قالوا : « معذرة الى ربكم ـ ولعلهم يتقون » يريدون : أن مثابرتنا على الدعوة لهؤلاء المتمردين لنبرأ الى الله من تبعة التقصير أولا ، وطمعا فى هدايتهم ثانيا ، فربما جنحوا الى التقوى بسبب مواصلة الارشاد .

ثم ظل الدعاة على منهجهم ، وظل العصـاة على غيهم ، فماذا كانت النتيجة ؟ جواب هذا السؤال فى قوله تعالى :

« فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » .

لما بقى المخالفون على تناسيهم للنصح الموجـه اليهم ، حتى كأنه غير معهود لهم ، وقعت فيهم سنة الله ، وجرت عليهم حكمته ، فأخذهم بعذاب بئيس شديد عليهم ، سيء الأثر فى كيانهم وفى سمعتهم ، وذلك بسبب فسقهم

وكان عدلا من الله أن يقصر عليهم جزاء عملهم ، وأن ينجى من ذلك العذاب البئيس دعاة الخير الناهين عن عمل السوء ، ومن كانوا مستقيمين .

٥ ــ ولكن ماهو العذاب البئيس الذى جلبته عليهم معاصيهم ؟

وجواب هذا فى قوله تعالى : ثانيا ــ « فلما عتوا عما نهوا عنه ؛ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » يعنى لما أسرفوا فى المخالفة حتى لم يتركوا ماأمروا بتركه ، بل تجاوزوا فى العنت الى أن فعلوا كل محظور نهوا عنه كان أمر الله فيهم أن يكونوا قردة خاسئين .

٦ ــ وهل هذا المسخ حقيقى فصاروا قردة فى أشكالهم ؛ وخسئـوا بابعادهم عن رحمة الله ، وعن لطفه بهم ؟ .

ظاهر الأية أنه مسخ حقيقى ، ويؤيد هذا الاتجاه أنه ذكر فى مواطن أخرى : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » وفى آية : أنهم صاروا قردة وخنازير .

وليس كثيرا على الله أن يفعل ذلك بمن أمعنوا فى عصيانه ، وفى نقض عهوده ، وفى تقتيل أنبيائه ، وفى ابتداعهم لشرور لم يسبقهم اليها من هلك قبلهم من أشقياء الأمم .

ولا موجب لصرف الآيات عن ظاهرها ، بل فى الأخذ بالظاهر ايضاح لجـرائمهم ، وتجسيم للعبرة بهم ، وتشنيع على من يسـتمرىء المعصية ؛ ويستخف بأثرها ، وبهذه الذكرى المشئومة يتعظ الناس بما يفعل الله فى الظالمين فعلا حقيقيا لا مجازيا .

ولا يلزم أن يكون لهؤلاء الممسوخين ذرية منهم . ولا أن يكون لهمأثر نحسه نحن فى مخلفاتهم ، فهم قد انقرضوا بعد أيام قليلة ، وبقيت ذكرياتهم فى كتاب الله تبكيتا لخلفهم ، وزجرا لسواهم .

ويرى بعض المفسرين أنه نسخ أدبى يراد به الطمس على عقولهم ، فلا تدرك صوابا ، وعلى كرامتهم بين الناس بما يذكر الله عنهم حتى جعلهم فى منزلة القردة والخنازير .

وان كان لهذا التأويل مجال فانه يخفض من قيمة العبرة المقصودة .

ومالا يحتاج الى تأويل أجدر بالقبول مما يحتاج الى تأويل .

هكذا كانت العقوبة الواقعة ، أو احدى العقوبات لبنى اسرائيل .

بل لم يقف بهم الأمر عند هذا الحد ، فقد توعدهم الله بشر يلازمهم الى نهاية الحياة فقال : « واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » ثم أخبر أنه سيقطعهم أمما مختلفة ، فمنهم أمة طيبة مستجيبة للرسول من بعد ، ومنهم أمم دون ذلك ، وساء مايعملون .

٧ — واذا كان هذا المسخ قضاء الله فى اليهود المخالفين ، فأين الفريق الثالث المحايد ؟ لم تتعرض لهم نصوص الأيات ، فهل ذهبوا ضحية الفتنة التى أتاها واقترفها العصاة من قومهم ، لأنهم لم يزجروهم عنها ، والفتنة تصيب فاعلها وغيره ؛ والراجح أنهم كانوا من الناجين مع الدعاة المرشدين ؛ فلم يمسخهم الله ، ولا آخذهم على حيادهم ، لأنهم لم يسكتوا عن رضا وموافقة حتى يعتبروا شركاء فى الجرائم ، أو يعتبروا من المتخاذلين الذين وصفهم بقوله تعالى : « كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ماكانوا يفعلون » بل سكتوا عن يأس وهم غاضبون بقلوبهم على العصاة ، ومستكثرون أن يستمر النصحاء على نصحهم .. والحق فى شأن هذه الطائفة الثالثة أنها كانت معنية بالدعوة والنصح ، وما تخلفت عن هذا الا يأسا ، وعلى هذا تعتبر من الذين ينهون عن السوء فعلا ، فلا تكون فرقة ثالثة من أول أمرها ؛ بل باعتبار موقفها المحايد أخيرا .. وعلى أى توجيه فليسوا من الفاسقين الهالكين الممسوخين .

٨ — وفيما ذكرنا من هذا القصص دلالة أكيدة على أن المعاصى سبب فى المشأمة ؛ وكثيرا مايتحدث كتاب الله عن هلاك الهالكين بسبب مأثمهم - وعن عذابهم فى الآخرة بعد ابتلائهم فى الدنيا ، وطالما يحثنا القرآن على السير فى الأرض لننظر آثار المهلكين ؛ وكيف كانت عواقبهم بعد أن كان لهم فى دنياهم جبروت ، وثراء ، ومتاع ؛ فأصبحوا أثرا بعد عين ، واذا كانت الأزمان

قد عفت على كثير من مشاهد حياتهم فلا تزال هناك بقايا فى نواحى ديارهم ، ولدينا رموز من آثار الفراعنة ، شاخصة وشامخة .

وكذلك يجد الناس فى مناكب الأرض آثارا تفسر لنا قصص القرآن عن الغابرين ، وتزيدنا ايمانا بأنه القصص الحق من عنـــد الله .. ومايبنغى أن يتشاغل الذهن عن استحضار هاتيك الأحداث فى ذكرياته .

والقرآن يذكرها كثيرا فى أساليب متعددة . ويقرنها بظلمهم . وفسقهم وماكانوا يصنعون .

وهل نحتاج الى تصريح أقوى من قوله تعالى : « وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » .

أو نحتاج الى زجر بأوضح من قوله تعالى : « فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » وقوله عن قبيلة عاد — مثلا — « .. الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد » .

وهكذا أراد الله أن يكون فى شأن اليهود قصص يقشعر له الضمير الحى ، وأن تكون ذكرياتهم وخزات فى مشاعر الانسانية .

ولم تعد العبرة بما عرف عن اليهود محبوسة فى القصص التاريخى . بل شأنهم فى الدنيا ، وألاعيبهم هنا وهناك تشهد بما شهد الله فيهم «ولاتزال تطلع على خائنة منهم » .

وأحداثهم فى حاضرنا تفيد أن العالم كله على بينة من مخازيهم . حتى الذين يمالئون اليهود ، ويتخذونهم أعوانا فى المنافع ، أو يسخرونهم فى مناوأة الغير فهم أعرف باليهود من سواهم ، ولكنها الغايات .

وقد تكرر فى القرآن وعيد الله لبنى اسرائيل بما يلازمهم من هوان . ومذلة وقلق ، وما من شك فى أن حياتهم متأرجحة ، وأنهم غير قانعين بما هم عليه ، وأنهم فى سورة تزعجهم دائما . اشفاقا على أموالهم ، وعلى كيانهم ، وعلى تمزيقهم فى جوانب الأرض . وهذا بلاء لايستهان به فى الحياة .

ومهما تريثت بهم الأحداث ، أو تطامنت لهم الدنيا ، أو احتضنتهم دعاة الاستعمار : فان الله صادق الوعيد فيهم ، ولا جرم . والزمن كاشف عمـــا تضمره الأقدار بعد .

هذا — وقد ذكر المؤرخون أن بنى اسرائيل المعنيين فى التاريخ هم أهل التوراة الذين درجوا على أرض سيناء ، وهم بنو يعقوب بن اسحاق عليهما السلام .

أما الذين دخلوا فى اليهودية كدين لهم من أبناء الأمم الأخرى فليسوا من صميم بنى اسرائيل الذين نسجوا ذلك التاريخ الملوث ، وخلفوا هاتيك الذكريات المخزيات .

وماقصدنا من هذه اللمحة الا مجرد التمييز بين عنصريهم من ناحية الجنسية والوطنية .

أما فى العقيدة فلا خيار لفريق على فريق ، وهم سواء فى مسايرة الأباطيل والانهماك فى الافك والضلال ، وقبحا للجميع ، ولمن على شاكلتهم من الأشرار .

هذا ، وقد تركز فى أذهاننا مما سلف أن المآثم والانحراف سبب الوبال والعذاب ، ولكن بعض الناس لايرى ذلك مطردا فى أرباب الفساد ، وقد أوضح أولو العلم أن شيوع الرذائل فى الأمم شؤم على مجموع الأمة ، وأن الله يديل الدولة بسبب تحللها ، ومجافاتها لدينها ، وهذه سنته فى الخليقة ، وهذه توجيهاته على لسان جميع رسله ، وهذه هى العبر التى يتحدث بها التاريخ من واقع الحياة « حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فاذا هم مبلسون » هالكون . أما معاقبة الأفراد بسبب انحرافهم فقد يحصل هذا فى دنياهم ، وقد يمهلهم الله الى الآخرة .

وكم من آثم تعثرت به الحياة ، وأحدق به الشؤم بسبب انحرافه !! وكم من آثم ظل سادرا فى لهوه ، وعاش رافلا فى حظه حتى خرج من دنياه حاملا أوزاره ، نادما على مافاته ، وقد فات أوان الندم .

وبعد : فقد بين الله مناهج الحياة ، وضرب الأمثال بمن سبقوا ، وأكد صادق وعده ووعيده للأفراد ، وللأمم ، ولم يبق الا أن نحسن الاستجابة .

ونحن نسأله التوفيق لنا أفرادا وجماعات،وأن يعصم الجماعة الاسلامية من كيد خصومها بحوله وقوته .

حياتنا الدنيا مرحلة اختبار في العمل للدين وللدنيا ثم مردنا إلى الله ليجزينا بعدله!

أ) وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون

ب) .. والدار الآخرة خير للذين يتقون : أفلا تعقلون ؟

(آية : ١٦٨ ـ ١٦٩ الأعراف)

هذا شطر من آية كريمة وردت فى معرض القصص عن اليهود .. وقد كان من ذلك القصص أن الله أضفى عليهم خيرا كثيرا ، وأصابهم كذلك بشر كثير : فهم يتقلبون بين حسنات وسيئات لتكون لديهم فرصة الرجوع الى الله اذا كانت فيهم طباع كريمة يستلينها الخير ، أو كانت فيهم نفوس لئيمة يقمعها الشر ، ويردعها التخويف .

فان يكن فى اليهود هذا وذاك فقد اتاح الله لكلا النوعين مايلائم نزعته وهيأ له سبيل توبته :

فاذا لم يكن منهم تأثر بالخير ، ولاعبرة بالشر: فان ذلك يكون امتحانا تتكشف به خباياهم ، ويعلم منه اليهود ، ومن حولهم ، ومن بعدهم ما كان خافيا عليهم من طويات النفوس ، وتقوم عليهم الحجة بما جنوا على أنفسهم فى الحياة حتى خذلوا فى الاختبار .

فماذا صنع اليهود ازاء ماابتلاهم ربهم به من حسنات وسيئات .

حدثنا القرآن بامتداح نفر منهم آمنوا بموسى من قبل : ايمانا صادقا « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون » .

ثم حدثنا القرآن كثيرا عن الآخرين منهم بغير ما ذكر عن صالحيهم الأولين « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ، وان يأتهم عرض مثله يأخذوه » .. أى لم يكن منهم ايمان وشكر على النعمة ، ولا عبرة وازدجار بالنقمة ، بل توسع هؤلاء

الخلف فى الفتن ، وأوغلوا فى الفساد ، وخالفوا ماعرفوه من التوراة ،وأقبلوا على الدنيا فى غير اعتدال، ولاتعفف :وهم مع مايرتكبونه من نقائص يزعمون لأنفسهم مكانة عند الله ، ويقولون : سيغفر لنا ما ارتكبنا ، لأننا أبناء الله وأحباؤه ، هم مع اسرافهم فى الانحطاط ، وشعورهم بأن وراءهم حسابا ينتظرهم يعللون أنفسهم بأنهم من أهل المغفرة ، ولا يكفون أنفسهم عن المخازى ، بل يتمادون فيها ، وان يأتهم حطام دنيوى يفتنهم كما فتنهم الحطام الحاضر ، يقبلون عليه فى كلب ، وجشع ، غير ذاكرين ما فى التوراة من توجيهات ولا مراعين ما بها من مواثيق ، ولا مستشعرين ما يقتضيه الايمان من الوفاء بعهد الله ، كما هو شأن المؤمن الصادق فى دعواه ، وكما هو مفروض فيمن تصادفه النعمة فتثير فيه نزعة الخير ويشكر ، أو تصادفه نقمة فتنبه فيه بلادة الحس ، ويثوب الى رشده ، ويخشى بأس الله .

هم سادرون فى غرورهم أو غفلتهم ، ومزاعمهم ، والله تعالى يزجرهم عن الكذب عليه ، ويذكرهم بما فى كتابهم من قبل أن يحرفوه ، وينفى كل مايتعللون به من أمل فى تكريمه لهم « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب — التوراة — ألا يقولوا على الله الا الحق ، ودرسوا ما فيه» فهم فاهمون له ولا عذر لهم فى الخروج عنه .

نعم ! فى التوراة عهود أكيدة ، بينها الله لبنى اسرائيل ، وكلفهم أن يأخذوا بها ، دون عبث بها ، ولا تنصل منها ، وهم عارفون بها .

ولكن : أين الوفاء عند قوم تحولت ميولهم عن جانب الخير ، وغلبت عليهم خسائسهم ؟ وهنا : يكون اختبارهم بالحسنات أو بالسيئات غير مجد فى تقواهم ، ويكون مظهرا لما علم الله من طويات نفوسهم : فهم عصاة معادون لله ، لا أبناؤه ، ولا أحباؤه .

والله تعالى ، يبعدهم عن الأمل الكاذب الذى يتشبثون به ، ويجعل وعده بالقبول والرضوان لغير من يكون على نمط اليهود ، فيقول :

« والدار الآخرة خير للذين يتقون — أفلا تعقلون » .

فليست الآخرة خيرا للكاذبين على الله ، ولا للناقضين مواثيقه ، وانما هى خير للممتثلين لدعوة الله الذين لايكفرون بنعمته ، ولا يتبجحون عند بلائه .

وهذا مفهوم واضح ، توحى به آيات الله ، وتهتف به دعوة الرسل ، وهى غاية مقررة يجب أن تفطن اليها العقول ، فاعقلوها قبل أن تتورطوا فى الضلال ولاتفرضوا مساواة بين المستجيب ، والمتمرد : فضلا عن أن يـكون المسىء خيرا من المحسن كما يتخبط اليهود فى أحلامهم وأوهامهم وقد أخزاهم الله بقوله « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية » .

وهكذا : اذا رانت الشهوات ، وراجت الأباطيل تخلفت البصائر عن ادراك الحق ، والتبست المفاهيم على عقول المسرفين فيجنحون الى الغواية ، ويعيشون فى بعد عن جانب الهداية ، ولا يفطنون الى وعد الله ووعيده ، فيتركهم الله لأنفسهم ، ولا يبصرهم بأمرهم .

ثم هو يطمئن المعتدلين بقوله : « والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لانضيع أجر المصلحين » .

ذلك هو الوعد الحق فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا .

وبعـد :

فليس الاختبار بالحسنات والسيئات سنة قاصرة على اليهود ، بل البلاء سنة مطردة فى حياة الناس عامة ، وانما اختص اليهود بذكرها كمافى موضوعنا لأنهم تجاوزوا كل اعتبار ، ونقضوا كل عهد ، وتعرضوا للبلاء بالخير والشر كثيرا ، ولم تكن لهم عظة بل تمادوا فى غيهم حتى كان القصص عنهم حافلا بالعجائب ، وتاريخهم زاخرا بالأمثال أكثر من سواهم .

أما ماهنالك من بلاء للناس فالقرآن يسوق لنا شواهد كثيرة تقرر أن سنة الله لا تتخلف والفرق أن أناسا يهتدون ، وآخرين يتمردون ويشذون ، والايمان الشخصى هو الوسيلة التى يتعلق بها المرء فى اجتياز الاختبار ، فلا تكون النعمة مطغية له ، ولا النقمة فاتنة مؤيسة من قبول التوبة والانابة .

والله تعالى يقول فى ذلك : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منـكم والصابرين ، ونبلو أخباركم » « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم » « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون » ؟ « ولنبلونكم بشىء من الخوف ، والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين»

فالبلاء بالخير وبالشر ضرب من ضروب التربية السماوية ، يصلح به أناس ، وينكشف به أمر آخرين ، والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب ليكون الناس على علم بأنفسهم ويكونوا على اطمئنان ويقين من حكمة الله فيهم ، وعدله معهم .

والحق أن المرء فى موقفه أمام النعمة تكون له هزة ابتهاج ، ونشوة غرور بها ، فهل يذكر مصدرها ، ويحمد فضله ، ويرعاها حق رعايتها ، ويضعها بحسن التصرف فيها حيث ينبغي أن يضعها فى سبيل الخير لنفسه ، ولغيره : سواء أكانت نعمة بمال ، أو علم ، أو جاه ، أو صحة الخ ، لتكون هذه النعمة مأمونة العاقبة له ، ولذريته من بعده ؟

أو تكون النعمة فاتنة لصاحبها عن حسن التقدير لها ، فيبطر على الله بسببها ، وينسى حقها عليه فى الشكر ، وحسن التصرف فتكون فى مهب الزوال ، وتصبح ندما عليه ؟ وذكرى سيئة له ؟

وكذلك المرء فى موقفه ازاء ابتلائه بالسوء تكون له هزة اضطراب واستياء فهل يستقبل بلاءه هذا بالركون الى الله ، والرضا عن القضاء ، والاعتصام بالايمان ؟ وهل يعلق رجاءه بلطف الله ، ويلتمس من فضله تفريج كربه ، ليهون عليه الخطب ، ويكون غير متمرد على القدر ، محسوبا فى الصابرين الذين وعدهم ربهم بحسن الجزاء فى دنياهم وأخراهم ، أو يجزع عند الحادث المكروه ، والبلاء النازل ، ويضيق لأزمة تلاحقه فى ماله ، أو أهله أو صحته أو جاهه ؟ ؟ .

ان الجزع لايرد قضاء ، ولا يخفف من هول ، بل يزيد فى الأسى ، ويثير الشجن ويبدد الايمان ، حتى لينسى الانسان جانب الله ، وييأس من روحه ولطفه ، وليس وراء ذلك الا اعتراض على تدبير الله ، وخروج عن دينه « انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

شأن الانسان أن تغريه النعمة ، وأن تحزنه النقمة ، وقد يشتط فى تفكيره فيخرج عن جادة الاعتدال .

والقرآن ينبهنا الى الحذر من التطرف «واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه : واذا مسه الشر كان يئوسا » .

وينبهنا القرآن كذلك الى أن شأن الدنيا عدم الاستقرار على حال واحدة ، وانما هى بين خير وشر ، وعسر ويسر « فان مع العسر يسرا » .

وينبهنا الى أن اللائذ بجانب الله والمهتدى بهديه ، والواعى لدينه وعقيدته لا يخدعه عنه الحظ اذا أقبل ، بل يجب أن يقربه ، ويشكره ، لتتسع نعمة الله عليه ، وألا يسئمه الضنك فى حظه ، حتى يصرفه عن حسن ظنه بالله والطمع فى فضله ، بل يذكر نفسه بمواقف الصابرين وتجلدهم ، ويؤمن بأن لله فى خلقه تصريفا يجب الاطمئنان اليه . ويذكر نفسه بما هو عليه فى مسلكه دينا ودنيا ، فلعل ذلك البلاء بسبب من عمله السىء ، ولعله يستفيد بالعبرة والاتعاظ مما جرى عليه .

هذا — وكما يكون موقف المرء محسوبا عليه ، أو محسوبا له :يكون موقف الجماعة والأمة فى الأحداث العامة .

فأمة تغرها النعمة ، ويتوافر لها الأمن فتنحرف عن جادة رشدها ، ولا تدوم عليها رفاهتها ، ولا يلبث عيشها أن يتبدل سوءا ، وان طال بها الزمن .

وهذه قصة أهل اليمن فى عصورهم الخالية ، بلغ بهم نعيم الحياة ما بلغ ، فلما أسرفوا على أنفسهم بدل الله نعيمهم ، وأذهب بهجتهم وشوه تاريخهم ، فكانوا حديثا يذكر بالأسى والتحسر ، وكانت ذكراهم فى القرآن مثلا للآخرين .

وكذلك جرى البلاء على المسلمين حتى فى مطلع تاريخهم المشرق ، وحين وجود النبى الكريم فيهم — صلوات الله عليه وسلامه .

كانوا قلة فانتصروا ، وفقراء فاغتنوا ، وحين ساورتهم الخواطرفاغتروا بكثرتهم يوما ما : لم يتركهم الله لغرورهم ، بل هزمهم أحيانا أمام عدوهم ، وذكرهم بأن كثرتهم لم تغن عنهم شيئا فى غزوة حنين وغيرها من غزوات أخرى لحقتهم فيها مهانات الهزيمة ، ثم تداركهم الله بنصره ، ورفع رايتهم أخيرا على أعدائهم ، وعلمهم أن هذا ابتلاء لهم ، ليكفوا عن الغرور ، وليثبتوا عند الاختبار بالشر على ايمانهم وجهادهم ، والقرآن يردد على مسامعنا قوله تعالى فى كلتا الحالتين : « وسنجزى الشاكرين — والله مع الصابرين » .

ســـــوء الاختيار مهلـكة

ا) « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منـــها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين »

(الأعراف ١٧٥)

ب) « ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب : ان تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنـــا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » .

(الأعراف ١٧٦)

١ — كثيرا ما يعتمد القرآن عـــلى ضرب الأمثال فى بيان قضـــاياه ، وتنبيه الوعى الانسانى الى ما يكون غافلا عنه .

ولأن الحواس أقرب الطرق الى العلم ، وأقوى الوســـائل فى الاقناع والاقتناع . كانت حكمة الله أن يختـــار أمثـــلة من الواقع الذى نحســـه . تبصيرا بما نحن عليه فى مسلكنا العملى .. وكان من هذا القبيل أن يحدثنا الله فى كتابه عمن يخاطب بالدعوة الى الهدى ، وترسم له معالم الطريق ، ثم لا يكون منه الا اهدار عقله فلا يحتكم اليه ، واهمال الآيات فلا ينظر فيها . والاستهانة بالمصير المشئوم فلا يحسب له حسابا فى حاضره .

وحينما يستبد المرء بنفسه ، ويشتط فى غوايته لا يكون مبقيا عـــلى كرامته ، ويكون نازلا الى المنزلة الدون .

وهذا ما نقف أمامه بالآيات التى معنا الآن .

فالله — تعالى — يحدثنا فيها عن رجل من عبـــاده هبط من مشارف الكرامة الى مساقط المهانة ، حتى صار مثله فى قصص القرآن مثل الكلب ، وقد تعارف الناس أن الكلب من الخساسة والهوان بمكان .

رجل سمع دعوة رسـوله ؛ وبلغته آيات ربه . فلم يكلف نفسـه أن يستمع ، ولم يسهل عليه أن يتبصر ، ويفطن .

بل تنحى عن جانب الدعوة . وتنصل من الآيات كما لو كانت شـيئا يضره ، أو مهلكة تحدق به .

أيكون ذلك الرجل من بنى اسرائيل : هو بلعم بن باعوراء ؟؟ .

أم يكون من أمة محمد : هو أمية بن أبى الصلت ؟؟ أم غيرهما ؟؟

القرآن لا يعنى بشخصية رجل تخبط فى ضلاله ، وانما يعنى بقصته فى نفسها ، ويسوقها فى أسلوب جدير بها ، ويصورها لنا فى صورة مجلوة لنأخذ منها العبرة .

وهو على أى حال شخص من أولئك الذين كان لهم فى القوم شأنهم . وحولهم أنظار ترمقهم ، ووراءهم أتباع يتعلقون بهم ؛ ولكنهم غرتهم دنياهم . وفتنتهم مظاهرهم ، فغلبت عليهم ضلالتهم ، وكانوا مثل الخيبة فى عصورهم؛ وآسوأ ذكرى فيمن بعدهم .

حصل هذا من كثيرين فى الأمم السابقة . وحصل من أناس فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ ولكن رجالا منهم تجـاوزوا فى اسرافهم . وانخرطوا فى شر ما يختاره الحمقى لأنفسهم ؛ فعمد القرآن الى ذكر قصة تمثل أيهم فى صورة الكلب، وأمرالله رسوله أن يتلو على الناس نبأه ، لما فى ذكره من تشنيع عليه ، وتحقير له ، ولما فى قصته من هول الموقف وبشـاعة الحال . يقول الله لرسوله ما معناه : واتل على الناس نبأ ذلك الرجل الذى بلغته آياتنا فانسلخ . منها ، وطرحها كما تسلخ الشاة من جلدها ويطـرح عنها . فتصير وكأنه لم يكن منها ولم تكن فيه .

ومادامت للانسان مدارك ، وله اختيار فى مسلكه فبطرحه للآيات . وابتعاده عن تفهمها يكون قد أسلم نفسه للهوى ؛ وأقبل راضيا على دعوة الشيطان .

والشيطان فى حرص على اجتذاب الغواة الى مصاف جنوده ، يزين لهم كل سوء ، وينفرهم من كل خير ، ويهون عليهم تكذيب الآيات ؛ والاستهانة بالنذر ، فيعيشون فى ضلال متراكم ومآثم متلاحقة .

وما كان عزيزا على الله أن يهدى بآياته ذلك الضال ، وأن يرفع من شأنه بسببها !! ولكن : غلبت على الضال شقوته ، فأخلد باختياره الى الهبوط كالنازل الى الأرض ، وحاد عن مستواه الكريم .

والله يعلم من شأنه أنه لا يهتدى لسوء اختياره ، فتركه فى عمايته ، بين موجات من الفكر المضطرب ، تقذفه يمينا وشمالا بين ملاذه ينهمك فيها، وتكالبه على جمع الحطام ، وحرصه على مظهره بين الملتفين حوله .

وبين خوفه على شيء من هذا أن يفلت من يده ، ومن طوارىء تنغص عليه متاعه ، فهو بين شواغل وهموم تساوره ، وعلى غير قرار فى شأنه .

ولو أنه انتفع بالآيات فى توجيهاتها ، ورضى بما لديه ، وترك الأمر لتدبير الله بمشيئته ، وسلطانه ، لكان أسعد حياة ، وأهدأ بالا ، وأحظ عاقبة .

ولكن الرجل — وقد رضى لنفسه ما رضى — صار كالكلب الذى يجهد نفسه دائما فى تنسم الهواء ، فهو يلهث فى التنفس بشدة ، ويخرج لسانه من شدة مابه من اعياء فى اخراج تنفسه ساخنا من جسمه ، والتماس الهواء الرطب .

ولا يستطيع الكلب أن يتخلص من هذا لسبب يلازمه فى جهاز تنفسه الضعيف بطبيعته .

مجهود الكلب لا يريحه ، ومنظره لا يزايله وهو على حاله تلك : سواء أحمل عليه الانسان ليبعده ، أم تركه قريبا منه ، وأنه بنباحه يؤذى الناس ، وكذلك الكافر المتحدث عنه ، وشأنه شأن أمثاله من المكذبين بالدين .

ولبئس هذا المثل الذى يتمثلون فيه بالكلب ، وقد كرمهم الله فلم يكرموا أنفسهم ، ودعاهم فلم يستجيبوا لدعوته .

فليعيشوا كما أحبوا لأنفسهم مقاطعين لله ، ولن يفلتوا مما أعد لهم من عذاب مقيم .

هذا قصص لايراد منه تصحيح وضع سابق بعد أن تردى فيه أولئك الجاحدين .

وانما يراد بهذا تذكير من غفل ، وتدارك الأحياء منا بالنصيحة أن تزل أقدامنا فيما زلت فيه أقدامهم .

وتشخيص النبأ فى صورة واقعية لايقبل تكذيبا ، و لاريبة .

وأن تكون هذه الصورة تمثيلا بالكلب أبلغ ما يضرب من الأمثال فى بيان شأن الكافرين بالله ورسوله وآياته .

والله تعالى يضرب المثل بما يليق بحالنا ويرجى منه أن يفيد فى توجيهنا، وهو — سبحانه — لا يستحى أن يضرب مثلا ما !!

ولايسبق الى الذهن أن التمثيل بالكلب مقصود منه التنفير من الرحمة بالكلب ببخس شأنه ، كمخلوق ينتفع به الناس فى الحراسة والصيد والاستعانة به فى تعرف الاثر فضلا عما فيه من وفاء لصاحبه ، وصبر على الجوع وغيره فى سبيل الانسان ، خصوصا أن النبى أوصانا به وبغيره فى قوله « فى كل ذى كبد رطبة صدقة » .

وانما المقصود — كما سلف — بيان ما هو عليه من مجهود يلازمه وايذاء للناس وذلك شأن الكافر .

وان يكن ظاهر القصص فى موضوعنا تهذيبا دينيا ، فالقصد تثقيف أعم وأوسع : مما يتصل بالحياتين . ويصلح به شأن الانسان عامة .

وليس من صواب الفهم دائما أن نقصر التعميم فى الارشاد على ناحية، ونقطع الصلة بين الارشاد للدين والدنيا .

فان الهدف الأكمل تربية المسلم تربية مثلى فى حياته ، وفى كل جانب من جوانبها .

وحض الانسان على حسن الاختيار فى تصرفاته عامة يكفل فلاحه ، وطيب عيشه فى دنياه ، وبهذا يكون أكثر قدرة على الاحتفاظ بدينه ، وأكثر قوة فى المجتمع .. والمؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف .

والله تعالى يختم آية الموضوع بتوصيتنا أن نفكر ، ونفطن ، حتى لا يكون النبأ الذى أمر الرسول بتلاوته علينا مجرد خبر عار عن الغاية منه. فيقول : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » .

وتلاوة الآيات ، أو سماعها دون الاستمداد منها والاهتداء بها يكون أشبه بانسلاخ الكافرين منها لما فى الحالتين من اعراض واستهانة بمقاصدها، والله نرجو أن يكون عونا لنا على الوفاء بما يحبه ، ويرضاه .

مقارنات ومفارقات
بين
الجن والانس والأنعام

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

(الأعراف ١٧٩

١ — بينما نجد القرآن الكريم يرفع من شأن الانسان فى كثير من آياته ، حتى ليصرح بأن الله خلقه فى أحسن تقويم وبأن الله فضله على كثير من خلقه تفضيلا !!

نجد القرآن فى مقامنا هذا ينزل بالانسان الى حضيض الهوان ، حتى ليجعله فى منزلة الأنعام من بقر ، وأغنام ، وابل .

وهذا تنويع فى الحديث عن الانسان يثير الانتباه الى ماهنالك .

٢ — فتفضيل الانسان : بحسن خلقه ، وباختياره خليفة فى الأرض وايثاره بالمدارك والشعور ، وتخصيصه بالعلم والحكمة ، وتمييزه بالتشريع ، وتوجيه الخطاب اليه ، واختيار الأنبياء منه ، وفى كل ذلك اشادة بالانسان ، وتقليد له بمقاليد الثقة فيه ، وانتظار الأمانة من جانبه ، والوفاء بما عهد اليه من طاعة الله ، وتعمير للدنيا والحضارة ، واستخدام للطبيعة فى ابراز معالم القدرة الالهية فى هذا الكون .

٣ — والنزول بالانسان بعد ذلك منوط بمسلكه هو ، وبأسباب من جهته هو ، وبما رضى لنفسه من تجاهل لمكانته ، ولشأنه ، وتسامح فى أمانته وزهادة فى حسن علاقته بربه الذى بوأه مقعد السيادة بين خلائقه .

وقد مر بنا فى حديث قريب أن بعض بنى الانسان هبط بنفسه حتى

عاد فى لجاجه أشبه بالكلب اللاهث دائما ، والذى اعتاد الناس أن يذكروه فى معرض التسفيه والحقارة ، وان كانت له مزايا مشكورة يعرفها الناس .

٤ — فان يكن للانسان مقام رفيع فى اعتبار القرآن : فبما آتاه الله من فضله .

وان يكن للانسان هــوان ، ونزول فى قصص القرآن ، فذلك بما اختار الانسان لنفسه والجناية منه ، لامن سواه ، والانسان ظلوم ، جبار ، كفار .

٥ — ومن عدالة القرآن فى حديثه أن يفصح فى موضوعنا الآن عن صفات أولئك الذين أساءوا ، ويذكر شأنهم ، وما كانوا عليه ، فلم يجعل على بنى الانســان جميعا ، وان كان له تعميم فى بعض الأحيــان قاصدا الى الجنس فى عمومه الاجمالى ، لا الى التعميم فى حكمه وهو يقول هنا : « ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجن والانس » فهــذا حديث عن فريق من الجن والانس ، لا عن الجميع ، والحمد لله .

فالجن والانس مكلفون جميعا ، وان كانت الرسالة فى الانس خاصه فالتبليغ عام بالوســاطة « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا : يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه ، يهدى الى الحق والى طريق مستقيم ، ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لــكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم » « قل أوحى الى انه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا » ، ونحن نعلم أن الله اذ خلق الجميع جعل الغاية العليا المنظورة منهم أن يعبــدوه ، ولا يشركوا به غيره « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » .

وهذه الغاية بحسب فطرتهم وما أتيح لهم من ادراك ، وفى مقارنة بين الخير والشر ، والحق الباطل ، وتفضيل واختيار لأنفسهم .

وفى جانب ذلك يقول : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس » فكيف يخلقهم للعبادة ، ثم كيف يخبر أنه خلقهم وبثهم فى كثرة ظاهرةليكونوا لجهنم ؟ ؟ .

وهذه شبهة يتخيلها الفهم ، ولكن المراد أنه بعد أن خلقهم كانت عاقبة ذلك أنحصل من كثير منهم انحراف باختيارهم ، فعملوا عملا غير صالح ، فكانوا لهذا أهل جهنم .. والله تعالى محيط بكل هذا من قبل أن يخلقهم ، ويعلم أن اختيارهم سيكون شرا على أنفسهم ، فذرأهم فى دنياهم عالما بمآلهم الأخير ، فكأنه خلقهملهذا وحده بمقتضى اختيارهم الخاص وانصرافهم عن الهداية الى غيرها .

وذكر الجن فى صدر الكلام يؤكد أنهم مكلفون كما تؤكد ذلك آيات كثيرة صريحة ، بل يؤكد أن حظهم فى العقاب أشد من الانس لكثرة العصاة، منهم وحسبنا أن الشياطين منهم . وفى هذا ما يزيل الجهالة التى دفعت بعض المتحدثين الى انكار تكليف الجن بما كلف به الانس من شئون الدين .

٦ — ثم أخذ القرآن يواجهنا بسبب انحدار الانسان مع المنحدرين من الجن عن مستواه الرفيع ، واتجاهه الى غير أهدافه الكريمة .. فذكر أمورا ثلاثة .

الأول — أن لهم قلوبا — ولكن لا يفقهون بها . والثانى — أن لهم أعينا — ولكن لا يبصرون بها . والثالث — أن لهم آذانا — ولكن لا يسمعون بها .

أ) فالقلب للتعقل ، وهو هنا جانب روحى فى الانسان ، ليس مرادا منه تلك القطعة المعروفة فى الجسم ، ويسمى عند العلماء فى الجانب الشرعى عقلا بالنسبة لأنه أداة الفهم ، والتعقل ، ومن هذا قوله تعالى : « أفلميسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ?? » .

ويسمى عندنا اليوم بالضمير ، ومن هذا قوله تعالى : «واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة » . أى تألمت ضمائرهم المنحرفة بسبب كفرهم .

ب) والأعين للابصار ، والمشاهدة ، وتعرف ما فى الدنيا من آثار القدرة وملامح الوجود فى هذه الحياة .

حـ) وكذلك الآذان للسمع ، واستماع القرآن ، والارشاد ، والاعتبار بما ينفذ منها الى القلب .

ومن هذا يتبين أن الآيات الكونية المشاهدة .. وأن الآيات المتلوة فى القرآن تتلاقى كلها من طريق السمع ، والبصر ، وبقية الحواس ، وتستقر آثارها فى القلب الواعى ، فتكون النتيجة علما ، وايمانا ، وفطنة الى كل ما ينفع وتلك غاية الدعوة الدينية لخير الانسان هنا وهناك .

وأكثر هذه الوسائل موفورة للجن ، وكلها موفورة للانس خلقت لهم ، لأنهم أهلها ، وفى حاجة الى الانتفاع بها ، فاذا عطلوها عن الجانب الدينى أو صرفوها الى غير النواحى الجدية ، فلم يستفيدوا بها تعقلا ، ولا مشاهدة، ولا متابعة لأحداث التاريخ والعبرة بها ، كانوا فى هذه الناحية أشبه بالأنعام فى سذاجتها .

فان الأنعام لا تعقل من دنياها الا ما تدفعها اليه الغريزة من احساس بالجوع ، أو العطش ، والتعب ، وليس لها فى دنيا العلم مجال .. وعلى هذا لا يتحقق الفرق فى الانسان على الحيوان مادامت الغـــاية واحدة فى أكل وشرب ، وملاذ ، ومتاع .

بل المكلفون من الجن والانس يكونون أكثر ضلالا من الأنعام ، لأن هذه معذورة بتجردها من تلك المزايا ، والوقوف بها عند تسخيرها للانسان فى منافعه .

بل يكون المكلفون كذلك أكثر ضلالا لسماعهم ما سمعوا من الآيات ، وشهودهم ما شهدوا ، ولعلمهم بأنهم مسئولون عن كل ذلك ، ومعاقبون على اغفاله ، ثم فهم سادرون فى غير اكتراث .

مع أن الأنعام تتقى ما يخيفها ، وتتجنب ما يضرها اذا استشعرت شيئا من ذلك .

فوضح أن الانسان والجن قد تنزل مكانتهما فى الاعتبار عن درجـــة الأنعام .

وصدق فيهم قول الله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها — الى قوله : « ان هم الا كالأنعام بل هم أضل » .

ولو كانوا من غير قلوب ، أو من غير أعين ، وأسماع : لكان خطبهم آهون ، ولكن الحجة قائمة عليهم بما أنعم الله ، وبما فضلهم ، ولكنهم عطلوا هذه الأسباب التى أتيحت لهم فكانت عليهم مسئولياتها ، وصاروا فى غفلة عن أنفسهم لا تساويها غفلة الحيوان الأعجم ، وكأنه لا غفلة من سواهم مهما يكن الشأن ، فحصرها القرآن فيهم « .. أولئك هم الغافلون » وما زال القرآن يجدد الذكرى ، ويصدع بها فى الأسماع ، وهم على ما وصفوا به « ان السمع والبصر والفؤاد : كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وما يزال الانسان يعطى من نفسه دليلا على صدق ما ورد فى شأنه ، وما يزال واقفا من دعوة الله موقف الأجنبى عنها .. كأن هناك انسانا آخر ، وكأنه هو ذاهب الى عاقبة مضمونة فى ناحية غير الناحية التى يحشر الناس اليها جميعا .

واذا كانت الآيات التى عرضنا لها زاجرة : أو من شأنها أن تزجر المرء عن ضلاله ، فعليه فى حساب العقل الواعى أن يختار غير مسلكه .

ومن لطائف الكتاب العزيز أن ينتقل بنا من جانب الانكار ، والتنديد فى هذا المقام : الى جانب الارشاد ، والتبصير .. وهذه سياسة علاجية يستريح اليها المنطق الناضج ، ويدركها الشعور الحصيف . وانظر الى قول الله — سبحانه — عقب ذلك التهديد ، والتقريع : « ولله الأسماء الحسنى ؛ فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون » نعم : من طرق العبادة التى رضيها الله لنا ودعانا اليها ، ويحاسبنا عليها . أن ندعوه بأسمائه ، ونقصد اليه فيما نحتاجه ونطلبه ، متوسلين بذكره والثناء عليه بما هو أهله ؛ وفى الذكر تواضع مفروض علينا ، وتعظيمه حق مطلوب منا ؛ وفى الثناء تقرب ، واستشفاع ، وحظوة .

ثم لم يضيق الله علينا فيما نذكره به ، بل له أسماء كثيرة ، وكلها ميسورة ، وله صفات كذلك تثبت له ما هو حق له وحده .

وطريق العلم بها كتابه وسنة رسوله فهو الله العلى الكبير ، الواحد ؛ الأحد ، المنعم ، الرحمن الرحيم ، السميع العليم .. وهكذا مما نعرف بداهة ومما تتلوه فى كتابه ، وباب ذلك واسع .

وهناك صفات وردت فى سياق آياته ، ولكنها لا تذكر الا مقرونة بما ينعلق بها ، فالله يقول « أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ ؟ » فلا يقال مثلا : الله زارع ، لأنه لم يختص به تعالى بل يقال على أنه خالق الزرع .

ويقول تعالى عن الكفار : « الله يستهزىء بهم » فلا يقال فى دعائه : يا مستهزىء لأن ذلك ليس من الثناء المحض .

ويقول سبحانه : « ومكروا مكرا ، ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون » فلا يقال فى دعائه ولا فى جانبه مطلقا : ياماكر أو الله ماكر .

لذلك نذكره بما هو مشهور لدينا من صفات الكمال .

وأما مالانعرفه فلنتوقف فى ذكره به . وكفانا ما نعـرف من أسمائه وصفاته . وللعلماء تفصيل مشكور فى مواضع الحديث عن أسماء الله تعالى .

وقد وصف الله الأسماء بقوله : « الحسنى فادعوه بها » يشـير الى أسمائه الواردة ، والى ما ليس بمحظور ، ولا شبهة فيه . وكل أسمائه الواردة وصفاته الكريمة : كلها حسن وحق وذكرها عبادة .

وكان الناس قديما يلحدون فى أسمائه ، فينكرون بعضها كلفظ الرحمن مثلا « واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا : وما الرحمن ؟ » يجهلون ذلك أو يتجاهلونه ، وكانوا يدخلون فى أسمائه ما لا يليق به كوصفه بالأب .. أو كانوا يطلقون بعض أسمائه المعروفة ويريدون بها غير الصواب .

والله سبحانه ينهانا عن الوقوع فى مثل هذا فيقول : « وذروا الذين يلحدون فى أسمائه » أى اتركوا هؤلاء المنكرين . أو المختلقين ، أو المتأولين. فكل ذلك يسمى الحادا ، وحشوا غير سائغ فى جانب الله .

وقد يمتد هذا الكلام الى ما يدور فى صفوف الذاكرين من اخـوانا الأتباع لأهل الطرق ، وما أحب أن أثير نقاشا حول هذا . وفى ترجيحه ، أو عدم ترجيحه . ومن الخير كثيرا أن نأخذ بما لا شبهة فيه ، والنبى صلوات الله عليه يقول : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » والله يعصمنا جميعا من الالحاد والانحراف .

من خصائص الرسالة
الأمانة فى العلم

((قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا : الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء))

(الأعراف ١٨٨)

١ — لم يكن رسول الله من غير معجزة تؤيده من عند الله — سبحانه — والمعجزة فى عنوانها ومفهومها مظهر عجيب لقدرة الله على غير ما ألف الناس ، ولا ينهضون الى مطاولتها أو محاكاتها ، ولو تضافرت عليها قواهم جميعا .

ثم هى معجزة دائما ولو انقضى زمنها كالمعجزات السابقة .

فقد ركب سليمان عليه السلام الريح ، وسخرت له الجن والانس والطير جميعا .

وقد نزلت التوراة على موسى عليه السلام ، وكلمه ربه تكليما ، وانشق له البحر فنجا بمن معه ، وغرق فرعون وجنوده .. ونزل الانجيل على عيسى عليه السلام ، وأبرأ الأكمه والأرض ، وأحيا الميت .

ونزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، وانتصر فى قلة من المؤمنين على جمهرة من الكافرين ، وظل كتابه قائما بين الناس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. الى غير ذلك من معجزات كثيرة نهض بها حق الله على باطل أعدائه ، وخفقت راية الاسلام فى بقاع كان الكفر يخيم عليها طوال حياته .

وكان معجزة كانت فى ذاتها كافية لاقناع الناس بصدق صاحبها فى رسالته من ربه ، وفى دعوته الى مادعا اليه .

٢ — ولكن الناس درجوا قديما على التردد فى الاستجابة ، وعلى التشكك فيما يأتيهم به رسول ربهم ، وان كان داحضا للشبهات ، وآخذا مأخذه من الصدق والقوة « وكان الانسان أكثر شىء جدلا » .

ولم يقف لجاج الناس عند التردد ، بل كانوا يقترحون أمورا ، ويعلقون عليها ايمانهم ، ويتعللون فى أمانيهم الباطلة بأن من يكون رسولا من عند الله لا يعظم عليه أن يأتى بكل مطلوب .

وتلك هى المراوغة التى كان يفزع اليها المبطلون حين لا يجدون معذرة مستساغة فى الاعراض عن الحق الأبلج .

ثم ينتهى الأمر بزهوق الباطل على أى صورة من صور الفناء والدمار . كما وعد الله تعالى « ان الباطل كان زهوقا » .

٣ — وكان لجاج قريش مع النبى محمد — صلى الله عليه وسلم — أن يسألوه عن أمور كثيرة من علم الغيب ، كموعد الساعة — القيامة — التى يسمعون بها منه ، أو من غيره .. وكنزول المطر متى يكون ؟ وكنوع الحمل الذى فى بعض الزوجات ، وهكذا .

والنبى — صلى الله عليه وسلم — فى كل موقف من مواقف تحديهم له يبرأ الى الله ، والى الناس من علم الغيب . ومن دعوى القدرة على ما لم يتهيأ له ولم يكن مأذونا فيه ؛ ومن تجاوزه حدود البشرية الى زعم الربوبية ، بل كان يزداد فى براءته كثيرا من زعمهم أن للرسالة قدرة على شىء ويحاول دفعهم بالاقناع الى جانب التوحيد . فمرة يقول عن الساعة « انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو » ومرة يقول بصيغة عامة «انما الغيب لله» أو يقول « انما أنا بشر مثلكم ، يوحى الى أنما الهكم اله واحد » .

ثم يزداد فى التجرد من زعمهم فيقول ما علمه ربه « لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله » يعنى : لا تطلبوا منى مالا أستطيعه لكم : فانى لا أملك لنفسى جلب منفعة ، ولا رفع مضرة ، الا مايشاء الله أن أفعله بمعونته وتيسيره : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير .. وما مسنى السوء » يريد : لو عرفت الغيب وما يضمره القدر الذى استأثر الله به لأكثرت من عمل الخير لنفسى ، وحققت لها ما تصبو اليه من ظفر على العدو

دائما ، ومن أجر أو ثواب أدخـره بالسبق الى أعمـال طيبة ، ولا تعرضت لضرر يصيبنى مما تكرهه النفس ، وتود الافلات منه .

اذ أن العلم بالغيب يكشف لى ما استتر عن سواى ، فأستطيع الاختيار لنفسى ، ولكنكم — يامعشر قريش — تروننى لا أفلت من المكروه الذى تدبرونه ، ولا أظفر بكل ما تتعلق به الرغبة ، فكيف أقدر على كل ماتزعمون ، وتحقيق ما تطلبون ؟؟

٤ — هذه مواقف غير هينة ، يتعرض لها النبى صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل فيها جهالتهم ، ويصابرهم على لجاجهم ، بل كان يحلم عليهم أكثر مما يستحقون ، وطالما ساوره الأسف على حرمانهم من الهـداية ، وجاهد نفسه فى العناية بشأنهم ، والحدب على اجتذابهم نحو الخير .

حتى كان لفرط انهماكه فى شأنهم يتلقى من عند الله مواساة على هذا الجهاد ، وتسـلية عن ذلك الهم المرير « يا أيها الرسـول لا يحـزنك الذين يسارعون فى الكفر ــ فلا تأس على القوم الكافرين ــ ولا تحزن عليهم ، ولاتك فى ضيق مما يمكرون » .

٥ — ثم ما كان هذا العطف من جانبه ، أو التعنت من جانبهم لينحرف به عن قولة الحق .

اذ الأمانة طابع النبـوة ، وخصيصـة الرسالة ، وهى صفة المؤمنين الصادقين ، فما بالك فى تبليغ العلم الى الناس .. ثم ما بالك بمقام الرسالة بين الله وعباده ؟ .

لقد برأه الله من مظنة الاتهام فيما يبلغه ، نقصا أو زيادة : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ــ ولو تقـول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منـه الوتين . فما منـكم من أحد عنـه حاجزين » يعنى لو تزيد لأهلكناه بقوتنا ولا يستطيع أحد منكم أن ينجيه من اهلاكنا له ، ثم شهد له شهادة الكمال فى أمانته العلمية بقوله سبحانه « وما هو على الغيب بضنين » أى ليس متهما بنقص ولا بزيادة فيما يخبركم به عن ربه .

وفوق هذه الاعتبارات ، التى تتمثل فيها براءة محمد فى نبوته مما يشينها ، كان معهودا فى قومه بالصدق منذ طفولته ، وبالأمانة فى كل مايتصل به أكثر مما كانوا يطمعون فى كبارهم ، أو يتوقعون من شبابهم السادر فى تقاليد البيئة .

فلا يكون مستساغا عقلا — بعد أن توثقت علاقته بالله رسولا من عنده ، واشتدت به المسئولية : أمانة وعصمة ــ أن يكتم علما ، أو ينقص ، أو يزيد .

لا يكون مستساغا — عقلا — أن تزل قدمه بعد ثبوتها ، فينحرف عن تمام الأمانة ، أو يتعاظم فيزعم أنه فوق البشرية ، وأن له سلطانا يتيح له أن ينال نفعا ، أو يدفع ضرا « قل : سبحان ربى . هل كنت الا بشرا رسولا » ؟ .

هذا صنع الله فى نبيه ، وتأديبه لرسوله .

وفى ذلك مناعة لمحمد صلى الله عليه وسلم من التورط من الكافرين ، ومناعة له من التعرض لعلم الغيب .

٦ — وهنا تكون قدوتنا بالرسول فى الأمانة العلمية حقا لازما ، وأمرا مفروضا حتميا . اذ لا معنى لأن يكون اماما حقا ، وقدوة مبعوثا . ورسولا داعيا ، ثم نتخلف عن القدوة به ونزعم أننا على الجادة المرسومة لنا فى عمله ، وهديه ، وأننا حفاظ للأمانة التى ورثها العلماء عن الأنبياء ! .

ولكننا منينا بالتجاوز لتواضعه ، وأمانته ، فتعالمنا بغير علم .

وهذه نزعة نبتت فينا وتفشت بيننا ، حتى جرت منا مجرى الدم من اللحم ، وغدت ظاهرة شخصبة فى الكثير منا لجهلنا بخطر الأمانة العلمية .

ففينا من يتوسع فى فتواه بما يشتهى . متأولا فى نصوص الشريعة ، وزاعما أنه فوق الأولين ، وفى مقدمة الآخرين ، وكم من مفتون بنفسه أضله الله على علم .

وفينا من يتقبض فى عمله بدين الله ، ويحجب اشعاع القرآن عن معترك الحياة ، ويخيل للناس أن الله يتعبدهم بالانكماش فى دنياهم ،

والحرمان مما أحل لهم ، وأن الحياة لا تفسح مجالا لتوجيهات العلم ، وأن كل محاولة للاستمداد من هدى الدين الصحيح جـرأة ذات أثر سيء فى المجتمع ، وقد دلت هذه النزعة على سوء فهم لرحابة الاسلام ، ومجاراته للحضارة السليمة .

٧ — هذه ظاهـرة وبيلة تنال من كـرامة الدين كما تنال منه ظاهرة التحلل ، والخروج عن نطاقه ، فاحداها تضييق ، واختناق وصد للناس عن توسم الخير من جانب التشريع السماوى .

والثانية افراط فى التسامح ، واجتياز للحدود ، وظلم للدين وللنفس ، وللناس جميعا . « ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

والأمانة فى العلم أمانة على حق من حقوق الله وحقوق عباده .

والأمانات كلها ودائع ، ترد الى أصحابها معافاة من المساس بها ، كما أمر الله فى قوله « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » .

فالعلم كله ينتفع به فى وجوهه : دينا أو دنيا .. وبهذا تكون الأمانة مؤداة منا الى الله ، والى الناس على وجه الكمال .. والا كانت خيـانة لله الذى وهب العلم وتركه أمانة عندنا .. وللرسول الذى بلغ وعلم ، وحض على التزود منه ، والعمل به فى وجوهه عامة . وللناس الذين جعل الله تبليغ العلم اليهم حقا لازما لهم على من استودعه الله علما .

وعلم الدين ان لم تكفله أمانة التبليغ كان تضليلا ، ووسيلة شيطانية للاغراء وفتنة الناس عن الحق ، والايقـاع بهم فى غير مايراد لهم من خير وفلاح .

وليس شرا عند الله من تضليل على حساب العلم ، فان ذلك تقويض لمعالم الرسالات . والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أخوف ما أخاف على أمتى : العلماء المضلون » .

وعلم الدنيا كذلك فى أمانته ، وخطره ، وشر الانحراف به عن سبيله فى نفع الناس ، فان العلم كله فيض من جانب الله ، وقبس من نوره لنفـع عباده ، وهـديهم فى دنياهم ، وهو فى الجمـلة نعمة يجب أن نشـكرها باستخدامها فى نواحيها الخيرة .

والله — تعالى — يحاسب كل ذى نعمة على نعمته ، ولن يترك الناس فى سبسب من الفوضى « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر !! » .

وقد تعلق الناس قديما بأهل العلم الدينى على ألوان شتى .

فمنهم من اعتدل فى تعلقه ، وأحسن فى تقديره ، فتهيأ من ذلك للعالم أن يفيد ، وللمتعلم أن يستفيد ، وهذا فى اطار من أدب العلم وأمانته والتماس هديه فى غير تزمت ، ولا مجازفة .

وهناك اسراف من الجانبين ـ ففى جانب أهل العلم : زعم بعضهم أنهم على خصوصيات من الله ورسوله ، وأن الله بوأهم منزلة الوساطة عنده فى أمور الناس ، ولهم نصيب من الجاه فى سلطانه — سبحانه —والاسراف من جانب الأتباع : أنهم تأثروا بهذه الدعايات ، واستسلموا عن طيب خاطر لأصحابها ، فالتفوا حول أفراد كثيرين ، وتكونت منهم أحزاب دينية ، وزعم كل حزب أن متبوعه ذو حظ وصاحب مقام كريم عند الله دون غيره من المتبوعين : وما أكثرهم ! حتى بلغ من أولئك المتحزبين لشيوخهم أن ينسبوا اليهم كل خير يصادفهم ، ويلتمسوا رضاهم فى كل أوقاتهم ، ليظفروا بما وراء ذلك من وساطة ، وزلفى الى الله ، وحصول على الآمال ، وان تكن هناك نفوس طيبة حقا ، ولبعضهم كرامات ، ودعوات صالحة مرضية : فذلك مع تقديرنا له لايبيح أن نفرض لغير الله شأنا فى ملكه ، ولا تدخلا فى تدبيره. ولا يبيح أن نذكر شيخنا ـ فلانا ـ عند كل مناسبة ، وننسى ديننا فى أى حال .

العمل الصالح يرفع صاحبه ، ودعوات الأبرار نافعة بمشيئة الله ، ولكن هذا لا يفيد أبدا أن لأحد عند الله شأنا ، أو تدخلا فى قضائه وقدره .. فليكن دعاؤنا لله ، وتقديسنا لله ، ولتكن قدوتنا بالصالحين فى أعمالهم الطيبة ، دون أن نجعل لهم مقاما من مقامات الألوهية ، فهم بحاجة الى دعوات ، وصدقات تنفعهم اذا تقبلها الله منا لهم .

وليس لعبد من عباده خطورة ترفعه أكثر من أنه مقبول بعمله ، الا ماثبت لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وللانبياء من قبل : صلوات الله عليهم جميعا ، ورضى الله عن صالحى المؤمنين ، وهدانا بهديه .

الشخصية الأدبية ومقوّماتها

ا) « خذ العفو ، وأمر بالعروف وأعرض عن الجاهلين »
(الأعراف ١٩٩)
ب) « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع » .
(الأعراف ٢٠٠)

من خصائص الانسان وصفه بالشخصية : ان كان ذا شخصية .

وقد اتسع مجال القول فى تحديدها ، وبيان عناصرها .. فنحن نجد أن مفهوم الشخصية يتنوع ، وأن لكل نوع منها عناصر توائمه فى بابه ، كشخصيات الأبطال فى الحروب ، والسياسة ، وعباقرة العلوم ، ونحو هذا.

وما قصدت الاستيعاب ، ولا الموازنة فى مقامنا هذا ، وحسبنا أننا حينما نشهد لامرىء بشخصيته لا يشق علينا أن نذكر عناصرها البادية فيه ، والتى حملتنا على اعتباره ذا شخصية بين الرجال ، أو النساء ، بل بين الأحداث من الولدان .

وانما قصدت الحديث عن الشخصية المرموقة فى القرآن . فوجدتنى أمام فيض واسع من النعوت الكريمة التى يشهد الله لأصحابها ، ويعتبرهم فى مقدمة الجماعات الانسانية .

وهم بمقتضى هذا أصحاب شخصيات ولا جرم ، وكذلك الناهجون منهجهم فى أى جانب من جوانب العظمة يكونون أشبه بهم الى الحد المستطاع فى شأنهم المفروض .

وغير خاف أن الشخصية فى مثلها الأعلى من كل وجه : انما تتوافر عناصرها فى انسان تعهده الله بالتربية ، وفضله على جميع خلقه ، وختم به

رسالاته ، وشهد له بما لم يشهد به لغيره من أنه « على خلق عظيم » وأن فيه لنا أسوة حسنة ، اذ هو الأسوة الحسنة بالذات . فاذا شئنا التماس العناصر الأدبية فى شخصية هذا الانسان الكامل ، وشئنا الاقتباس منها للأسوة به عزت علينا الاحاطة بها الا فى جهد غير يسير — صلى الله عليه وسلم —.

ولدينا الآن فى هذا الحديث آيتان ، فيهما ثلاثة أصول كافية لمن شاء الأخذ بنصيب من كمال الشخصية بين خلطائه وعارفيه .

١ — خذ العفو — بهذا يأمر الله رسوله ومن تبعه على دينه..والعفو وهو الترفق بالناس فيما يطلب اليهم ، وفيما يبدر عن طبائعهم قولا ومعاملة ، والترفق بهم فى التوجيه الى الطاعات، والمواساة ، بما تسمح به أنفسهم من المال بعد حوائجهم ، ونحو هذا من التيسير على الناس دون تعسير .

والعفو بهذا التصوير الشامل أصل فى مكارم الأخلاق ، وفى الأخذ به دعم للشخصية ..

وهو من وراء ذلك أساس عتيد فى بناء المجتمع ، وغرس للمحبة المتبادلة ، وبهذا التعميم أمرنا الرسول فى سنته كما علمنا فى مسلكه وسياسته فقال : (يسروا ، ولا تعسروا) وقال (أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم) .

ولكن العفو على عمومه المرغوب فيه لا يكون شاملا للمسىء فى مضيعة للحقوق ، ونقضا لنظام المجتمع ، ونبذا لمبادىء الدين ، وليس الأمر كذلك فليس العفو مصلحة مع هؤلاء .

٢ — « وأمر بالمعروف » والعرف يرادف المعروف ، وهو كل ما يكفل خيرا للناس مما شرع الله فى دينه ، أو تعارف عليه الناس فى مجرى حياتهم المتجددة ، أو اهتدت اليه العقول المستنيرة مما يساير المصالح المنشودة ، ولا يناقض مبادىء الدين ، ولا يكون ناجما عن الأهواء والتحلل .. والمعروف بهذا التفسير الفسيح يقابله المنكر : مما نهى الله عنه : أن يكون مجلبة للضرر بالنفس، أو بالغير فى شخص، أو فى مال، أو بنظام اجتماعى .

ومبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يعتبر خصيصة من خصائص الدين الحق على ألسنة الرسل جميعا .

وقد نبه القرآن أمة محمد بالذات على أن هذا المبــدأ شعار يتصل بها أكثر من سواها .

ثم زكاها القرآن بهذا المبدأ ، حتى كأنه شأن خاص بها ، وذلك باعتبار ما تهيأ لها من دين كامل ، وتهذيب واسع ، حتى تيسر لها أن تتبادل النصح، وتتسابق الى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ولم يتهيأ لسواها أن يبلغ هذا المدرك « كنتم خير أمة أخــرجت النــاس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر » .

وليس ذلك مدحا فقط ، بل هو حض واغراء على التزام هذا المبدأ ، وفيه يرتفع عما كان عليه بنو اسرائيل « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

ومن مقتضيات الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر أن تثـور أحقاد الفئات الخبيثـة ، وأن تطـول ألسنة السفهاء ، حتى تنــال من شخصيات النصحاء الخيرين .

فيكون الموقف بحاجة الى صلابة فى الحق ، واستمرار على حســن التوجيه ، واعراض عن سفه السافهين ، وذلك هو الأصل الثالث فى الآية .

٣ — « وأعرض عن الجاهلين » .

نعم ! ! من مقتضيات النجاح فى الخير اهمال الحمقى ، وعدم النزول الى مسايرتهم ، والاعتزاز بالذات ، وفى هذا المبدأ أكثر من سواه تتمثل عظمة الانسان على من دونه شخصية .

وفى هذا المبدأ ترجمة لما تنطـوى عليه النفس من كــرامة ، واقتناع بالخير ، وبذله فى ارتياح اليه .

فهيهات أن تنجح دعوة ليست نابعة من القلب ، وليست نفحا لما فيه من ايمان مستقر بالمثل العليا .

هذه أصول ثلاثة ذات أثر كبير فى تكــوين الشخصية فى الأفــراد ، وربط الوشائج فى صفوف المجتمع .

غير أنها كما تحدثنا عنها : أصول تعليمية، تحتاج الى حمل النفس عليها لتعتادها ، حتى تكون خلقا كسبيا ، وينعكس ضوءه على مسلك الانسان فى حياته الخاصة ، والعامة •

لذلك كانت بحاجة الى تعهـدها من نزغات الشيطان ، والتحصن من هجماته الثائرة فى خفاء •

٤ — وقد رسم الله كيف نصـده بسـلاح لا يفل ، فقال سبحـانه : « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، انه سميع عليم » •

فالاستعاذة بالله سياج لتلك الأصول الأدبية أن ينتزعها الشيطان ممن يركن اليها ، ويأخذ بها •

والركون الى الله كفيل — ولا شك — بحفظ المقومـات الأدبية من الذبذبة والوهن ، فان الشيطان دائب على غواية الانسان كما تحدى ربه بذلك « لأغوينهم أجمعين » •

ولكن الله — تعالى — ألزم نفسه أن يرعى المحتمين فى جنابه ، ويدرأ عنهم الشيطان ومكايده « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان : الا من اتبعك من الغاوين » — ٤٢ — حجر .

وقد يئس الشيطان نفسه من فئة المستعيـذين بالله منه ، فقال بعـد تبجحه ، وتحديه ، — الا عبادك منهم المخلصين — بفتح اللام — يعنى لن أتغلب على من استعاذوا بك دائما ، واستخلصتهم من شرورى ، وهديتهم بهديك يا الله ! !

وقد كان الركـون الى الله والاستعاذة به سنة أسلافنا الصالحين ، ولا يزال شأنهم كذلك : وقليل ما هم فى الجماعات اليوم .

والله — سبحانه — يردنا الى معـالم ديننا ، ويوجهنـا الى القـدوة بصالحينا ، فيشيد بهم لنأخذ مأخذهم ، ونتأسى بهديهم ، فنفوز فـوزهم أينما كنا •

« ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكـروا ، فاذا هم مبصرون » . كلما ألم الشيطان بخاطرهم تذكروا عداوته للانسان ، وتهيبوا جانب ربهم فتزول عنهم الوساوس ، وتنجـلى عن بصائرهم غشاوة الغفلة فيبصرون ما كان يشغلهم عنـه الشيطان من مهاوى الزلل وقبح العاقبـة ، فيثوبون الى رشدهم ، ويحتفظون بنجوتهم من غضب الله ، ومن سقطاتهم فى البيئة المخالطة وغيرها .

هذه كلمات موجزة فى تكوين الشخصية ، وان لم تكن هذه الأصول الثلاثة كل عناصرها فهى من أقوم العناصر المجدية فى اكتسابها ، ومن أشد الروابط بين صفوف المجتمع فى دنيانا .

ولعلها اذا اكتملت فى انسان هانت عليه البقية منها ، فالجانب الخلقى آكد المبادىء الانسانية ، وأبرز مشخصات الفرد والجماعة ، وأضمن وسيلة الى النجاة هنا وهناك .

وان لم يكـن خلق فهى انسانية واهنة ، وكـرامة مثلوبة ، أو هى شخصية من باب الأضداد وان شئت فقل : هى بهيمية ، أو أضل سبيلا .

فاللهم هيىء لنا خلقا نشيد عليه كرامتنا ، ونقيم به أركان مجتمعنا ، ونشرف به أمتنا ، ونكسب به رضوانك .

المطامع مثار الفتنة بين النـــاس

١ ـ « قل الأنفال لله والرسول
٢ ـ « فاتقوا الله
٣ ـ « وأصلحوا ذات بينكم
٤ ـ « وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » .
(الأنفال ١ »

تكاد لا تجد ثغرة من خـلاف ، ولا تصـدعا بين قوم : الا وجدت المطامع ، والتزاحم على اشباع الرغبـة سببا أول فى المشادة ، والالتواء ، والتدابر ، والقطيعة .. وهؤلاء : هم أصحاب الرسول ـ صلوات الله عليه

وسلامه ــ وطليعة المجاهدين معه : ممن آثروا التضحية بالروح فى سبيل العقيدة والوطن ، لم يتجردوا من التعلق بالمـال ، ولم يتحرروا أول أمرهم من النزوع الى النفعية ، والجنـوح الى حطام الدنيا : الا بعد أن صقلهم الاسلام ، وتعاهدهم الرسـول بالتهذيب حتى تبدلت فيهم النزعة ، وأصبح لبعضهم عزوف عن متع الحياة المشروعة ، وخيل اليهم أن التفرغ من الدنيا لأجل العبادة هو الدين كله •

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم ــ يعلمهم أن الاسلام دين ودنيا ، وأن للطبيعة البشرية حظها من الزاد ، والتبسط ، والنوم والراحة ، كما أن للروح نصيبها الحتمى من التـزود بالعلم ، والتدين ، وتوثيق الصلة بالله والتعلق بمتاع الآخرة •

وبين الدين والدنيا وسط منشود والوسط هو طابع الاسلام ، ومنهجه الصحيح وانظر ــ معى ــ فى موقف المسلمين الأولين من تطلعهم الى عرض الدنيا : فأهل بدر وهم أهل السبق الى ساحات الجهاد ، وأصحاب الحظ الأوفر من رضوان الله : حينما فرغـوا من جهاد عدوهم ، وأطاحوا بكثرة من جيش الكافرين تطلعوا الى الغنيمة التى وقعت فى أيديهم من أمـوال العدو المهزوم •

وبدأ الشيوخ والشبان ممن كانوا فى مواجهة الكافرين بالملحمة ، أو كانوا فى الحراسة ، يتفاضلون فى استحقاق الغنيمة ، ويختلفون على قسمتها : مساواة ، أو تمييزا ! !

ولولا دين يحكمهم ، واطمئنان الى هدى الرسول فيهم لكان للأنانية ، وغلبة المطامع شأنهما فى تفرق المسلمين ، وتمـزيق وحدتهم الجديدة التى يتناولها الرسول بالتكوين والتقوية •

ولكن رجعتهم الى الرسول فى بيان تقسيم الغنيمـة جنبتهم تصدع وحدتهم ، من فتنة المال : وهم جماعة حديثو عهد بالاسلام ، لم تتأصل فيهم زهادة المتدين المتعفف المحب لغيره ما يحب لنفسه ، تداركهم الله ، فأوحى الى رسوله « يسألونك عن الأنفال » « قل : الأنفال لله والرسول » •

يعنى تقسيم الأنفال ــ وهى الغنائم ــ مـوكول الى حكم الله الذى يبلغه الرسول الى الناس ، وليس منوطا برأيهم ، ولا متروكا لتقـديراتهم حتى لا يختلفوا فى استحقاق ، ولا فى مقدار عطاء .

عندئذ خشعت أصوات الجدل ، واطمأنت نفـوس الجميع ، مع أن هذا أول موقف يغنم فيه المسلمون مالا فى حرب عدوهم ، ومع أن نزعتهم الى المال كانت نزعة مشبوبة متحـكمة ، ولكنها كلمة الله نزلت بين قـوم عاهدوا الله ، وأوفوا بعهده على السمع والطاعة .

غير أن القرآن فى هذا المقام أرجأ تفصيل الحكم فى استحقاق الغنيمة ، وبيان سهامها ، وسارع بالدخـول فى أمور جوهـرية ذات شأن فى حياة الجماعة ــ تلك الأمور الثلاثة :

(١) اتقوا الله .

(٢) وأصلحوا ذات بينكم .

(٣) وأطيعوا الله ورسوله .

(١) فتقوى الله بتجنب ما يغضبه ، وعمـل ما يرضيه ، وحينما يعمر القلب بالتقوى يكون تعلقه بأعراض الحياة معتدلا ، ولا تجرفه فتنة المال ، ولا شىء سواه من زخرف الدنيا ، ويكون دائما على نور من ربه ، فلا يستهويه شيطان ، ولا يدافع الناس عن خير مشترك .

(٢) والأمر الثانى ــ اصلاح ذات البين ــ اصلاح العلاقة التى تربط بين الناس ، وصيانتها من شوائب الخلف ، والتلطف مع الغير لتظل الأنفس قريبة الى بعضها ، فلا تتسع بينهم فجوة الغضب ، ولا يزداد الأمر سـوءا بالتقاطع ، فان دين الله يدعو الناس الى الجماعة ، ويعلمهم الرسول أن من شذ عن الجماعة شذ الى النار .

وكم علمتنا الحياة أن الشقاق لا يعود بخير أبدا ، ان لم تجلب الشر حتما .

فتوجيه القرآن الى اصلاح ما بيننا ، وتوثيق الاخاء فينا توجيه الى ما تقتضيه الحياة التى ننشدها لأنفسنا ان كنا بأنفسنا رحماء .

(٣) الأمر الثالث — اطاعة الله ورسوله فى ناحية الأمــوال والروابط وسواهما من كل ما نعرف عن الدين ، والاستئناس بهــدى الدين ينير لنا سبيل السعى فى دنيانا، فنسير فى حياتنا آمنين الانحراف ، والعثرات، التى يتردى فيها من يتخبط فى ظلمات الضلال وراء شهواته وشيطانه •

هذه الدعائم الثلاث — التقوى — والاصلاح — وملازمةالطاعة : هى المبادىء الجامعة لعناصر الدعوة الاســلامية كلها ، وهى المســالك التى تتمثل فيها الانسانية بالنسبة لموقف العبد من ربه ، وحسن سيره فى مناكب الحياة مع الناس •

وقديما درج عليها أسلافنا ، ودرج عليها صالحو المؤمنين ، فــكانوا خير مثل يحتذى ، وكانت محامدهم أنشودة التاريخ •

وعجيب : أن تكون هذه المبادىء هينة فى ذاتها ، وأن تكون من وحى الواقع الذى نلمسه ، ثم نرى أنفسنا فى صدود عنها كأنها ظنون مشكوكة ، أو فكرة مرجوحة ، وهى لا تكون واهنة كذلك الا عنــد من لا يفطن الى ما يلامسه ، وعند من يستقبل دعوة الدين بغير ثقة ، ولا اطمئنان •

وكان من تنبيه القرآن على خطر الأمر فى ذلك التوجيه أن يختم الله نصحه هذا بقوله : « ان كنتم مؤمنين » •

يعنى : هذا نصح واجب الاتباع ، ان كان ايمانكم صادقا ، فان أثر الايمان الحق هو السمع ، والطاعة .. والا كان ايمانا واهنا غير وثيق •

ثم انظر : فهذا أول موقف من المواقف بين المسلمين، يغريهم حب المال فيه بالتسابق فى الاستحقاق، ويكون خطرا على مجتمعهم الى أمد بعيد، حتى أن القرآن ينزل بتفصيل البيان فى شأن الغنيمة التى كانت سببا ، ويبادر الى تثقيفهم بما هو ألزم لهم ، وأضمن لاستقامة الأمر فيهم .. وهو الخيط الذى ينتظم فيه عقدهم •

ثم يعود القــرآن فى مقام آخــر ويبين لهم تفصيــلا تقسيم الغنائم « واعلموا أنما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسول » الآية .

وحينما خوطب النبى وأصحابه فى هذا الشأن كان ملحوظا بالضرورة أنه خطاب لجميع المسلمين على اختلاف أزمنتهم ، وجنسياتهم •

ولئن كان ايمان الصحابة يومـذاك حقا ــ ولا ريب ــ فمقام التعليم يتناول حاضرى المسلمين ، وغائبيهم ، واقتضى ذلك تذكير الناس بالحث ، والاستنهاض بقوله سبحانه : « ان كنتم مؤمنين » •

وليس فى هذا الشرط تشكيك فيهم ، ولا ريبـة فى ايمانهم ، وانمـا القصد أن الايمان الحق يستلزم الرجوع الى حـكم الله ، والأخذ بدينه ، والحفاظ على سلامة الجماعة من التفـرق ، ولن يستطيع أحد أن يرتاب فى حقيقة تعاليم القرآن ،ولكنها مطامع الدنيا تغلبهم ، وتفرق بين جماعتهم •

وقديما كان الطمع مشأمة على أبيهم آدم وزوجه ، حينما بوأهما الله الجنة يعيشان فى نعيمها ، ويهنئـان فى ظلالها ، آمنين من مـذلة الحاجة ، وشقوة الحياة الدنيا ، واثقين من كفالة الله لهما ألا يمسهما سوء ما داما على عهد الله : « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة •• ان لك ألا تجوع فيها ، ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ، ولا تضحى .. وليس بعد ذلك من عهـد أكيد يعطيه الله على نفسه ــ سبحانه ــ لآدم وزوجه ألا ينقصهما تعالى من طعام وشراب ، وكساء وراحة من المجهود ، والتعـرض للشمس فى سبيل الكد كما هو شأن الكادحين فى العيش « .. وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » •

لم يكلف الله آدم ولا زوجه بشىء غيرَ تحذير من الأكلَ من شجـرة خاصة لا يريد الله أن يأكلا منها ، ولكن نزعة الطمع ، والرغبة فى المزيد الى غير حد لم تدع للقناعة أثرا عند آدم ، ومـا كفاه أن تتسع له ولزوجه جنة فسيحة حافلة بخير لا يحصيه غير خالقه القادر ، الكريم البديع الصنع •

ومن هذه الثغرة النفسية ــ ثغرة الطمع ــ استطاع ابليس أن يفتن آدم وزوجه ، ونصحهما أن يأكلا من هذه الشجرة ليضمنا الخلود فى هـذا النعيم الفضفاض وأقسم ابليس كاذبا على صدقه فى نصحه ، فخدعهما حتى نسيا عهد الله عليهما ألا يأكلا من هذه الشجرة ، ونسى آدم كذلك أن هذا

الشيطان عدوهما الذى حذرهما الله من كيده ، وأنه هو الشيطان الذى تمرد على أمر الله بتعظيم آدم ، وطرده الله من رحمتـــه ، وسجل عليه لعنته الى يوم القيامة بسبب احتقاره لآدم •

نسى آدم كل هذا ، واندفع طامعـــا الى الأكل من الشجرة فكانت حرمانا له من كل ما يغمـــره من خير ومتاع ، وراحـــة وأمان ، ونزلا مع الشيطان الى الأرض يلاقيان فيها ما قدر عليهما ، ولهما فى الأرض استقرار بين عداوات ، وبين شقاء ، أو متاع الى حين •

ذلك هو الطمع الذى يساورنا دائما ، والذى يجعل الــكثير قليلا فى أعيننا ، وينسينا ما وراءه من شغب ، ومن أكدار ، وخصومات ، ونغص فى هذه الدنيا •

ومن هذا الحديث يتضح لنا الوجه فى عناية الله بتركيز الروح الدينى فى نفوس المسلمين ، ليتخذوا من دينهم مقاومة للأنانية بينهم ، وليحاولوا أن يجتمعوا دائما على السمع والطاعة فى ظل النظام الاسلامى الكفيل ببقائهم كالبنيان المرصوص •

وبهذا البيان من جانب الله يعرف المســلمون لو تجمعوا أن يكونوا أمة مريرة الطعم فى أفواه خصومها ، وأن لا يكونوا طعاما مستساغا تتداعى عليه الأكلة من وحوش الانسانية .

أو لا يظل المسلمون مخادعين لأنفســهم بحسن الظن فيمن علمنا انه أنهم لا يريدون بنا الا خبالا ، وذلة ، وضياعا « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ـــ أصدقاء من أعدائكم • لا يألونكم خبالا ـــ لا يترددون فى الاضرار بكم » •

والهداية من الله •

كراهية الحق
نزعة جاهلية
ونقيصة خلقية

ا) ((يجادلونك فى الحق بعد ما تبين
ب) ((كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون)) .
(الأنفال ٦)

١ — بين الناس تفاوت فى الأفهام — ولا شك — وصدى هذا التفاوت يبدو فيما يثور من جدل بينهم حول مفهوم على أو فى تقدير أمر تشوبه الاحتمالات ، ويحتاج الى تمحيص من الشبهات .

لذلك : لم يكن غريبا فى حكم العقل قديما ولا حديثا أن نعتبر الجدل فى الرأى ظاهرة اجتماعية لا مندوحة عنها فى معترك الحياة : لأنها الوسيلة الى التخلص من البداوة المحدودة الأفق ، والى تجلية الشبهات عن صواب ينشده العقل ، وتستريح اليه النفس الطامحة الى المعرفة فى وضعها الحق .

وفوق ذلك يعتبر النقاش والتمحيص استجابة للقرآن فى كثير من توجيهاته ، ومسايرة للدعوة الاسلامية فى منهجها التربوى .

فان الاسلام بصفة عامة يقتضينا النشاط العقلى فى غير تراخ ، ويثيرنا الى التفكير بتقليب النظر فى نصوصه ، ومفاهيمه ، وفى الكائنات المادية لنصل دائما الى الحق عن الطريق المنطقى الحق .

ويأبى علينا التقليد الوراثى ، والاستسلام للتلقى المطلق ، حتى لا نتعثر فى ضلالات الرأى الخاطىء ، أو نتورط فى المتابعة الذليلة .

٢ — وان تكن للقرآن فى حضه على النظر ؛ واذنه فى الحجاج غاية ثقافية أصيلة ، فانه لا يتركنا نسترسل فى الجدل ، ونتمادى فى طريقه : لئلا

يأخذنا حب الغلب ، حتى تتجاوز الحق ، زاعمين أنا نبحث عن الحق ، فنكون كما قال الشاعر المتنبى :

اذا استشفيت من داء بـداء فأقتـــل ما أعلك ماشفاكا

والوقوف في الجدل عند الحق ، والكف عن تجاوزه الى المراء المحظور هو ما وضح قصده فى آية الموضوع .

٣ — فهى آية ناقدة لقوم من الناس كانوا يجادلون الرســول جدلا ملحا فى شأن بين ، وضح الحق فيه ، حتى لم يعد للشك غبار عليه .

بل كانوا يعلمونه حقا ، ولا يزعمونه خافيـا عليهم ، ولكنهم يتمحلون المعذرة للافلات من لزومه ، والمفروض أن الحق بعد ظهوره يكون الخضوع له لزاما ، والأخذ به دينا ، والانتصار له مبدأ ، وخلقا محمودا ..

وان لم يكن للحق هذا المقام عندنا فأى فرق بيننا وبين المبطلين ؟ ؟ .

أولئك قوم بلغ بهم البطء فى قبول الحق ان صاروا فى اعتبار القرآن كمن يساق الى الموت كرها ، وهو يراه شاخصا أمام عينيه ، أو يرى وسائله الحتمية .

وانظر الى هذا التشبيه وما فيه من قوة التصـــوير لنفسية الكارهين الحق ! ! أرأيت مشهدا يكون أبغض الى الانسان من مظهر الموت ينتظره وهو مسوق اليه فى غير ترفق به ؟

نسمع أن المحكوم باعدامه يساق من غرفة سجنه الى غرفة الموت فى هوادة ، حتى انهم يحجبون بصره ، عما يتعرض له قبل التنفيذ ، ويقصون عليه ما ارتكبه من جريمة كانت سببا فى الاقتصاص منه ، ثم يسألونه عما تشتهى نفسه .. وكل ذلك تلطف به من بشاعة الموقف ، مع تسببه فى هذا بما اقترف ، فهذا هو وجه الشبه فيمن تتحدث عنهم الآية ، وعن كراهيتهم للحق واحجامهم عن المبادرة اليه .

وبقدر ما يكون تمنعهم عن الحق تكون كراهية الله لهم .. فان الله حق ، ومتصف بالحق ، وما خلق السموات والأرض وما بينهما الا بالحق ، وما شرع لعباده الا حقا وما كلفهم ، ولا وعدهم وعدا الا حقا .

فتجافيهم للحق فى شأن ما : من شئونهم يكون محادة لله ، ونفرةعماوصف به نفسه ، وارتضاه فى هيمنته على خلقه وتدبيره لملكه .

٤ — فمن هم يا ترى أولئك القوم الذين أشخصتهم الآية فى هذا الموقف العنيف المزعج .

الأقرب الى الذهن أنهم الكافرون بالأنبياء ، وهم يتمثلون فى الكفار بمحمد عليه الصلاة والسلام — من قريش وسواهم .

فهم على جلالتهم ذوو جدل كثير ، وما كان جدلهم عن رغبة فى معرفة جديدة . ولا وسيلة الى اقتناع بحق ، ولا اظهارا لعلم عنـدهم يخرجونه للناس ! !

وانما كان مراءا فاسدا ، ودفاعا عن باطل غمرهم من كل جانب ، وتشبثا بتقليد أعمى لقوم سبقوهم الى التورط فى ضلالات ، وظلمات بعضها فوق بعض .

وربما كان لأوائلهم فى الجاهلية عذر يلتمس لهم ، فهم فى فترة من الرسل من عهد اسماعيل عليه السلام .

وغيرهم من أهل الكتاب كان مأخوذا بشىء من العصبية لدياناتهم السابقة .

ولكن ما عذر العرب يومذاك وقد جاءهم رسول منهم ، يتلو عليهم آيات الله بلسانهم ، ويترفق فى دعوتهم ، ويسلك بهم كل سبيل راشدة .

فليس كثيرا عليهم ازاء هذا أن ترميهم الآية بما يجرحهم ، وأن تكشف ما هم عليه من افك ، ومراء .

غير أن سياق الآية التى معنا ليس حديثا عن الكافرين .

وانما هى فى معرض الكلام عن المؤمنين بل هم فى طليعة المجاهدين مع الرسول فى غزوة بدر الكبرى .

أراد الرسول وصحبه أن يعترضوا قافلة لقريش عائدة من الشام بتجارتها الى المدينة ، وكان مقصدهم الأول أن يظفروا بالتجارة : لا أن يشتبكوا فى حرب .

وقد وعد الله رسوله أن يتيح له احدى الفرصتين من غير تعيين التجارة : أو هزيمة العدو ، ولكن عير التجارة أفلتت مع حراسها الأربعين . ثم تجمعت قريش لاستقبال المسلمين فى حرب تتشفى بها من الجمع الاسلامى الصغير .

وصار مفهوما أن وعد الله أصبح محصورا فى مجاهدة العدو : على غير ما كانوا يقدرون .

وعندئذ اضطرب الأمر فيهم ، وخاف كثير منهم الاقدام على معركة لم يستعدوا لها اليوم ، فليرجئوها الى موعد بعد .

ولبث الرأى فيهم حول هذا بين مد وجزر .. حتى كانت الرغبة فى التأجيل أشبه بالاعراض عن الجهاد ، وكانوا فى تشبثهم بهذا أشبه بمن يساق الى الموت وهو باد له ، وشاخص أمام عينيه .

وما كان لهم أن يتخوفوا ، ويرغبوا فى التأجيل ، والنصر مكفول لهم مع القلة فيهم بمقتضى وعد الله سبحانه .

وكيف يكون الحق فى وعد الله واضحا لقوم يؤمنون ، ويكون محصورا فى منازلة العدو ثم يجادلون فى ذلك ؟ ؟ .

كيف يتهيبون الحرب وخاصة بعد أن تشبعوا بالدين الحق . وغدوا لا يضنون بأرواحهم فى سبيله ، وقد كانوا من قبل يتهافتون على الحرب فى سبيل الباطل ، والعصبية الجامحة ؟ ؟ .

لا شك أن الاحجام بعد أن خرجوا من المدينة يعتبر نكوصا عن التضحية .. وترددا فى جهاد عدو بغى عليهم ، وطردهم من مكة ، ويعتبر تخاذلا عن البيعة التى عقدوها مع الرسول — غير مرة — ويطمع فيهم ذلك العدو من جديد ، بعد أن يئس منهم منذ هجروا مكة الى المدينة وأصبحت لهم معقلا حصينا ، وردءا مأمونا .

تغلب فيهم الرأى الحق ، وانقطع الجدل ، ونشبت الحرب ، وصدق الله وعده ، فنصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين .

٥ — هذه غزوة بدر التى كانت على غير أهبة كافية ، ولكن الله أراد أن تكون الركيزة الأولى للراية الاسلامية ، وأن يكون صداها مدويا فى آفاق الجزيرة العربية ، وأن يمتد ذلك الصدى الى الأمم والأقطار الأخرى فيروع قلوب الصناديد من أبطال العرب ، ويهز عروش الحكم فى دول عريقة ، ويتوجسون الخوف من ناحية هذا الدين الجديد : لم يكن تردد المسلمين نكوصا عن الدين ، ولا كان جدلهم من قبيل المراء فى مناصرة نبيهم الذى دعاهم الى حق ، وآمنوا به فى صدق ، وتابعوه فى غير مداهنة ، وأشربوا حب دينه فى غير هوادة ، وانما هو الرأى الصريح الذى تعودوه ، رجح لديهم أو لدى كثير منهم أن يرجئوا الحرب حتى يستعدوا لها ، ولا يعجلوا بها اليوم ، لئلا يظفر العدو بهم فيها ، خوفا على جماعتهم القليلة ، وحفاظا على دعوتهم الناشئة ، وابقاء على نهضتهم الفتية .

ولكن القرآن يناشد المسلمين يومذاك أن لا يستجيبوا لخلجات أنفسهم ، وألا يحسبوا لهذه الاعتبارات حسابا ، وهم على يقين من وعد الله ، وأن خير البر عاجله . وهو يعلمهم أن حكمة الله فى هذه الحرب أنها معركة البداية فى الجهاد المسلح ، وأنها وسيلة أولى فى قمع الكثرة الباغية اليوم ، ووسيلة تمهيدية لاستئصال شأفتهم من مكة بعد .. « وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ! » أى تريدون عروض التجارة من القافلة ، وليس فى احرازها كبير نفع لكم .

« ويريد الله أن يحق الحق بكلماته » يريد الله لكم أن يحقق وعده فى خصوص الحرب ليهزمهم اليوم ، ويذلهم غدا باخراجهم من مكة ، وبقطع دابرهم منها ، وهم جبابرتها ، وسادتها وهذا كله لغاية عظمى وهى تركيز الاسلام فى الأرض ، وجعله دينا خالدا وان كان آخر الأديان « ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون » ولقد حقت كلمات الله وعمرت الدنيا بكتابه ، ودينه ، وهو الذى نزل الذكر ، وهو الذى يحفظه الى يوم لقائه .

٦ — وأنت ترى بعد ذلك الاجمال ، وفى سياق ما سلف : أن الله عتب على المسلمين جدالهم فى الحق الواضح مع رسوله واعتبرهم كمن يساق الى الموت وهو ناظره .

ولكنه عتاب فى أسلوب تهذيبى ، وتوجيهى ، فهو يجتث من أنفسهم حب المراء ، ويحملهم على التخلق باحترام الحق مهما يكن فى سبيله من تضحيات .

ولم يكن عتابه سبحانه فى أسلوب التهديد بالعذاب ، واعلان سخطه ، كما ترى مثل ذلك فى حديثه على الكافرين والمنافقين ! ! .

فرق : بين جاحدين يسلكون فى الجدل مسلك ابليس ، ويأبون متابعة الحق ، ويمارون فيه على غير هدى ، ويتعصبون للباطل فى شتى ألوانه ، وليس لديهم برهان .. وبين مؤمنين توافرت فيهم الثقة بالله ، وأخذ الايمان من قلوبهم مأخذه ، واستقرت فى جوانحهم عقيدة راسخة ، وانما يجادلون فيما يظنونه أجدى عليهم ، وأسلم لهم ، ثم يتعهدهم الله فيعتب عليهم عتبا فيه شدة ، ولكنه حق ، وفيه شائبة الغضب ، ولكنه غضب الرحيم ليقلعوا عن تلك الآفة : آفة اللجاج — فقسا ليزدجروا .

وللقرآن كثير من التوجيهات فى هـذا الجانب ، ينبهنا الى أن اللجاج ظاهرة العنت من أهـل الشرك وهو نقيصـه فى الخلق ، ومفرق للقلوب ، ومشتت للجماعة .

وكم يحكى القرآن لنا عن جدل قريش وعن مراء أهل الكتاب وعن سخط الله على الممترين ، ولعلنا ندرك كثيـرا مما يقع بيننا أن هـذا النوع من الجدل الجاف الذى يثار فينا ، ولا يكون فى رفق ، ولا يقف عند صواب أنه فى عرفنا خلق مسخوط ، ورذيلة مستهجنة .

ومن أجل هذا كان تنفير النبى من الجدل حتى ما يكون منه صوابا .

ومن حـديثه فى ذلك « أنا زعيم ببيت فى أعلى الجنة لمن تـرك المراء وان كان حقا » صلوات الله عليه وسلامه ووهبنا حب الحق ، وعصمنا من المراء وآثاره .

التبشير بالخير

« وما جعله الله الا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ، أن الله عزيز حكيم » .

(الأنفال ١٠)

١ — كثيرا ما نجد الخير محفوفا بالمكاره ، والنجاح يتعثر فى أوهام الخوف ، والانسان يطمع فى الخير غير مشوب بكدر ، ولا يحب أن يتحمل فى سبيله شيئا من عناء .

ولكن سنة الله فينا ، أن يبتلينا غالبا فيما يجرى علينا من أقضية ، ليكون للمرء فى حياته تفكير ، واختيار ، وله محاولات وجهاد .. ثم تلاقيه النتائج المحتومة ، فيفرح بما سعى اليه من خير ، ويرضى عما بذل من جهد .

أو يراجع نفسه فيما ضيع ، ويلومها على ما فرط . وتكون العبرة من شأن هذا وذاك لمن أراد أن يتخذ الى الخير سبيلا ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من وعظ بنفسه .

ولقد سبقت لنا غزوة بدر الكبرى .. يتناولها الكاتبون من نواح عدة ، وفيها — بحق — مجال للفكر ، وفسحة للعبرة . وفيها مناط للحمد على ما أراد الله بالمسلمين فيها ، وما قدر لهم بها من الغلبة على عدو الله وعدوهم جميعا .

حتى كانت هذه الغزوة — كما نظل نقول — أول حلقة محكمة من سلسلة الجهاد المظفر للمسلمين .

٢ — كان النبى — صلوات الله عليه — على سابق الوعد من الله أن يمكنه من عدوه فى العير أو النفير . فلما أفلتت العير بتجارتها تبين للنبى وصحبه أن الوعد السماوى أصبح عالقا بالحرب لا محالة ، ومع أن النبى كان على ثقة من وعد ربه ، فقد خشى على المسلمين أن تأخذهم رهبة العدو الكثير ، أو ينال منهم الأذى فى غير احتمال .

فكان من دعائه لله نحو القبلة : اللهم أنجزلى ما وعدتنى .. اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام فانك لن تعبد فى الأرض ، اللهم هذه قريش أتت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك : اللهم فنصرك الذى وعدتنى .

وما كان هذا الدعاء عن ضجر ولا يأس ، وانما هو صدى الايمان ، وظاهرة الثقة فى الله أن يستجيب ، وهو مظهر الأمل الصادق فى رعاية الله لجنده ، وأمارة على توقع الظفر بالمطلوب .

وكان الله — سبحانه — عند ثقة محمد — صلى الله عليه وسلم — وصحبه : أنه لن يخزيهم لعدوهم أبدا . طمأن الله رسوله بالبشرى الواضحة . والفأل الأكيد ، اذا أوحى اليه « انى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » وهل هناك بشرى تكون خيرا من معونة الله بالملائكة فى هذه الشدة مع النبى وصحبه ، كان جائزا أن يؤيدهم الله بالملائكة من عنده دون خبر سابق .

ولكن الله أراد أن يبادر رسوله وصحبه بالبشرى لما وراءها من مقاصد يحتاجها المجاهدون فى موقفهم هذا .. وناهيك بألف من الملائكة ، متبوعين بغيرهم يجاهدون مع المؤمنين .

٣ — فما مقاصد البشرى التى يمن الله بها على عباده ؟

ا) اطمأنت بها القلوب ، وذهب عنها الخوف الذى أثارهم وقتا ما ، فجادل بعضهم بعضا فى التعرض للحرب ، والخوف نقمة بغيضة تكدر صفو الحياة ، والطمأنينة راحة وهناءة ، ولا تطيب من دونها حياة .

ب) تجمعت قلوبهم المتفرقة فى سورة الخوف .. والخوف طبيعى لا يعاب عليهم ، ولكن البشرى أطمعتهم فى الكثرة الباغية ، وأيقنوا أن قلتهم — وان تضاءلت — هى جند الله ، وأن النصر لا يقاس بالكثرة والقلة ، وانما يقاس بالايمان ، وبالثقة فى الله أنه حق ، وأنه لا يحق الا الحق (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله !!) .

جـ) غشيهم النعاس : راحة وأمنا ، والنعاس لا يدنو من المهموم ، وانما يظل مسهد الأجفان يساوره الأسى .

ويكون النعاس عند فراغ الذهن ، والتهيىء للاستجمام .

د) وافاهم مع البشرى ماء المطر ، فتنظفوا ، وتطهروا ، وتجدد نشاطهم الى ما يلاقونه ، وزايلتهم الوساوس ، وتلبدت تحتهم الأرض ، فثبتت عليها أقدامهم ، ولم تعد تسيخ فيها كما هو شأن الرمال .

هـ) جمعوا من الماء ما يفيدهم وتوافرت لهم أسباب لم تكن لعدوهم ، حتى كانت الأمطار وبالا على المشركين في موقفهم وتجمعهم .

كانت هذه البشرى كلها يمنا وبركة على محمد وصحبه ، وكانت كما وصفها الله وأشاد بها ، (وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) وكفى بالأمر حسنا أن يسميه الله بشرى .

و) خلقت هذه البشرى في أصحاب محمد عزائم مشبوبة ، وآمالا فتية مرجوة ، ورغبة في الحرب لا تخالجها ريبة في الانتصار وان اقتضى جلادا وتضحية .

وأصبح شاخصا أمام الفرد ، وأمام الجماعة منهم أن العاقبة احدى الحسنيين : ظفر بالعدو ، ومجد للاسلام .. أو استشهاد وخلود في دار السلام .

وكلتاهما غاية يفتديها المسلم العربي بروحه ، وأهله ، وماله ، وبما هو أعز عليه من ذلك لو كان !

لأنها حياة في عزة ، وهم أعشق الناس للعزة وأعرف بها !

أو : هي ممات في شهادة لله ، وهناك خلود في نعيم بجوار الله ؟

كانت البشرى سابقة على خوض الحرب .. وكانت نتيجتها كما قدروا فوزا في تلك الحرب .

ز) صدق الله وعده بالبشرى ، ونزلت الملائكة — ولا جرم .

ولكن : هل حاربوا بأنفسهم مع جنود المؤمنين ، كما هو مشهور ، ووردت به آثار راجحة ؟ ؟ .

أو نزلوا ليكثر بهم سواد المسلمين في نظر العدو ، وتحدث بهم الرهبة في نفسه ، ويكون الجلاد والجهاد من عمل الناس ؟ ذلك الرأي الأخير ما يقول به علماء : مستشهدين له بظاهر قوله تعالى « وما جعله الله الا بشرى » .

يفهمون : أن الله لم يجعل الامداد بالملائكة للحرب ، بل للبشرى والتأييد فحسب ، ويقولون : لو كان للملائكة حرب لم يكن لأهل بدر فضل ، ولا استحقوا تلك المثوبة التى ثبتت لهم فى القرآن ، وعلى لسان الرسول ، وهذا توهين مرجوح ، وضعيف .. وعلى أى حال : فالملائكة مدد مبارك ، وتأييد مشهود .

وهذا شأن ربك مع كل مجاهدين فى سبيله متى كانوا على نية صادقة وعزيمة خالصة ، ولائذين بمعونة الله ، فانه هو وحده الناصر دون غيره ، مهما تكاثرت الأجناد ، وتضاعفت الأمداد « وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم » .

تجلى ذلك فى توجيه الله لملائكته أن يثبتوا المؤمنين بالالهام ، والمؤازرة فى ارهاب العـدو ، والتسلط عليه بالوهن ، واطاحة الرقاب ، حتى كان الواحد من الكفار تطير عنقه قبل أن تتمكن منه ضربة السيف من يد المسلم « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » .

فان تكن البشرى فى غزوة بدر ذات أثر آكيـد ، والى حد بعيد فى انتصار المسلمين ، فان الله قد أخذ على نفسه العهد أن ينصر من ينصر دينه : وأسلم الى الله وجهه « ان تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم » .

ونحن فى الحياة على ما بها من شواغل لا نجد غير الله عونا ، ولا من دونه نصيرا فهو ولينا ، يهدينا سبلنا ، ويعلم متقلبنا ومثوانا .

تلك : هى البشرى وما كان لها من فضل فى توجيه المسلمين الى ما يخشونه من عدو كان يستهين بهم ، ويترقب الغلبة عليهم ، ليستأصل جماعتهم الناشئة التى بدأت تناهضهم وتنقص من جبروتهم وسلطانهم ، ولم يكن ذلك عندهم فى الحسبان .

حـ) وأنت ترى لفظ البشرى يساق فى كل مقام يعنى به القرآن . ويلوح فيه للمؤمنين بأنهم أصحاب الحظ فيما يطمحون اليه .

وانظر — مثلا — الى قوله تعالى« فبشر عبـاد . الذين يسـتمعون القول فيتبعون أحسـنه » يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم » « بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

وفى شئون الدنيا كذلك : « ولما جاءت رسلنا ابراهيــم بالبشرى » . « فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » ـ « يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه » « يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى » .

ونظرا لما تحمله البشرى من ترويح عن النفس ، ولما تبعثه من بهجة كان حامل البشرى الى الناس محببا عندهم ، ومستطاب الحديث فيهم ، ومرموقا منهم بعين الرضا .

ومن حقه عليهم أن يحبوه ، ويوفوه حقه من التقدير ، بنسبة ما جاءهم به من خير يرتقبونه . فليس كثيرا على رســول الله أن يكون حبه محتوما علينا ، وأن تتخذ من حبه تعلقا بمتابعته فى دعوته لصــالح أنفسنا ، ووفاء بواجب العهد مع من جاءنا بتشريع الله ، وبشرنا برحمته ، وكافح فى انقاذنا من ظلمات الجهالة والضلال .

ليس كثيرا على محمد أن يكون حبه عبادة وقربة نظفر بها عند الله : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى ، يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » وهذا شيء مما نستمده من أثر بشراه ، ولأن البشرى ذريعة الى كسب المحبة ، ومفتاح للخير كان النبى داعيا اليها فى قوله صلى الله عليه وسلم : « بشروا ، ولا تنفروا » .

وأنت لا تجد لفظ البشرى الا فى معرض التفاؤل ، وسياق التطمين على ما يتعلق به المؤمن ، أو الانسان عامة من رجاء .. ومن أجل هذا تجد للفظ البشرى حلاوة فى الأفواه ، وهزة فى الأعطاف ، وطربا فى الجوانح . والتخويف قد يذكر فى أسلوب التبشير : لا فرحة به ، ولا تهوينا لشره : بل مبالغة فى استهجانه وتحقير أهله ، لأنهم يتهافتون عليه مع ما فيه من قبح كما يتهافت سواهم على الأمر الكريم ، وكما تتهافت الابل العطاش على موارد الماء .

ومن ذلك قول الله ـ سبحانه ـ فى شأن الجاحدين لدينه ، المنكرين لرسالته « فبشرهم بعذاب أليم ! ! » .

وهل العــذاب يكون فى مقــام البشرى ؟ ؟ ولكنها ســخرية الله بمن أعرضوا ، ووعيد لمن عاندوا ، والنجاة من الله وبتوفيق الله .

طاعة الله ورسوله شيء واحد

١ – « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله
٢ – « ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون .
٣ – « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا ، وهم لا يسمعون »

(الأنفال ٢١ – ٢٣)

١ – هنا دعوة من الله وتكليف للمؤمنين أن يطيعوا الله ورسوله على وجه الاطلاق ، أى فى كل ما جاءهم به من عند الله فى شأن الدين والدنيا .

٢ – ويقترن بهذه الدعوة – أولا – نهى للمؤمنين عن التولى والاعراض عن دعوة الرسول وهم يسمعونه يوم كان فيهم ، ويسمعون القرآن دائما من بعده ، وفى القرآن ما فيه من توجيههم الى الايمان بمحمد ورسالته ، والأخذ بما بلغهم عن ربه – مهما طال الزمن – واتباع سنته .

٣ – ويقترن بهذه الدعوة – ثانيا – وبالنهى معها ، نهى ثان أن يتشبهوا بغيرهم ممن لم يخلصوا فى الايمان ، وكانوا يتصنعونه ، ويتظاهرون بالاقبال على دعوة محمد والاستماع الى نصحه وارشاده ، ويزعمون للناس أنهم سامعون ، وحريصون ، وواقع الأمر فيهم أنهم غير متفقين لكلامه ، ولا مصغين اليه ، ولا مفسحين له قلوبهم التى خيم عليها ظلام النفاق والكفر .

فاختار الله تعالى للمؤمنين أن يجنبهم الاعراض كمن أعرضوا ، وأن يجنبهم اصطناع الدين ، وتكلف قبوله ، والاقرار بالسماع ، وهم لايسمعون كما كان شأن أولئك المرائين .

وليست الدعوة ، ولا النهى فى هذا المقام بالأمر النادر فى كتاب الله ، بل ذلك ديدن مألوف فى كثير من المواطن القرآنية .

لأن كتاب الله فى صدد العلاج للقلوب ، وتربية الأنفس ، وخلق الضمير الانسانى المهذب ، وتركيز الدين والخلق الفاضل ، لتحقيق الهدف من هذا كله بتوثيق الصلة بين العبد وربه ، وبين الانسان ، وأخيه الانسان .

فكان من حكمة الله فى مصلحة البشرية أن تتكرر الدعوة ، والنهى للايقاظ من الغفلة ، ومقاومة النسيان فى الانسان .

٤ — ونحن نعلم أن الدعوة الاسلامية عامة للناس جميعا ، دون تفرقة بين أحد وأحد « وما أرسلناك الا كافة للناس .. » « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » .

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم » « قل أطيعوا الله والرسول .. » فالناس جميعا أمة دعوة الى الاسلام .

ولكن الدعوة فى الآيات المذكورة فى مطلع الحديث موجهة الى المؤمنين خاصة أن يطيعوا ، مع أن المفروض أنهم أطاعوا وآمنوا .

وجواب هذا فى توجيهين :

أحدهما : أن غير المؤمنين قد انحازوا عن الدعوة الى ضلالهم ، وافكهم على الله ، وتعاظموا على طاعة رسوله ، وتكريمه ، فقوبل هذا الاعراض منهم بالاعراض عنهم من جانب الله تحقيرا لهم ، وهوانا بهم ، اذ الانسانية الواعية لا تتخبط فى باطل ، ولا تعرض عن الصراط المستقيم .

ثانى التوجيهين : أن المؤمنين هم المقبلون على دعوة الله ورسوله فى ثقة بها ، وارتياح اليها ، فاتجه الخطاب اليهم تكريما لهم ، وعناية بشأنهم ، وتكميلا لدينهم الذى ارتضوه حقا عن طمأنينة اليه .

ولعلّ فى تخصيصهم بالخطاب تلميحا قويا بالفرق بين الجانبين لكل ذى لب .

٥ — وليس يغيب عنا أن مثار هذه الدعوة وما معها من النهى مرتين هو ذلك الموقف الذى وقفه المؤمنون فى غزوة بدر : حين اختلفوا — أولا — فى دخول الحرب ضد قريش ، وامعان بعضهم فى الجدل مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى انتهوا الى رأيه وحاربوا ، وانتصروا ، وحين

اختلفوا . ثانيا : فى تقسيم الغنيمة أخيرا ، ورغب فريق منهم فى المفاضلة بين المجاهدين حسب اختلافهم فى بلاء الجهاد ، على ما حدثناك من قبل فى مقالين سابقين .

ومع أن الله تعالى تكفل بحسم خلافهم فى الموقفين ، وعاتبهم على ما وقع منهم ، كان من تمام فضله أن يزيدهم هداية ، وأن يشد أركان الايمان فيهم بتعليمه اياهم ما لم يكونوا يعلمون — هم لا شك — مؤمنون .. ولم يكن جدلهم عن ريبة فيهم ، أو مشاقة منهم .. بل هو الرأى كان يبدو لبعضهم مستحبا ، ولا يحسبونه مأخوذا عليهم ، وهم قوم حديثو عهد بالاسلام ، ولم تزايلهم تقاليد العصبية جملة لما يرونه ويجنحون اليه .

لذلك لم يعتبروا منسلخين من وصفهم بالايمان ، وانما هم بحاجة الى التهذيب ، والصقل .. فبعد أن كان المقام مقام عتب عليهم للجدل والخلاف. أصبح مقام توجيه الى الطاعة التامة ، والى متابعة الرسول فيما يبلغهم ، والتنزه عما يشبه غرور المعاندين من غيرهم .

هم مؤمنون ، تخلوا عن الكفريات كلها ، والله ينهاهم عن التعثر فيها لتتم فيهم معالم الايمان وكماله ، فيكون الايمان والتربية على آدابه من قبيل التخلية عن القبيح ، ثم التحلية بالكمالات على نحو ما يقول العلماء : التخلية ثم التحلية ، وذلك أليق بالمؤمنين ، وهم أمة الاجابة .

فالله تعالى يعلم المؤمنين أن الطاعة لله ولرسوله شىء واحد لا ينفك بعضه عن بعض .

فلا يقال : مؤمن ولا مسلم على وجه الكمال الا لمن آمن بالله ورسوله بل برسله جميعا . ولئن جاز اطلاق المسلم على من يتظاهر بطاعة الرسول ، دون تصديق بقلبه كما كان شأن المنافقين ، فان هذا من باب المجاراة لطاعتهم المصطنعة فى الظاهر .

ولكن دين الله لا يتجزأ ، وطاعة العبد لا تتحقق الا بتمام التصديق بما جاء على لسان محمد : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين » « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم .. » وهكذا .

وقد عودنا القرآن أن يقرن بين طاعة الله ورسوله فى الذكر للدلالة على التلازم بينهما فى الواقع ، لا للمغايرة بينهما بالعطف كما قد يتوهم من السياق اللفظى ، فهى مغايرة فى المفهوم لا فى المقاصد .

بل جعل الله كلمة التوحيد وهى عنوان الاسلام والايمان مؤلفة من الشهادة لله تعالى بالوحدانية فى ألوهيته ، ولمحمد بالرسالة ، وبدون ذلك لا يتم العقد الدينى بين العبد وربه .. فمن ظن أن أحد الجانبين من الشهادة ، أو من الطاعة يكفى ، لدعواه الايمان والتدين ، فقد انتقض على ربه فيما شرع ، وأعظم الفرية عليه فيما زعم .

وقد عاب القرآن هذا التشقيق فى كثير من الآيات ، وجاءت به السنة ، وأصبح الأمر فيه من البديهيات المعلومة من الدين علما ضروريا ، حتى ليكفر منكره ، أو المتشكك فيه عن شائبة من الريبة .

ومع هذا : فقد أطاش الغرور بعض العقول الواهنة ممن ينتمون الى الاسلام فخاضوا فى بحوثهم بالباطل .

وكتبت مجلة فى مصر عن لسان مسلم لبنانى شيعى : « ان ما يخبرنا به الرسول من أمور الغيب لا يجب علينا التصديق به » وعلى هذا الضلال لا يتحتم التصديق بكثير من أمور الآخرة ، وسحقا للرأى وصاحبه .

كذلك شذ فى مصر رجل فألف ونشر كثيرا انكاره للسنة النبوية بتمامها ، وقصر عقله الكليل على القرآن فقط ، ثم تجاهل ما فى القرآن من توجيهات حتمية الى الأخذ بالسنة عن الرسول وطاعته ، وليته عرف أن يفهم شيئا من القرآن ، أو تواضع ، وتفاهم مع غيره ، ولكنه كان بوقا لمن يزجون به ، وينفقون أموالهم ، ويتسترون خلفه ، وما تريث الرجل الا بانتهاء حياته .

وهذه نزعات يثور غبارها فى البيئة الاسلامية .

وما هى الا اقتراب من مذهب الوجوديين ، ومحاولات فى التحلل من تعاليم الدين .

والحلال بين ، والحرام بين ، وستظل تلك النزعات والحمد لله هزيلة وخاسرة .

وقد كان الاعراض عن الرسول ، واغفال دعوته من قوم يرون الحق ويتغاضون عنه اهمالا للعقول ، واختيارا للضلال ، فصـــاروا بهذا فاقدين للمواهب الانسانية ، فكأنهم لا سمع عندهم ، ولا منطق لهم ، ولا جدوى فى عقولهم . فصح أن يوصفوا مرة بالبيهمية ، أو هم أسوأ حالا من البهائم التى خلقت بلا تمييز ، فلها عذرها « ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل » .

وصح كذلك أن يعتبروا شر الدواب التى تعيش على وجه الأرض ، لأنهم تخلفوا عن السمع والطاعة وأفسدوا ، واستهزءوا . فوضح قول الله فيهم : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » نعم ... كرمهم ربهم بالآدمية ، ومنحهم مواهب الانسانية ، ولــكنهم طرحوها ، وحرفوها عن رسالتها ، وعاشوا بها فى سلبية . والانسان لم يخلق للسلبية فى دنياه . وهم بسوء اختيارهم لأنفسهم ليسوا أهلا للارشـــاد ، بل لن يزيدهم الارشاد الا تماديا فى الضلالة كما علم الله من شأنهم « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » .

فليعش هؤلاء فى معزل عن التبصر . والهداية . وليظلوا فى طغيانهم يعمهون ، وذلك بما كسبت أيديهم ، وبما كانوا يفرحون فى الأرض بغير الحق : وبما كانوا يمرحون .

(ب) المرء فى طاعته لله ورسوله بحاجة الى الثبات وتثبيت الله تعالى .

« ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم» .

٦ ــ وهذه دعوة تعزز دعوتنا الى طاعة الله ورسوله : والقصد منها أن تكون الطاعة عن يقين راسخ . فان الاستجابة لفظ يوحى بالاقبال عن رغبة ، وطواعية ، واطمئنان ، وهذه منزلة فوق منزلة الطاعة ابتداء ، فربما كانت الطاعة عن هوادة وملاينة لا عن تعمق فى الاقتناع والاستسلام، ودعوة الدين تتعلق دائما باليقين ، وتنشد الاذعان ، والبراءة من الوهن والذبذبة، فالاستجابة المنشودة هى الطاعة فى أصدق مفهومها ، وأقوم كيانها . وخاصة اذا تيقن المرء أن دعوة الرسول متعلقة بما يكفل الحياة لنا .

فالتخلف عنها موت ، والاخذ بها حياة ، والنفس لا تعتز بشيء ، ولا تحرص عليه مثل حرصها على الحياة ، ولا تزهد فى شيء ، وتتحاشاه مثل الموت .

فموقف المرء من دعوة الرسول موقف بين حياة يختارها اذا أجاب ، أو موت يتردى فيه اذا أعرض .

وسواء : أكانت الحياة المرادة فى الآية حياة دنيا لما تستفيده فى الدين من علم ومن أدب ، واستقامة ، وكرامة ، وقيام على العدل ، وسيادة بالمجد ، أم كانت الحياة حياة النعيم فى الآخرة ، والهناءة فيها برضوان الله وجواره ، فانها حياة يقصدها الدين لأهله ، ويدعوهم الى سبيلها من طريق العلم والعمل . وعندى أنها الحياة الطيبة بأوسع معانيها فى عاجلنا ، وآجلنا فتلك دعوة الله ، والله ذو فضل عظيم . ومن لم يفطن الى نفسه ، ولم يتخذ لها مراشدها ، ويتعهدها بالتزكية فهو ظالم لها بالغفلة عنها ، ويكون هذا فى غير رعاية الله ، ويكون ألعوبة الشيطان .

كما تكون الشاة القاصية عن عين حارسها خطيفة الذئاب .

وبقدر ما يكون للانسان من رعاية لنفسه واستئناس بدينه يكون فى القلب هداية ، وسكينة ، وايمان ، والا حال الله بينه وبين قلبه فلم يجعل للهداية سبيلا الى وجدانه ، ووكله الى نفسه ، وهيهات أن تكون له حياة أو نصيب من الحياة التى يبتغيها الراشدون .

وقد كان النبى صلوات الله عليه يكثر فى دعائه من قوله : « يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » .

حتى سألته أم سلمة رضى الله عنها عن اكثاره من هذا الدعاء ، فقال لها : يا أم سلمة « انه ليس آدمى الا وقلبه بين اصبعين من أصابع الله تعالى ، فمن شاء أقام ، ومن شاء أزاغ » يريد أن المرء فى قبضة الله ، وتحت سلطانه ، وهو عرضة للتحول من حال الى حال ، حسب ميوله واختياره ، وقد ربط الله بين الأسباب والمسببات « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى » والله يتولانا برعايته .

من شــئون المجتمع :

هدى القرآن فى الأمانات والأموال والأولاد

ا « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وانتم تعلمون .

ب) « واعلموا أنما أموالكم ، وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم » آية : ٢٧ — ٢٨ من سورة الانفال

(ا) بعد أن تكونت بجانب الرسول — صلى الله عليه وسلم — فئة من المسلمين تدين بالعقيدة الحقة ، وتجاهد فى سبيلها صار القرآن يخاطبهم كثيرا « يا أيها الذين آمنوا » .

وانما خصهم بهذه النـداءات لأنهم — كما أسـلفنا — تخلصوا من الكفريات ، وتهيأوا للعناية بتربيتهم ، وتطهيرهم من دنس الجهالة ، فكانوا أهلا لتلك العناية ، ولتنشئة مجتمع طيب منهم ، عريق فى دعائمه ومشخصاته ، وملامحه .

حتى كان من تلك العناية أن يتكرر نداؤهم بوصفهم هذا : الايمان فى آيات متعاقبة أو متقاربة ، كما نرى فى سياق آياتنـا هذه من سـورة الأنفال بالنسبة لما قبلها وما بعدها . وفى مقامنا هذا يعمد القرآن الى توجيه المؤمنين نحو أمور ثلاثة : من أهم قواعد النظام فى حياة المجتمع .

الأول : الأمانات ، وما تقتضيه من صيانة .

والثانى والثالث : الأموال ، والأولاد ، واعتبارهما فى دنيانا نعمة . أو فتنة مضلة . وقد سبق فى سورة النساء أن أمر الله تعالى بتأدية الأمانات الى أهلها تأكيدا لما فى سورة البقرة من قبل .

١ — والجانب الأول من موضوعنا الآن ، نهى الله عن الخيانة لله ، وللرسول ، وللأمانات بيننا .

فاذا وعينا تكليف الله لنا بتأدية الأمانة ، ثم وعينا نهيه عن الخيانة : وجدنا أنفسنا أمام وجهة من الكمال ينشـــدها الدين فيمن يريدون الخير لأنفسهم اذا عاشوا على هذا النظام .

وخيانة الله تكون بالتخلف عن مطاوعة دينه فيما أمر ، أو فيما نهى .

وسواء أكان ذلك التخلف فى عبادة ، أو معاملة أو فى نشاط فردى أو جماعى فى تحصيل الأرزاق ، وانجاز الأعمال فى مواقيتها ، وعلى وجه الاتقان كما أحب الله من عبده اذا عمل عملا ما .

فهذه جوانب النشاط فى حياة سليمة من الآفات ، والمرء فيها بحاجة الى الاهتداء بتشريع الله حتى يكون متجاوبا فى مسلكه مع دين الله ، وتكون معيشته لونا صادقا تتمثل فيه بوضوح مظهرية الدين الذى يعيش فى ظلاله.

والانحراف عن هذا المسلك القيم المستطاع يعتبر خيانة لله فيما عهد به الى المؤمنين : فضلا عن كونه انحرافا لا يكفل نجاحا مطردا ، وان صادف نجاحا مؤقتا .

فان سنة الله فى تدبير ملكه ، والتى قامت عليها فطرة الحياة تأبى أن يكون للباطل دوام .

٢ — وحينما نقرر أن الأمانة مجموع الامتثالين : فعلا ونهيا ، لا يكون أحد الجانبين كافيا فى تحقق الأمانة ، أو اتصاف الانسان بالأمين .

فربما كان المصلى مرائيا ، وربما كان المزكى ظالما ، وربما كان المجاهد مختلسا ، وفاعل هذا لا يسمى أمينا ، ولكنه خائن ، لانتقاصه أمانة الله ، وخدشه اياها من أحد الجانبين : هو فعل المنهى عنه .

وخيانة الرسول بالاعراض عن دعوته ، واهمال ســـنته فيما بين من أحكام القرآن وآدابه ... وقصارى الحديث فى هذا أن خيانة الرســـول فى جملتها وتفصيلها هى خيانة لله ، فان الرسالة النبوية أمانة الله التى حملها الينا محمد رسوله ، فكانت طاعة الرسول أو مخالفته هى فى موضوعها طاعة لله أو مخالفة له .

ومن أجل هذا كان الاقتران بينهما فى أسلوب القرآن : « ومن يطع الله ورسوله » « وأطيعوا الله والرسول » « ومن يعص الله ورسوله » .

والقرآن يتعرض لهذا فى كثير من آياته المفصلة ثم يتعرض له اجمالا فى مثل قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

وما دامت الأمانة فى جانب الله ورســوله واحدة ، والخيــانة كذلك واحدة : لوحدة الموضوع فيهما .. فالتنصل من الحفاظ عليها يعتبر نقصا فى الدين . وهنا يتضح قول النبى صلى‌الله عليه وسلم : «لاايمان لمن لا أمانة له » . وهل يكون مؤمنا فى اعتبار العقل فضلا عن الشرع من يخون الايمان فيما يقتضيه ؟ وان ذلك الحديث ليتسع لأنواع الأمانات ، وفيها الأمانات بيننا .

ونحن نعلم ما بين الناس من عهود واتفاقات وودائع وأسرار ، واشتراك فى أعمال ، وأموال ، ونحو هذا مما يطول تفصيله كعلاقات الحاكم بالمحكوم ، والقاضى بالمتحاكمين ، والشاهد بالمشهود الخ ..

وكل هذه أمانات تقتضى صيانتها من العبث بها . أو الخروج فيها عما فرض لها من محافظة عليها . وفى المساس بها خطر على مصلحة الفرد أو المجموع .

فمن وراء الخيانة فيها زعزعة الثقة بين الناس . وتعويق عن النجــاح فى أمور تحتاج الى السرية كما يشير النبى صلى الله عليه وسلم الى ذلك فى قوله : « واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .

وعندما نفطن الى الخيانة وأثرها فى الاضرار بالحياة العامة ندرك حكمة الله فى تحريم الخيانة على أى وجه من الوجوه ، ومهما تكن فى شىء ضئيل ، فمعظم النار من مستصغر الشرر .

ومما يزيد مأثمها أن يرتكبها الناس عالمين بكراهية الله لها . وبأسباب الحظر فيها : وهذا هو قول الله : « لا تخونوا الله . والرسول . وتخــونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » .

أى تعلمون شأن هذه الأمانات ورعايتها ، وأضرار الخيانة ، وبشاعتها ، وكراهية الله لمخالفة حكمه ، فان ارتكاب المحظور على علم يزيد فى جرم صاحبه وعقابه .

وليس من قبيل الأمانة المرعية فى نظر الاسلام مجالس السوء ، ومؤامرات الأشرار ، وأحاديث المجون ، وما لا يتفق مع توجيهات الدين الى الخير .

فانكار ذلك كله ، والكشف عنه لمقاومته ودفع أضراره قبل حصوله حق على المسلم .

وهو ما يشهد له قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — : « المجالس بالأمانة ، الا ثلاثة : مجالس سفك دم حرام ، أو فرج حرام ، أو اقتطاع مال بغير حق » فهذه أسرار لا حرمة لها ، ويجب أن تعلن لمقاومتها ، وكف أصحابها ، وسلامة الناس من آثارها وهكذا كل سر يكون ضارا .

كما يشهد هذا قوله صلى الله عليه وسلم « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ... وذلك أضعف الايمان » .

يريد النبى صلى الله عليه وسلم مقاومة المنكر بكل وسيلة مسكنة .

هذا مجمل القول عن الأمانات فى تشريع الله .

(ب) والجانب الثانى من موضوعنا : جانب الأموال والأولاد : اذ فى الكلام ضميمة قوية ، أفصحت عنها الآية الثانية : « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم » .

١ — فلا شك أن المال والولد نعمة محببة الى النفس تستبد بفرحة الانسان ، وتتحكم فى توجيهه يمينا ، وشمالا .

والقرآن يشيد بهما كثيرا .. وهو يتجاوب فى هذا مع فطرة الانسان فى اعزاز المال والولد ، « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » « وأمددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيرا » « يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » .

٢ — ثم مع هذا يحذرنا القرآن من تلك النعمة فى قوله هنا: «واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم » .

فهما نعمة ، وزينة ، وهما فتنة وبلاء ... هما نعمة يغتبط لها الانسان ، ويزهى بها .. وهما غرور وخيلاء ، ومدعاة البطر والتجبر .

وقديما كان المال والأولاد مفاتن للناس ، يتغنون بذكرهما فى مجال التفاخر ويتكاثرون بهما حين التطاول على الغير ، والمباهاة بالثراء والعصبيات « ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر » .

ولأنهما نعمة وفتنة ، نبه القرآن كثيـرا على حسـن التصرف فيهما ، وأنهما اختبار يتضح به شأن الانسان فيهما كأمانة عنده ، أيرعاها حق رعايتها أم يسيىء ، فيكون اختباره بهما وبالا عليه « أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا » .

وكان الكافرون يظنون أن الله يعطيهم لخصوصيات فيهم .

وكذلك شأن الكثيرين فيمن سلف ، وممن خلف .. وكم حـاقت المهالك بأمم كانت أشد من سواها قوة ، وأكثر أموالا ، وأولادا ، فما أغنت عنهم أموالهم ، ولا أولادهم .

٣ — ولعل حديثنا هذا — عن الأموال والأولاد — يقرب الى الاذهان ما أريده : من أن تعرض القرآن لهما بعد التكليف برعاية الأمانات ، وعدم الخيانة فيها كيفما كان نوعها ، يعتبر من جديد اشادة بهما ، كما يعتبـر تنصيصا على الحيطة فيهما ، والتحذير من الفتنة بهما حين وجودهما ، أو الاسراف فى الجزع لأجلهما حين الحرمان منهما .

فالفرح المفرط ، والأسى ، والتحسر : كلاهما فتنة موبقة ، وتصرف محذور ومحظور .

وفى الناس والحمد لله عقلاء يدركون أن الأموال والبنين وديعة لله لدى خلقه ، فهو يودعهما ، أو يودع أحدهما عند من يشاء ، ويستردهمـا ممن يشاء .

وفى ترديد هذا يقول الشاعر :

وما المال والأهلون الا ودائع ولابد يوما أن ترد الودائـع

٤ — ومن هذا ندرك فى سهولة أن التوجيه الى الأمانة ، وعدم الفتنة بالأموال والأولاد متعلق بالمحظوظ فيهما .. كما هو متعلق بالمحروم .

فذلك يغتبط ، ويشكر ، ويكون بماله وأولاده خيرا لنفسه ، ولوطنه ودينه ، فلا تكاثر ، ولا صلف ، ولا تجبر ولا فساد ، والمحروم يرضى ويصبر ، فلا جزع ، ولا حفيظة على الناس ، ولا يأس ، ولا زهادة فى الاجتهاد ولا كراهية للحياة .

وحينذاك يكون اختبار الفريقين بالعطاء فى جانب ، والحرمان فى جانب اختبارا موفقا حيث لم يكن من المحظوظ الا حسن تقدير وشكر ، ولم يكن من المحروم غير تسليم وصبر ، وقد وعد الله الفريقين وعدا حسنا فى نهاية الآية بقوله « ... وأن الله عنده أجر عظيم » .

٥ — هذا ، وقد لا تجد المال والولد فى اعتبار الناس سواء ، بل يزاحم أحدهما الآخر .. فهذا انسان يكدح فى الكسب ، ويضنى نفسه وأولاده فى تحصيل المال من طرقه المشروعة أو غير المشروعة ، ثم يضن به على نفسه وأهله ، ويكنزه عن بعض وجوه الخير ، حبا ذاتيا للمال ، وتفانيا فى تكديسه وحراسته ، وكأن المال خلق غاية لا وسيلة ، وهذا الضنين يجنى بشحه على ذويه ، وعلى الوطن جناية مزدوجة ، فالحرمان مبعث الفساد فى الأولاد ، وحبس للمال عن اطلاقه فى مجال الاستثمار وتعميم النفع « ... الذى جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخلده » « وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما » .

ومثل هذا مثل السارق من الوطن : يأخذ ويخفى ويسد يده المسلب ولا يسدها للعطاء ، فهو عدو لمجتمعه .

وذاك انسان آخر يبسط يده فى الانفاق بما لديه ، ويبالغ فى تدليل نفسه وأولاده ، ولا يتردد أن يختلس ، أو يغتصب ، أو يرتشى ، ليشبع نهمه ، ويرضى شهوات البنين ، ولا تزجره الأزمات ، ولا يقف فى سبيله العجز المادى اذا فرغت يده مما تملك ، فلديه وسائله الشيطانية الكثيرة .

ومن شأن هذا الاتلاف أن يجر الى الضرر بالكثيرين ممن يتعرضون له فى مجتمعه ، فضلا عن كونه أنبت أولاده فى مباءة فساد ، وسلطهم بتربيته الضارة على الأمن العام وحقوق الغير ، فالمبالغة على أى وجه من وجوهها فى حب المال ، أو الأولاد على حساب المال مفسدة ، ومخلة بالتوازن ، وعبث بالأمانة فى المال والولد ، وضررها كالوباء المتفشى بين القوم .

والله تعالى يلزمنا بالأمانة كفرض دينى : لا لمجرد التعبد بها . فليست عملا نحصله ، ونجهد أنفسنا به قربة الى الله . بل يلزمنا بها كمبدأ خلقى نعتصم به ، ونتجمل بالتزامه فى حقوق الله ، وحقوق الناس .

ومادامت نوازع الشر دائما مشبوبة ، ووقائع الخيانات متلاحقة ، ومتنوعة : فكأن الناس على جهالتهم الأولى . وكأن الآيات فى الأمانات واجتناب الخيانات تنزيل جديد ، والله الحفيظ .

المكابرة في الحق بلاء
والتمادي في الباطل شقاء

ا) « واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا : قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، ان هذا الا أساطير الأولين .

ب) « واذ قالوا : اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم » آية : ٣١ ــ ٣٢ من سورة الانفال

١ ــ كانوا عربا فصحاء ، وخطباء بلغاء ، وأعرف من سواهم بنسق الكتاب وتوجيهاته ، وادراك لمفاهيمه ، وارشاداته .

ولكن خذلتهم عقولهم ، وسيطرت عليهم ضلالتهم ، فلم يكفهم التنكر للقرآن ، ولا أخجلهم العجز عن مضاهاته بشيء مثله .

بل تطاولوا : فزعموا أنهم لو شاءوا لقالوا مثله .

ثم تطاولوا فنزلوا به عن قدره ــ وهم يعلمون أنه قرآن سماوي ــ فقالوا انه لا يزيد عن كونه أساطير السابقين .

فكأن الأمر في أوله أمر مشيئتهم : فيأتون بمثله ، أو لايأتون .

وكأنه ــ ثانيا ــ أساطير موضوعة ، ومعهودة عن الأسلاف ، يتندرون بها في مجالسهم ، ويتسلون بها مع أهليهم ، وندمائهم .

فان يكن جدلهم صوابا عندهم ، ولم يكن محمد صادقا فيما جاءهم به وليس القرآن معجبا لهم ، فأين الحق الذي جاءوا به ، أو أين بعضه مما يشهد لهم ؟

قالت قريش هذا ؛ وما هو أشنع من هذا في جدلهم للقرآن ، وتحديهم للرسول .

وكأنهم فطنوا الى تخاذل المكابرة ، وتساقط الأراجيف ، وازدياد القرآن وضوحا فى حقيته ، وتمكنا فى قلوب الكثيرين سواهم .. فسلكوا سبيلا ممعنة فى الضلال ، وعريقة فى التضليل .

٢ — وصاروا يجهرون فى القوم بطلب السوء والدمار ، ينزل عليهم من السماء ان كان القرآن حقا كما يقول محمد !

يريدون من ذلك اعلان تأكدهم أن القرآن غير حق ، وايهام الناس بدرايتهم وخبرتهم بهذا ، والا لما طلبوا لأنفسهم الهلاك .

ذلك اسرافهم :

وربما كان الاسراف فى العناد ، والتمادى فى تجاهل الحق شهادة واقعية فى تزكية القرآن وان لم تكن شهادة مقصودة ؛ ولا عن نية محمودة .

وكثيرا ماتكون الخصومة مؤيدة لعدوها الذى تريد أن تغلبه .

قالوا : ياألله ان كان هذا القرآن حقا كما يدعى محمد فأمطر علينا حجارة من السماء ، أى : كما نزلت على أصحاب الفيل ، أو ائتنا بعذاب الاستئصال على أى لو آخر ، كما عرفوا عن عاد ، وثمود ؛ ونحوهم ؛ ثم لم ينزل عذاب الاستئصال ، فهل يكون ذلك تأييدا لهم ؟

وهل كانوا يطمعون فى استجابة الله لدعائهم ويتصدون للعذاب حقا ؟

هو ايهام كما قلنا ، ولو استجاب الله دعاءهم وأنزل بهم ماطلبوا لزعم زاعم مبطل أنهم مقربون الى الله ، وأن دعاءهم مقبول . وأن الهلاك حصل صدفة ، أو لسبب آخر ، فان حماقتهم وحماقة أمثالهم لاتقف عند حد فى المحاولات .

٣ — وكان امتناع العذاب فى حكمة الله لأسباب أخرى ، غير تصديقهم فى انكارهم : أحدها — ما نطقت به الآية — ان الرسول يعيش فيهم « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » فقد جرت سنة الله حين اهلاك قوم يكذبون رسولهم أن يأمر رسوله فيخرج بالمؤمنين معه قبل حصول الهلاك لغيرهم فجأة ، كما خرج نوح ومن آمن معه .

وكما خرج هود ، وصالح ، وموسى ، عليهم السلام — قبل أن يحدق العذاب بمكذبيهم .

ولم يؤمر النبى محمد صلى الله عليه وسلم أن يبرح قومه الآن ، لأنه سبحانه يستبقيه فيهم ثابتا على دعوته ، صابرا على جهاده ، متحملا لأذاهم ، حتى يمكن الله لدينه ، ويركز دعوته رغم مافى سبيلها من صعاب .

ومادام محمد فى القوم لحكمة الله فلن يأخذهم ربهم بعذاب الاستئصال مع أن عدم اهلاكهم أمارة على تكريم محمد ، ولكن القوم لا يفقهون .

وقد كان فيهم رجل أسرف معهم ، ولما توفى النبى أسلم ، وأخلص فى عبادته ، فقال له بعض المؤمنين « لو فعلت هذا والنبى صلى الله عليه وسلم حى لفرح بك كثيرا » .

فقال الرجل : كان لى أمانان من عذاب الله : مضى واحد ، وبقى الآخر : يريد أن الرسول كان أمانا حين وجوده ، فلما توفى لم يبق الا الاسلام لمن يسلم .

والسبب الثانى — لعدم الاهلاك — وقد نطقت به الآية كذلك :

« وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون » فاستغفار المستغفرين وقاية من الشر كما تبشر الآية — وهل كان فى قريش مستغفرون ؟ .

قال العلماء : كان فيهم أفراد يستغفرون أحيانا من بعض ذنوبهم . والله لايبخل على الداعى . وان كان كافرا .. لا لأن الداعى كريم مستجاب عند ربه ، ولكن : اظهارا لكرم الله ، وسعة فضله ، وأنه لايضيق فى تفضله حتى على من لايستحقونه ، كما أنه يرزقهم . ويعافيهم من أمراض . وينصرهم فى حروب ، ويتيح لهم من نعيم الدنيا ما يثير العجب ، فالله يستجيب دعوة المستغفرين منهم ويرحم بها الآخرين معهم .

ولعل فى هذه الاستجابة تنبيها للكافرين من غفلتهم . وتوجيها الى ربهم فيكون هذا لونا من ألوان رحمته بالناس فى هديهم .

أو يكون الاستغفار حاصلا من المؤمنين ، وهم بعض من قريش فأكرم الله الجميع بسبب ماحصل من بعضهم ، ونسب الاستغفار الى الجميع كما ينسب كثيرا أعمال البعض الى الكل ، وكما ينسب أحيانا عمل الكل الى البعض باعتبارهم جماعة واحدة ، على أنه لا مانع أن يراعى استغفار هؤلاء ، وهؤلاء : مؤمنهم وكافرهم .

السبب الثالث : لم يستجب الله دعوتهم بالهلاك ، ولم يأخذهم به كما جرت سنته فى أمم سابقة لأن الله — تعالى — أباد الشعوب ليخلى الأرض منهم ، ويشغلها بآخرين من بعدهم ، حتى يصل الأمر الى مستقره فى تقدير الله وتنظيمه للكون .

ولم يفعل ذلك بأمة محمد ، لأنها الخاتم ، ولأن دعوته عامة ودائمة ، وسوف لايخلفه نبى غيره بدعوة جديدة ، ولا تأتى أمة غير أمته لتستقبل دعوته هذه ..

فعدم اهلاك قريش يعتبر مسايرة لحكمة الله فى استيفاء أمة هذه الدعوة العامة .

ولقد ظهرت حكمة الله هذه فى دعوة النبى لأمته ، كما ورد فى حديثه ما معناه :

« دعوت ربى فى ثلاث : ألا تجتمع أمتى على ضلالة — ألا يأخذها بالعذاب — ألا يجعل بأسهم بينهم شديدا ، فاستجاب الله فى اثنتين ، ولم يجبنى الى الثالثة » .

فمصداق هذا الحديث أن الله حفظ أمة محمد من الاجماع على منكر كما كانت أمم سابقة — بل اذا وجد منكر ؛ وجد بيننا من يحاربه ، ولايرضى به ، فلسنا مثلا كبنى اسرائيل .

وثانيا : ان الله لم يعاجل أمة محمد بالهلاك المستأصل بل أبقاها لما ذكرنا من حكمة ، وأما الثالثة — فحكمة الله منعت الاجابة فيها ، وبقى اليأس والخلاف. لمايعلمه بين المسلمين من تصدعات لأسباب ترجع الى دنياهم ، ومطامعهم فيها ، لا الى دينهم الحق ، ولا من طريقه فى شىء ، وحسبك ما تراه بين بعض حكام المسلمين .

٤ — ويمكنك أن تثير شبهة فى هذا : فان الله — سبحانه — يحدثنا فى كتابه وعلى لسان رسوله أنه أهلك أمما بذنوبها . وأن هذه سنته فى خلقه ، وأن سنته لاتبديل فيها ، فكيف تخلفت سنته فلم يهلك الكافرين بمحمد وهم أمم تملأ الأرض طولا وعرضا ؟

وكيف لم يهلك الكثير من أمم الاسلام ، وهم على غير استقامة ؟

والجواب الذى أفهمه ــ كما سلف ــ أن سنة الله قامت على اهلاك من هلك ، وعلى ابقـاء أمة الدعوة المحمدية الى الوقت الموعود فبقاؤها تنفيذ لسنته فيها ، ولم تتبدل السنة فى ذلك .

وليس هذا محاباة لأمة على أمة ، وانما هى حكمة ، لبقاء الدنيـا الى موعدها ولو كفروا .

وذلك لايمنع من نزول بلاء كريه بين المسلمين بسبب تقاعدهم كثيرا عن حق الدين عليهم ، فالأمراض ، والقحط ، وهزيمة الحروب ، والانقسام والتفرق بينهم ، وانحياز بعض ملوك المسلمين الى أعداء المسلمين : كل هذا عذاب يصيب الله به المسلمين ، كما يصيب غيرهم ، وبهذا البلاء الشـديد تكون السنة (جارية فيهم حقا) ولو على وجه من وجوهها ، الى أن يحين وعد الله باليوم الآخر .

٥ ــ والقرآن نفسه يؤيدنا فى هذا التوجيه ، فالله تعالى يقول « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى » « لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا » الخ .

وبهذا تزول الشبهة المفروضة ، ويستقر الأمر على أن سنة الله لاتتبدل

ثم نعود الى الحديث عن قريش :

٦ ــ فالله ــ سبحانه ــ يعيب عليهم استعجال العذاب ، ويسـجل شؤمهم على أنفسهم فيقول فى آية ثالثة « ومالهم ألا يعذبهم الله » ، يعنى وماذا يفيدهم أن يرجىء الله هلاكهم ، فى حين أنهم يمعنون فى مناوأة الدعوة. ويستحقون أكثر مما يستحقه متخلف عن الاجابة .

(١) يصدون عن المسجد الحرام وينفرون الناس عن اللياذ به ، والتقرب بزيارته ، وربما كانت الزيارة عادة تهديهم الى الايمان ، ولكن قريشا تخاف من تحقق هذا ، فتبعد الناس عنه .

(٢) وفى حين أنهم أولياء البيت ، يقومون بخدمته ، ورعايته ، وسقاية الحجيج واطعامهم ؟

فكيف يتوارثون هذا المجد فى تعظيم البيت الحرام ، ثم يذودون الناس عنـــه ؟

لم يكونوا حينئذ أهلا لولاية البيت حقا ، وانما يستحق ولايته المتقون لربهم ، دون هؤلاء المتناقضين ، ولكنه الجهل المطبق ، والكفر الطامس .

(٣) وفى حين أن مظاهر احترامهم لبيت الله كانت ضروبا من السخرية والمخازى ، وسوء الغفلة عن حسن التفكير .

فقد كانوا يعبدون الأصنام فيه ، ويجعلونه مباءة للشرك .

وكانوا يطوفون به عراة الأجسام كما تختلط البهائم ، والوحوش .

وكانت صلاتهم عند البيت حركات هستيرية فى صـــفير ، وتصفيق ، وليس فيها أدنى ظاهرة من خشوع ، ولا ضراعة ، ولا ذكر صحيح لله رب البيت .

٧ ـــ والقرآن يواجههم بهذا كله ، ويسمعونه فى قوله تعالى : « وهم يصدون عن المسجد الحرام ، وماكانوا أولياءه ، ان أوليـــاؤه الا المتقون ، ولكن أكثرهم لايعلمون ، وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية ـــ صفيرا وتصفيقا ـــ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » يسمعون هـــذا ، ويسمعون آيات أخرى فى معايبهم ، ثم لم يزدادوا الا غلوا ، وشططا ، حتى لينفقون أموالهم فى ترويج الأباطيل ، ويضاعفون الجهود فى مجافاة الحق ، « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون ـــ بضم الياء ـــ وهذا عذابهم فى دنياهم ، بالتشاغل عن الهداية ، حتى ولو هددهم القرآن ،وقرع اسماعهم بقوله : « والذين كفروا الى جهنم يحشرون » .

وقصارى الحديث فى مقامنا هذا أن المكابرة فى الحق شؤم ، أو هى الشؤم كله ، وأن الاستغفار وقاية من المهالك ، وطهرة من الذنوب . ومعونة على اصلاح الأنفس .

وأن أخلاقنا — وفى المجتمع الاسلامى خاصة — على غير مارسم لنا دينا ، وفى بعد بعيد عما يقصه الكتاب العزيز للعبرة ، والافادة ، وأن السبيل ميسرة لمن أراد سلوكها فى غير تردد ، ولا مشقة : وأن دعوة الله جهيرة ومفهومة ، وأن الحياة غير خالدة . ولا مأمونة فى انطوائها أى ساعة !!

فهل لنا أن نستجيب .. اللهم وفق .

*
* *

المرء يجلب السوء على نفسه

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم ، وأن الله سميع عليم » .

(آية ٥٣ ـ انفال)

١ — الله سبحانه — يضفى على الأمة جانبا من تأييده . ويمنحها حظا من سلطانه ، فتكون لها شخصية ومهابة . ويعز شأنها ، وتستقر سيادتها فى رعاية الله مادامت على الجادة ، وغير ملتوية فى مسالكها عما رسم الله من شئون دينه ودنياه : فى محيط الأمة ، وفى علاقاتها مع الغير ، والله سبحانه يمنح الأفراد كذلك من فضله . ويحفظ عليهم نعماءه مادامت النعمة فيهم مرعية الجانب ، ومحفوفة بالتقدير ، والحمد ، وحسن التصرف .

وقد عاهد الله خلقه على أنه لايسلبهم نعمته ، ولايبدل من عطائه الااذا كانت الاساءة منهم الى أنفسهم .

فحينذاك يكونون رافضين لما منحهم ، ومعرضين عما نصحهم : فلا يكونون أهلا لما تفضل به عليهم .. وهذا هو قوله سبحانه : « لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « فمن نكث فانما ينكث على نفسه » .

ونحن فى عالم فسيح الأرجاء ، تتناوبه صروف القدر ، وتتماوج فيه أحداث الزمن ، وهو فى طريقه يستقبل جديدا ، ويودع قديما ، الى أن يستقر الركب على أى نحو يشاء الله .

والله تعالى — يحبب الينا دائما أن نعيش على الهدى ، وأن نلتمس الخير من سبله عامة ، لندرك حظنا من دنيانا ، وليكون الخير بعدها موصولا بما هو خير منه ، وأبقى فى حياة الخلود .

٢ — وكان من فضل الله على الناس أن يمنحهم العقل ليفكروا.والوعى ليتدبروا . وأضفى عليهم نعمة العلم ، والرزق ، والصحة ليسلكوا سبلهم عن بينة الى خير ما دعاهم اليه ، وبين لهم أن الاحسان منهم احسان الى أنفسهم .. وأن الاساءة منهم اساءة اليها ، وأن ما يصيبهم من سوء فهم الكاسبون له ، وما ينالهم من جزاء فما ظلمهم الله فيه .

وهذه شرعة الله مع عباده قديما وحديثا .. فماذا كان ؟

٣ — كانت للناس مسالك متباينة ، وتقلبات مضطربة ، وعلاقات غير رحيمة فيما بينهم وخصومات لدينهم ، ومقاومة كريهة لدعوة رسلهم .

وهكذا ضلت فيهم عقول ، وعميت منهم بصائر . فتجاهلوا ما عرفوا من شرائعهم ، وانحرفت بهم النعمة ، ومردوا على شقاق وضلالة .

وماذا يستحق الماكر غير هوان به . وسلب نعمته بعد توافرها . وكسر شوكته بعد قوتها ؟ واذلال نفسه بعد جبروتها ؟

هكذا كانوا ، وهكذا صنع الله بهم .

نجى الله من بينهم أنبياءه وأتقياءه . ثم سلط على الآخرين بلاءه . فأهلكهم بالصيحات ، والصواعق الماحقات ، وبالخسف ، والمسخ . وبالريح العاتية . والاغراق المبيد . وأذاقهم من بأسه مالم يكن لهم فى حساب .

وتلك عدالة الله مع خلقه ، وحكمته فى تدبير ملكه .

ثم ماذا يستحق من الله من أحسن الله اليه فأساء . ووعده بالخير فكذب وعده ، وأوعده بالشر فاستهان بوعيده ، ذهبت ريحهم . وخلت منهم ديارهم ، وباءوا بشر ما يبوء به من دخل دنياه رابحا ، ثم خرج منها خاسرا ، واندحر على هوان ، وليته لم يكن فى الدنيا شيئا مذكورا .

تلك أمم : انفرجت لهم حياتهم واتسعت فجاج دنيـاهم ، وكان لهم سلطان ومتاع ، فما بقى لهم غير ذكريات سيئات ، وما ورثنا عنهم سـوى العبرة بهم ، والتخويف من عقباهم اذا غيرنا ما بأنفسنا كما غيروا ، فان سنة الله قائمة ، وقدرته متمكنة •

ونحن عباد مثلهم ، ولسنا أعز على الله منهم الا بتقواه ، وباتخاذ سبلنا فى الحياة على هداه •

ورحمة الله لمن يهتـدى بهـديه ، ونعمته تدوم مع من يرعاها بالأمانة عليها ، وحسن تصرفه فيها « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » .

٤ — والدنيا عند الله هينة ، وهو يعطيها لمن يحبه ولمن لايحبه ، ولا يضيره — سبحانه — أن تظل نعمته عند من يعصيه ، ويبقى السلطان عند من لايتقيه •

ولكن حكمة الله تترك الدنيا لمن لايستحقها ناعما فيها ، حتى يتم اختباره بها ، ثم يكون زوالها وبالا عليه ، وحسرة له •

ومن أجل ذلك التدبير تراها دولة بين لناس — ويغير الله من حال الى حال •• فقوم كانوا على صلاح ثم أفسدوا ، وعلى عدل ثم جاروا ، وعـلى تناصح ثم جحدوا ، وعلى حياء ثم تبجحوا ، وعلى قناعة ثم جشعوا ، وعلى اجتهاد فى حياتهم ودنياهم ثم تواكلوا ، هؤلاء جميعا غيروا ما بأنفسهم ، فغير الله مابهم من صنوف نعمائه •

ورب قوم على فساد وضلال ثم ازدادوا وتمادوا ، فهم كذلك غيروا ما بأنفسهم من قبيح الى أقبح ، وان كانوا من قبل فى مهلة من وعيد الله ، فان الله لا يطيل امهالهم ، بل يلاحقهم بما يزعزع امنهم ، وينتقص من راحتهم ، ويهز من كيانهم ، ويسلط عليهم من غصص الحياة وأكدارها ما يبدلهم سوءا بعد حسن ، وشرا بعد خير ، وشؤما بعد رجاء •

وكذلك كانت قريش •• عاشوا فى رخاء وتمجدوا بعصبية وأنساب ، وتمتعوا فى شموخ وأنفة ، وكان فيهم كفر ووثنية ، غير أنهم كانوا فى مهلة . وفى شبه معذرة ، لأن رسولا لم يأتهم ، ولأن الدعوة لم توجه اليهم ، وكانت

لهم مع الكفر والضلالات مبرات خلقية كريمة ، كصلة الأرحام ، والوفاء بالعهد ، وحماية الجار ، واغاثة الملهوف ، وسجية الكرم ، والايثار .

وازاء هذه المبرات مع وثنيتهم كانوا فى مهلة من تغير الحال بهم ؛ وفى هدوء من التهديد والتشنيع وافتضاح أمرهم .

٥ — فلما جاءهم رسول منهم ، ووجهت اليهم الدعوة ، وقامت عليهم حجته غدروا بالقرابة ، واحتقروا الرحم التى بينهم وبينه ، وتخلفوا عن عصبيتهم للحق ، فى سبيل اعتصامهم بالباطل ، وأنكروا محمدا وهو من صميمهم ، وأكرمهم نسبا فيهم ، بل هو كما هتف فيهم أرحم بهم من أنفسهم ، وهو أصدق من عرف بالصدق فيهم ، وأوفى من عرف بالأمانة بينهم .

نكلت قريش عن دعوته ، ولم يشكروا نعمة الله بهدايته .

فكان هذا مناقضا لما عرف عنهم من مؤازرة العصبية ، ومنافيا لما عهد فيهم من عرفان الجميل ، طاشت عقولهم ، وضلوا سبيلهم فبدل الله أمنهم خوفا ، وراحتهم شقاء ، وأصبحت كثرتهم فى تقلص ، وسيادتهم فى أفول ، وصارت تلاحقهم الهزائم ، وتهز من كيانهم النائبات ، وتطفىء من وجاهتهم فضائح سيرتهم مع خير رسول بعث منهم واليهم ، والى الناس جميعا .

أولئك قوم أتيح لهم أن يهتدوا بهدى رسول الله ، وأن يسودوا فى ظل دين الله ، وأن يعظموا بالعلم ، ومدنية الاسلام ، وأن تدوم لهم المكانة المرموقة لهم وزيادة ، وأن يتصل مجد عروبتهم فى الجاهلية بمجد عروبتهم فى الاسلام ، وفى ظلال القرآن .

فلم يكن منهم الا نكوص ، واعراض ، ولجاج وعناد ، وطغيان وجلاد فى سبيل الباطل والسير فى جند الشيطان .

وماكان رسولهم يسألهم على دعوته لهم أجرا غير المودة منهم فى القربى التى تجمعهم .

قوم نبذوا ماكان يليق بهم ، وآثروا ماكان قبيحا منهم ، لايستحقون الا أن تتجهم لهم الحياة ، ويكون الدين الجديد حربا على جموعهم ، وشؤما على مطامعهم ، وناسخا لسلطانهم ، ونذيرا لهم بالعذاب فى أخراهم .

٦ — وهذا جانب من تغيير الله لما كانت تحظى به قريش قبل تمردها على ربها ، وهكذا رسم الله للأمم فى تعاقبها أن تعتبر بمن سبقها ، ودعاها أن تدرك نفسها من مفاتن دنياها ، وأن تتفادى العاقبة التى ترى فيها غيرها •

ولم يكن باقيا بعد أولئك سوى أمة دعاها محمد بن عبد الله ، وليس بعده من داع جديد •

ونزل عليه القرآن من عند الله ، وليس بعد القرآن من مزيد •

فآمنت به طائفة ، وبقيت طوائف أخرى كذبته ، وعاشت فى غير استجابة له ؛ فهل يفلت المخالفون له من هوان الله وان أغراهم الامهال ؟ لا !!

ان لله موعدا لن يخلفه ، وما يغيب عن وعينا اليوم سيصبح أمرا مقضيا

ثم انظر : تجد أن الأمة المستجيبة لمحمد أصابت خيرا كثيرا يوم كانت على عهدها مع الله ورسوله •

ولكنها تراخت من بعد ، وتلهت عن مناهج دينها ، وانغمست فى جهالة وركنت الى كسل فى شئونها ، وأرخصت مجدها فنزلت لغيرها عما كان بيدها من سلطان بالدين ، وتسابق فى العلم ، واعتزاز بالخلق •

وأخيرا تهافتت أمم مسلمة على السير فى ركاب المخادعين . طواعيــة للأهواء •

وبقدر ماتساهلت فى مقوماتهــا كان تخلفها عن مــكانتها حتى أصبح الاسلام غريبا فيهم ، ومحاربا منهم •

ولايزال القرآن ينادى فيهم ، ويستنهض هممهم ، ولعل الله يعفيهم من هذا الامتحان ، ويوفقهم لخير ما يكون •

ولعلهم يدركون أن أجدر الناس بالحرص على مجدهم ، واحياء تراثهم هم الذين تنطوى قلوبهم وتلهج ألسنتهم — بلا اله الا الله محمد رسول الله فتلك أصدق كلمة تجرى على لسان •

وهى أقوى عهد بين الله والانسان •

وهى شعار الحياة البالغة منتهى الكمال •

وفى طيها رموز واضحة لكل مايبتغيه الدين والدنيا من الآمال — وفق الله الجميع •

المجتمع الاسلامى يحتمى بالقوة
ليعيش فى ظل السلام من اعدائه

١ — « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » .

٢ — « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »
(الأنفال ٦٠ — ٦١)

١ — كان ظهور الاسلام مفاجأة لقوم عاشوا طويلا فى طلاقة من الفوضى ، وفى بحبوحة من التقاليد التى تتكيف بها حياتهم كأمة لها مجتمع .

وكان كذلك مفاجأة لأمم أخرى ، لها سابقة فى التدين على أى نحو من التشريع اليهودى ، أو المسيحى .

فكان طبيعيا أن تثور حول هذا الدين خصومات ومشادة ممن يرون فيه تحويلا لهم عما ألفوا .

وكان مفروضا أن يحتاج هذا الدين الى وسائل وقائية يحتمى بها ممن يناصبونه الخصومة ، ويذودونه عن تبليغ رسالته الى الناس ما استطاع .

٢ — ونحن فى موقفنا الآن — أمام آيتين متعاقبتين فى سياق القرآن .

الأولى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » .

والثانية : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم .. »

فآية فى جانب القوة والدعوة اليها فى شموخ وتأكيد ..
وآية فى جانب المسالمة والدعوة اليها فى تشجيع وترغيب .

فهل بين التوجيهين تناقض ؟؟ أو فى السياق ما يثير غضاضة نحو مسلك الاسلام فى دعوته الرحيمة بالانسانية ؟؟

نظرة فى سبب النزول لهاتين الآيتين تكشف عن حكمة القرآن فى بناء مجتمعه على القوة ، والمسالمة .. فقد كان فى المدينة وحولها يهود يعيشون الى جانب المسلمين فى رغد ، وفى أمن ، ولهم قدم راسخة فى هذا الوطن .

ولما استقر الاسلام فى المدينة تظاهروا بالمسالمة أكثر ، وعقدوا مع النبى عهودا على الأمان ، وألا يظاهروا على المسلمين عدوا من أعداء الاسلام وما كادت غزوة بدر تنتهى بنجاحها على قريش مع قلة جيش المسلمين وكثرة الكافرين حتى ثار الحقد فى نفس اليهود ، واستكثروا على محمد أن يظهر شأنه ، وهو عربى وليس من بنى اسرائيل .

وتوجسوا أن هذا الانتصار الباهر ، له ما بعده من نجاح الاسلام . فهونت عليهم الأحقاد ، وخبث الطباع أن ينقضوا عهودهم طائفة بعد أخرى.

أ) فبنو قينقاع يبدءون بالسفه على النبى وأصحابه ، ويتهيئون لحرب المسلمين معتصمين بالحصون المنيعة ، فحاصرهم النبى فى حصونهم هذه وضيق عليهم ، حتى رضوا أن ينزلوا من الحصون على حكم النبى فيهم بما يرى .

فحكم بتجريدهم من أموالهم غنيمة للمسلمين ، وباخراجهم سالمين من القتل الى جهة أذرعات من بلاد الشام بعيدين عن الحجاز كله ، وظلوا هناك حتى بادوا جميعا .

ب) وبنو النضير — وهم الطائفة الثانية من اليهود —ينتهزون جلوس النبى عندهم للتفاهم معهم على أمر ، مطمئنا الى عهدهم ، فيدبرون الحيلة العاجلة لقتله غيلة بالقاء حجر عليه من فوق منازلهم .

ولكن الله — تعالى — يعصم رسوله من خيانتهم ، ويخبره الوحى بتدبيرهم ، فينصرف عنهم ، وينجو من شرهم ، ثم يجاهرون بالاستعداد لحربه ، فيحاصرهم كذلك أياما كانت نحسات عليهم ، حتى ارتضوا أن

يخرجوا من المدينة بقليل من أموالهم — دون سلاح — الى أرض خيبر مع زعيمهم — حسين بن أخطب .

ب) وكذلك فعلت قريظة — وهى أشد اليهود عداوة للاسلام وأهله .

حضر اليهم من خيبر — زعيم النضير : حسين بن أخطب .. ثم دلفوا الى قريش فى مكة وسواها ، وحالفوهم على تكوين جيش منهم ومن أحزابهم لحرب المسلمين فى المدينة .

فكان من أثر صنيعهم هذا غزوة الأحزاب وهى غزوة الخندق .

ولما تبين للمسلمين تكاتف الأحزاب من قريش ومن يواليها حفروا حول المدينة خندقا يعوق عن دخولها ، واكتفوا بالدفاع من داخل الخندق .

ولما اجتمع القوم ووجدوا ذلك الحاجز فى طريقهم رابطوا على جانبه ، ومنعوا المسلمين من الخروج عن المدينة الى أسفارهم ، أو مراعيهم ، ومتاجرهم .

وصاروا يناوئونهم بالسهام والنبال حتى أحس المسلمون بشىء من الجهد .

ثم سلط الله على الأحزاب أسباب الهزيمة المفاجئة ، فعصفت بهم الريح ، واجتاحتهم زوابعها ، وأطاحت بخيامهم ، وأمتعتهم ، وبددت شملهم على شر ما وقع بهم من خزى وهوان « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا » وفى نفس اليوم ، وعقب فراغ النبى من الخندق نزل عليه الوحى ألا يضع سلاحه ، فان الملائكة لم تضع أسلحتها .

أمر النبى صلى الله عليه وسلم بلالا أن يؤذن فى الناس : من كان سميعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة .

ثم حاصرهم النبى صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة حتى رضوا أخيرا أن ينزلوا على حكمه فيهم ، فتوسطت الأوس لدى الرسول مجاملة لقريظة وكانوا حلفاء لهم من قبل .

فرضي النبي صلى الله عليه وسلم أن يحكم فيهم زعيم الأوس سعد بن معاذ ، ففرحت قريظة بذلك وظنوا أنهم سيظفرون بالخروج مع شيء من المال، أو سالمين بأنفسهم على الأقل ، ولكن سعد بن معاذ كان أوفى لدينه من هؤلاء الخونة الذين أسرفوا أكثر من سواهم فى الكيد للمسلمين ، فقال لبنى قريظة : أترضون بحكمى ؟ قالوا : نعم .

فحكم بقتل الرجال جميعا — وكانوا ألفا — وأن تقسم الأموال بين المسلمين ، وأن تسبى النساء والأطفال ، وحينئذ قال له النبى صلى الله عليه وسلم لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات ثم نفذ الحكم . وطهرت المدينة من خبثها ، وحقا — هى كما قيل فيها : تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد .

بل طهرت أرض الجزيرة كلها من أهل الكتاب جميعا ، وتم هذا فى عهد عمر رضى الله عنه تنفيذا لوصية النبى صلى الله عليه وسلم ألا يجتمع فى جزيرة العرب دينان ، فلم يعد يهودى ولا نصرانى بالجزيرة منذ عهد عمر رضى الله عنه والجزيرة يومذاك مكة ، والمدينة وخيبر واليمامة .

وكانت قريظة شر الجميع ولعنة الله على الجميع .

٣ — ازاء هذا الانتقاض على العهود ، والتحالف على المسلمين كان الأمر بحاجة الى رسم سياسة منيعة تحفظ على المسلمين حياتهم وتكفل سير دعوتهم الاصلاحية ، فلا تتعثر فى حواجز التضليل ، ومقاومة المبطلين .

فالآية الأولى — تطلب الاستعداد للعدو بتوفير أدوات الحرب دون وقوف عند غاية ، أو اكتفاء بنوع من معدات النضال ، بل بكل ما تشمله القوة لفظا ، ومدلولا من جنود ، وفنون وأدوات ، وتخطيط ، وكل مايعتبر مجديا فى النضال ، وتهدى اليه سياسة الحروب .

ولما كانت الخيل أهم ما يستعان به قديما فى المصاولة ، وخفة الحركة صرح بذكرها القرآن : لا على سبيل الحصر فيها .

بل للاهتمام بها أكثر من سواها ، كالابل ، والأفيال مما كان يستخدم فى الحمل والهجوم على العدو قديما .

والقرآن يحض على اعداد القوة دون تحديد ، فيمتد مفهومها الى كل ما يستحدث على طول الزمن بواسطة العلم ، والاختراع .

واذا لحظنا أن عداوة أولئك الخصوم قد تأرثت فى نفوسهم ، وفى أعقابهم ، وأن الاسلام غلب حيلهم ؛ ومحاولاتهم حتى صار غير مقدور لهم أن يدرءوا نشاطه ، ولم يعد فى مطمعهم أن ينالوا منه مأربا .. اذا لحظنا ذلك أدركنا حاجته الى الحيطة منهم ، ولاستعداد لهم .. والوقاية من الشر سلامة من الوقوع فيه .

وهذا ما صرح به القرآن فى قوله تعالى « ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم » .

وأنت ترى فى هذا التوجيه حرصا على تربية المهابة للاسلام فى نفوس أعدائه جميعا ، فيكف عنه المناوئون له ، ويخشاه المتسترون فى أحضان النفاق ، ويتربصون به الدوائر والأحداث .

وبهذا ينبه الله أهل دينه الى أن لهم خصوما يختفون فى عداوتهم ؛ ولكن الله يعلمهم وحده ، فلا يحسن بنا الاستسلام للغفلة ، والمخادعة ، وتحسين الظن .

وعندما يكون الاسلام فى أهبة يخشاها عدوه تتاح للمسلمين حياة مستقرة الأوضاع ، واضحة المعالم ، ولا يهابون سفراء الشيطان الذين يحركون العداوات ويبغون الافساد فى الأرض ، وهى حياة أجدى على الدنيا من حياة تضطرب فيها الوثنية ، أو العصبيات المختلفة ، ولا توجد بينها وشائج روحية تقضى على الفوارق الجنسية ، والاقليمية بل تكون حياة تقتلع الأنانية ، وتركز فيهم نزعة الاخاء الانسانى كما يفعل كل ذلك الاسلام .

فاتجاه الاسلام الى ناحية القوة علانية بأنه لا يتعفف عن ولوج الحرب.

ولا يقتصد فى اقتحامها عندما يقتضيه أمر من جانب أعدائه .

ومن هذه الناحية — زعم خصومه أنه دين يفرض نفسه على الناس بالعنف ، وأنه ليس دين تفاهم بالعقل والحجة كما يدعى أهله .

٤ — وفى الحق أن هذا زعم البلداء الذين لم يتصلوا بتعاليمه ، ولم يعطوه من وعيهم قليلا ، بل هم يتخبطون فى رجم بالغيب ، فيستبيحون متابعة المرجفين فيه .

وكثيرا ما تنبه أناس من خصومه الى النظر فى آياته ، واستطلاع مقاصده ، فهداهم البحث والموازنة بين ما فهموه وما سمعوا عنه الى اعتناقه عن بينة ، واطمئنان ، بل شرعوا أقلامهم فى وجوه الآخرين منصفين لهذا الدين العام ، الخير للانسانية ، وبينوا أن الاسلام دين دعوة سلمية ، ولا يبغى من القوة الا أن يحمى نفسه بين موجات صاخبة من مطامع الشعوب ، تتقاذف الغواة من شياطين الانس يمينا وشمالا .

وهذا تحقيق مستمد من نسق الكتاب نفسه .

٥ — فبينما يحض على القوة فى آيتنا هذه يردفها بآية الترغيب فى السلم والحض على الأخذ به « وان جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله .. »

فأنت ترى القرآن يطفىء وقود الحرب بقبول الصلح مع خصومه اذا طلبوا المسالمة وأقلعوا عن التشبث بالحرب ، والعداوة .

وهذا أسلوب الرحمة يكفكف به نيران الحروب وهذه دعوة الانسانية يرطب بها وهج الخصومة ، ويجذب الأنفس الى التقارب فى ظلال السلام .. وفى ذلك خير للجميع فاذا لم يكن اقتناع بالدين الذى يحاربونه فليكن سلام ترف ظلاله على الحياة وأهلها وتستقر فى أمنه الأرواح .. ثم حسابهم فيما بعد ذلك الى الله الذى يتولى الجزاء .

وبهذا التوجيه الرحيم يعلمنا الله أن الأمر ليس أمر حرب تقام ، أو صلح يعقد ، فهذه وسائل عرفية جرت عليها شئون الدنيا .

أما الانتصار وغيره فتدبير من الله وحده ، وقد ينصر الله القلة ، ويهزم الكثرة دون قياس بالعدد ؛ أو الوسائل .

وبهذا يطمئن الله رسوله والمؤمنين فيقول له : « .. وتوكل على الله انه هو السميع العليم » ثم يطمئنه ثانيا الى أن الراغبين فى السلم حقا هم فى رعاية الله ، وأن المخادعين فى صلحهم هم فى خصومة مع الله .

« وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله » يتكفل الله بك فينصرك على مخادعيك ، ولك سابقة النصر على الكفار بما جمع الله حولك من الأنصار والمهاجرين فى المدينة حتى ألف بين قلوبهم جميعا فأصبحوا قوة متآخية لا يستهان بها ، وبهذه القوة زلزل الله الشرك وأهله ، وقوض حصونهم ، ومعالم كفرهم ..

وهذه سنة الله مع أوليائه المؤمنين : يؤلف بينهم ، ويشد من أزرهم ، ويهيىء لهم حياة طيبة بقدر ما يكون اخلاصهم لله .

أفبعد هذا الترغيب فى السلام ، وطرح الخصومة يظن من يظن أن الاسلام غير رحيم بالناس ، وأنه يتهافت على اراقة الدماء واشعال الحروب ، أهم ينسون ما يفعله يهود اليوم ؟

٦ — كثرت فى القرآن آيات القتال ، وكثر فيه الأمر بقتال المشركين كافة ، وبقتالهم حتى لا تكون فتنة منهم يتغلبون بها على دعوة الله عند من يتمكنون من فتنتهم .

ومع هذا فانك تجد القرآن فى موقف الدفاع . فان الحرب قائمة عليه من جهة أعدائه دائما وما كانوا يهادنونه الا ريثما يستعدون لمهاجمته .

فعلوا ذلك حينما أخرجوا الرسول وصحبه من مكة . وفعلوه يوم أفلتت عيرهم فى عودتها من طريق المدينة ؛ ثم ألبوا جموعهم لحرب المسلمين فكانت الدائرة عليهم فى بدر .

وفعلوا ذلك يوم الأحزاب ويوم الحديبية وكل هذه الأحداث استمرار لحرب عدائية مع المسلمين .. وقديما يقول الناس : الشر بالشر والبادىء أظلم .

وها هو الاســـلام ازاء خصومه اليوم يلاقى منهم الغـــدر والفتك ، والتألب ، والايذاء .. وليت حكام المسلمين المعاصرين يفطنون الى ما ينبغى الأخذ به : من تضامن فى الخير ويقظة من مخادعة خصومهم .. ولا نقـــول بحرب ولا عصبية ، وانما نقول بحيطة وعبرة .

واذا لم يكن فيما تتلوه من كلام الله زاجر لنا ، ولفتة الى تنظيم صفوفنا فلن يستقيم للعود الأعوج ظل ، ولن يبقى على الفساد ومجانبة الدين ملك . والله لا يصلح عمل المفسدين .

الهجرة النبوية

« والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا ، أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم .. »

(الأنفال ٧٤

١ — لم يكن حديث القرآن عن الهجرة النبوية خبرا يساق لمجرد العلم به وكفى .. وانما هو درس تربوى نستمده من الواقع الرهيب ، وننظر من خلاله كيف كان تخطيط الجهـاد فى مستهل الدعـوة ، وكيف يلتئم شمل المجاهدين حول المبدأ الصحيح ، والزعامة الرشيدة ، حتى ينتكس الباطل بعد صولته وينتعش الحق المهيض ، ويتسامى فى شموخه وعزته ..

وبيننا أناس يزعمون أن هجرة النبى — صلى الله عليه وسلم — وصحبه جميعا لم تكن سوى فرار من تعسف المشركين معهم .. وتحاملهم عليهم . وهو زعم تافه .. فقد كان يسيرا على الله أن يثأر لنبيه من خصومه ، دون أن يخرجه من وطنه ، ويجشمه عناء الاغتراب عن أهله . ولكنها تربية مقصودة ، وسياسة حيوية فى بناء المجتمـع ، وتخطيط لابد منه فى مقاومـة الطغاة ، وانهاض الحق على أنقاض الباطل .

٢ — كانت دعوة النبى لقومه دعوة سلمية هادئة من أول أمرها الى نهايتها .. غير أنها سلكت سبيل المصابرة والاحتمال ، والترفق ثلاثة عشرعاما فى مكة . فهو يتلقى الوحى من ربه ، ويبلغ قومه ، وهم يتعقبونه بالأذى : الا قليلا منهم آمنوا به ، وآزروه ، وتحملوا معه كثيرا مما تحملوا .

ولم يكن هذا العناد من قريش يشغله عن حسن التدبير ، ولا يستبد بتفكيره ، بل كان جهاده فى هذه المرحلة جهادا مزدوجا هادئا . يقوم عـلى النشاط الذهنى ، وعلى بعد النظر فى التخطيط للاهداف .. فهو لا يحبس

النظر على مناقشة قريش . بل يخرج عنهم الى لقاء الوفود القادمة الى مكة للحج ، أو للتجارة ، فيستقبل وفد نجران ، ويقرأ عليهم القرآن ، فيتأثرون بروعته ، ويستجيبون لدعوته ، ويعودون الى قومهم بالثناء عليه ، والدعوة له ، ويستقبل وفود المدينة فى مواسم الحج : مرة بعد أخرى ، وفى كل مرة يزداد عددهم ، حتى كانت مبايعتهم له عند العقبة — سنة اثنتى عشرة من مبعثه — عليه الصلاة والسلام — على الايمان ، والنصرة ، وكل ما يقتضيه العهد الصادق من تضحيات .

وتراه لا يكتفى بهذه المحاولة ، بل يرسل وفوده حينما كان بجانبه أعوان له ، ليبثوا دعوته الهادئة فى تلك الجهات .

ثم نراه يأذن لمن شاء من أصحابه فى الهجرة الى الحبشة : قرارا من أذى قريش فى ظاهر الأمر .. وترويجا لدعوة الاسلام بين الأحباش فى واقعه. وقريش مخدوعة بهذا القرار المصطنع ، ومغترة بقوتها على المسلمين وهى مسرفة فى الايذاء ، لتشد عليهم الخناق ، وتردهم عن دينهم الحق .

ثم ترسل فى أعقابهم الى الحبشة لتفسد الجو عليهم عند النجاشى ، ولتحرضه على ايذائهم ، ولكن النجاشى رجل كتابى ، متدين بالنصرانية ، فهو أقرب الى الايمان من مشركى قريش ، وهو وقومه يعرفون مالقى المسيح من خصومه اليهود . وما محمد فى دعوته ومع خصومه الا كما كان عيسى مع بنى اسرائيل ، وكما كان الأنبياء مع الكافرين بهم فى كل أمة ..

لذلك يستمع النجاشى الى المهاجرين المسلمين فيما حدثوه عن محمد ، ودعوته ، وصفاته ، وأخلاقه .. فلم يتسع صدره لمطاعن قريش ، ولم يتشكك فى صدق المسلمين ، بجانب ما عرف عنهم فى بلده من مكارم الخلق ، وحسن المعاملة الدالة على أن هذه المحامد أثر ناطق لذلك الدين الجديد .. فازداد حبه للمسلمين ، واتجه نحوهم بالاقبال عليهم . وأقسم فى علانية : « لولا ملكى لأتيت محمدا ، وآمنت به » ..

فانظر ما كان لهذه الهجرة من أثر طيب عند النجاشى وقومه ، فان لم تكن للمسلمين دعوة صريحة للنجاشى ، فقد كسبوا قلوب الأحباش ، وآمنوا

جانبهم أن يميلوا مع قريش .. وفى هذا حماية للظهر منذ الآن . فلا يخشى المسلمون ثغرة عليهم من جهة الحبشة: وهم الذين كانت لهم الهجمة قديما على الكعبة ليهدموها عام الفيل ، وقد أصبحوا اليوم على حسن نية بالمسلمين .

تلك محاولات كانت تأخذ طريقها فى قلوب الناس ، وتشق للاسلام مواطنه بين الجوانح ، دون قوة مادية تؤازرها يومئذ .. اذ لم يكن لمحمد جيش ، ولم يبعث محاربا هجوميا ، ولا مخاشنا فى مناجاة أحد .. بل لم يكن الله اذن له فى القتال ، ولو لمجرد الدفاع !

وكيف يقاتل وهو فى قلة من الأعوان ، وصفر الكفين من العتاد ؟

وانما هو مكلف فى هذه المرحلة الأولى بالصبر على ما يسفهون به ، ومكلف بالعفو عن كل ما يسوءه ، وأن يهجرهم هجرا جميلا .. حتى يحين له تصرف آخر بأذن الله ، وذلك كله أشبه بما تفعله الدول الحديثة اليوم من العمل — أولا — على كسب الضمير العالمى من طريق الدعاية السلمية ؛ وبث الوفود : الى أن يقتضى الأمر سياسة أخرى .

وأن شأنا خطيرا كهذا ليحتاج الى تعبئة الشعور ضد الخصوم ، ويحتاج الى اتقان الخطط ولو فى اجمال ، والى ترتيب الخطى وتدبر العواقب وان كان الأمر منوطا بالوحى السماوى فى توجيهه .

، كان يمكن أن يستأصل الله الكفار بعذاب من عنده . ويعفى رسوله محمدا — عليه السلام — من مطاولتهم كثيرا ؛ وهذه سنة الله قديما مع سابقى رسله فى أمم خلت كقوم نوح ، وهود ؛ وصالح الخ ..

ولكن حكمة الله قائمة على ماسنه لأمة رسوله محمد -- عليه السلام — فانه مرسل الى الناس كافة ، والى أن تقوم الساعة . فان تكفر قريش اليوم فسيؤمن بدعوته قوم آخرون .

والله يقول « فان يكفر بها هؤلاء . فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » .

وكان النبي — صلى الله عليه وسلم — يعلق أمله بربه في هداية قريش أو أكثرها ، فيدعو ربه ألا يأخذ أمته بالعـذاب كما أخذ أقواما آخـرين ، وكان من ترفقه بهم حتى في أحرج ظروفهم معـه أن يستطعف ربه عليهم ، فيقول :

« اللهم ان تهلك هذه العصابة فانك لن تعبد في هذه الأرض » .. ويقول « لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده » وغير هذا كثير .

وتلك الدعوات من محمد — عليه الصلاة والسلام — مأذون له فيها من الله لتكون الاستجابة تكريما للنبي ولأمته ومتفقة في ظاهرها مع حكمة الله في استبقاء هذه الأمة أخيرة عند الله الى موعدها المقـدور لها في هذه الدنيا .

وهكذا يظل الرسول — عليه السلام — والمؤمنون معه في جنوح الى الله .. وفي مد ، وجزر مع الكافرين ، ويظل عهد المسلمين مطردا في الزيادة ، خارجا عن مكة حتى يأذن الله رسوله بالتهيؤ لمرحلة جديدة ثانية من مراحل دعوته ، وجهاده في سبيلها ولم يعد المجال مجال مصابرة ، وامهال بعد ثلاثة عشر عاما ، ولم يبق من عمر النبي — صلى الله عليه وسلم — فيما يعلم الله سوى عشرة أعوام .

فلتكن المرحلة الجديدة هجرة من مكة التي ضاق أكثر أهلها بدعوة الاصلاح والهداية .. ولتكن الهجرة الى البلد الطيب الذي تهيأ أهله لايواء النبي والمسلمين ، وعاهدوه على النصرة في أوسع حدودها ، وذلك البلد هو: مدينة الأنصار .. أو مدينة الرسول بعد .

وفي اللحظات الخطيرة التي تخيرتها قريش لتنفيذ مكيدتها بقتل محمد — عليه السلام — وحسـبتها خاتمة المـكر به ، كانت رعاية الله لرسـوله بالخروج على أعين الحراس من فتيان قريش المتآمرين عليه ، ليلتقي بصاحبه الصديق أبي بكر ، ليذهبا الى الغار في جبل ثور ، ويختفيا فيه ، حتى تنصرف عنهم عيون القوم .

وأصبح الفتيان الأقوياء الكثيرون فى خزى .. بل أصبحت قريش كلها فى معرة ، اذ يجدون فريستهم أفلتت من أيديهم الى حيث لا يعلمون . وأى خزى يكون لجمع من الناس حينما يفلت من أيديهم شخص واحد ، أو شخصان لا حرس معهما ولا سلاح . ؟

وقاية الله أغنت عن مضاعفة :. من الدروع وعن عال من الأطم (الجبال) .

فالهجرة فى حقيقتها مبدأ حياة جديدة ، وأول نذير للكفار بأن الدعوة الرحيمة التى استهانوا بها ، وطاردوها ستصبح فى اعتزاز بأنصارها ، وستلقاهم بمثل ما فعلوا معها من القوة والتنكيل .

غير أن هذه القوة ليست غاشمة ، وهذا تنكيل ليس عن جبروت ، وانما ذلك للدفاع حتى يقف شرهم عند حده ، وينقشع من طريق الاسلام ذلك الطغيان .

فالهجرة فاصلة بين عهدين : عهد المسالمة والاحتمال ، واستدراج المتمردين ، بالحسنى الى جانب السلام ..

وعهد المعاملة بالمثل ، ومقاومة الفساد بالقوة مع نفوس يفسدها الحلم، ويغريها التسامح بالعصيان .

والهجرة فى اعتبارنا — لا شك — وقعت فى زمنها الملائم فى علاج هذه الحياة الضاربة فى الفوضى من تاريخ بعيد .

وقعت الهجرة حيث كان ينزل العذاب الماحق للامم المتمردة على رسلها ..

فان يكن مصرع الكفر قديما بفناء أهله : واهلاكهم دون المؤمنين : فمصرعه فى صدر الاسلام كان بالهجرة عن مواطن قريش الى دار الأنصار ؛ وهى شاطىء السلام ، ومركز الاسلام ..

فالهجرة مبدأ التخطيط الجديد ، وفاتحة جهاد مسلح ، وفاتحة نصر مؤزر ، ودعم لرسالة محمد ، واقامة لدينه الجديد الخالد فى هذا الوجود .

وان يكن عمل الكافرين كله سيئا ، فهجرة النبى — عليه السلام — والمسلمين كانت بتدبير الله وحكمته ، وقد باء المكر السيء بالخذلان ، ووقع تدبير الله على مقتضى حكمته : « ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله » ، « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

وبعد ..

فهل تكون الهجرة خوفا من أذى قريش ، أو مجرد فرار منهم الى مأوى عند غيرهم فحسب ؟ لا .. لا .. وانما هى تدبير من جانب الله ، يتفق مع سنن الاجتماع فى الحياة .. هى محاولة فى تضليل الخصوم ، واحباط كيدهم ليكون ذلك أشد ايلاما لهم بعد أن أجهدوا أنفسهم ، واعتزوا بكثرتهم .

وقد اختار الله لرسوله ذلك المنهج ليكون له ولمن معه نصيب من البلاء ، ولا يكون فى نظر خصومه أقل منهم تدبيرا ، ولا جهادا فى سبيل الحق الذى يناهضهم من أجله .

فان يكن لهم ثبات على الباطل ، فالاستبسال أحق فى جانب الحق ، والله ورسوله أولى بالاستجابة والايمان ، والمؤمنون أشد حرصا على الحق، وأولى بالجهاد فى سبيله : للدين ، أو للدنيا .

واختار الله لرسوله ذلك المنهج ليكون قدوة لنا من بعده ، فلا نخضع للهوان ، ولا نقعد عن الجهاد ، ولا نؤثر العيش الرخيص فى ظلال الأمن المهين .. نجاهد لنعز ديننا ، ووطننا ، ونعتز فى حياتنا .

وما دام هذا التدبير كان مرسوما لمحمد من جانب الله فلا يسوغ لفاهم أن يحسب محمدا كان خائفا من أحد عند هجرته أو اختفائه فى الغار ، فانه مستأنس بوعد الله له « واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك .. ويمكرون ، ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .

لم يكن محمد خائفا ، وانما كان ينفذ ما رسمه ربه من خطة فى عمل يعتبر فى حقيقته ، وفى ظاهره من شئون الدين والدنيا ، وجهادا فى سبيل الحياة .

نعم : كان أبو بكر فى صحبته للرسول فدائيا عن طيب نفس ، وكان مع هذا شديد الخوف : لا على نفسه ، ولكن على حياة الرسول .. وأبو بكر ليس رسولا حتى يعلم باطن الأمر بوحى الله له .. وانما هو انسان ، يهزه الطبع البشرى هزة الخوف على نفسه أو على الرسول ، ولا حرج عليه فى هذا .

ولكن الذى بدا منه أنه كان يخشى على الرسول — عليه السلام — قبل أن يخشى على نفسه .. فحينما قدما على الغار دخله أبو بكر — أولا — ليتحسس ما فيه من حشرات قبل أن يدخله الرسول ، وقد لدغته عقرب فى اصبعه ، وهو يوطىء المكان للرسول بيديه ، وابتهج لأن الاصابة جاءت فيه ، وأخذ ينشد قوله :

ما أنت الا اصبع دميت
وفى سبيل الله ما لقيت

وحينما اقترب الباحثون من الغار وأصبحت أعينهم على نظرة من النبى — عليه السلام — مع صاحبه ، وأصبحت آذانهم على مسمع من الأنفاس اشتد خوف أبى بكر على رسول الله — عليه السلام — فطمأنه الرسول بما هو مستقر فى نفسه ، وقال له : يا أبا بكر .. ما ظنك باثنين : الله ثالثهما ؟.. « لا تحزن ، ان الله معنا » .. اطمأن أبو بكر الى كلام الرسول — عليه السلام — وأيقن أن عنده وحيا فى هذا ..

ثم أذن الله بتحقيق السلام ، وتمت الهجرة ، وكان من شأنها فى نهضة الاسلام وعزة أهله ما وعد الله به رسوله والمؤمنين ..

تم الجزء الثانى

فهرس
الجزء الثانى من
كتاب نفحات القرآن

الموضوع	الصفحة



(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)